# شعاع

# من المحراب

## الجزء التاسع

إعداد

سليمان بن حمد العودة


بسم الله الرحمن الرحيم

شعاع من المحراب

(ح) سليمان بن حمد العودة، ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سليمان بن حمد

شعاع من المحراب .. خطب / سليمان بن حمد

الرياض، ١٤٣٣ هـ

١٠ مج

١- خطبة الجمعة ٢- الخطب الدينية ٣- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ٩٣١٥ / ١٤٣٣

رقم الإيداع: ٩٣١٥ / ١٤٣٣

ردمك: ٢ - ١١٥٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٤ - ١١٦٦ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ٩)

رقم الإيداع: ٩٣١٥ / ١٤٣٣

ردمك: ٢ - ١١٥٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

١ - ١١٦٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ١٠)



**الطبعة الثانية**

**١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م**

**دار المغني للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية**

dar_almoghny@hotmail.com

**هاتف ناسوخ: ٠٠٩٦٦١٤٩١٦٩١٥ - ٠٠٩٦٦١٤٢٥٧٠١٩**

# مظاهر وملاحظات في الإجازة الصيفية[1]

## الخطبة الأولى:

الحمدُ لله يُقلِّبُ الليلَ والنهار، إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه خيرُ من صَلَّى وصام وحَفِظَ الجوارح.. واستثمرَ الزمان.. اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسَلين وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ، والتابعينَ ومن تَبِعَهم بإحسان.

أُوصِي نفسي وإياكم معاشرَ المسلمين بتقوى الله، وتلك وصيةُ الله للأولينَ وللآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[2].

أيها المسلمون: ونحنُ الآنَ في نهايةِ الامتحاناتِ الطلابية وعلى أبوابِ الإجازة الصيفية.. بِمَ يُفكِّر الناس؟ وما هي أَمَانيُّهم، وما مخطَّطاتُهم لهذه الإجازة، وكيف يُستثمرُ الوقتُ فيها؟ ما هي الملاحظاتُ والأمورُ التي يَحسُن التنبُّهُ لها والتذكيرُ بها؟

بِمَ يُفكِّر الشبابُ.. وكيف يُخطِّط الأولياءُ، وما هي جهودُ العلماءِ والدعاةِ وطلبةِ العِلم؟ وما أثرُ المؤسساتِ التربويةِ والقطاعاتِ الحكوميةِ في حماية الفضيلةِ ومحاصرة الرذيلة، والتقليلِ من نِسَبِ الجرائمِ في كلِّ حين، ولاسيَّما في الإجازةِ حيثُ الفراغُ، والتجمُّعاتُ والسَّهَراتُ والسفرياتُ وما ينتج عنها؟

عددٌ من التساؤلاتِ تَرِدُ، وعددٌ من المسؤولياتِ تُهمَل أو تُغفَل وبكل حالٍ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/ ٣/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣١.

فما أن تنتهيَ الامتحاناتُ وتُعلَنَ النتائجُ إلا وتبدأ المشاريعُ العائلية.. ولكلٍّ وِجْهةٌ هو مُولِّيها.. وبين يَدَي هذه المشاريعِ أُذكِّرُ بالنِّقاطِ التالية:

١- استحضارُ عَظَمةِ الله وتقديمُ أمره، والخوفُ من عقابِه قبل الإقدام على أيِّ مشروعٍ عائليّ، سواءٌ احتاجَ إلى سفر، أم كان داخلَ البلد وفي حدودِ الإقامة.

٢- نذكِّرُ الأولياءَ لمسؤوليَّتِهم في الرعايةِ والقِوَامةِ، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيتِه.. وفَرْقٌ بين وليٍّ يُخطِّط ويستشيرُ أهلَه وأولادَه بالأصلَح.. وبين وليٍّ يُخطَّط من ورائه ويكون دورُه دورَ المنفِّذِ والمُنفِقِ لا أكثر؟

٣- وعلى الشبابِ والفتياتِ والأُمّهات أن يتذكَّروا قيمةَ الأعمار وأهميةَ استثمارِ الأوقات، وسرعةَ الآجال، وكثرةَ المنايا، فلا يأمروا أهليهم وأولياءَهم إلا بالخير.. ولا يُرهِقوهم بنفقاتٍ تضرُّهم ولا تنفعُهم، وتَحرِفهم ولا تهديهم سبيلًا.

٤- وعلى المؤسَّسات التربويةِ والقطاعاتِ الحكوميةِ أن تقومَ بمسؤوليتها خيرَ قيام، وأن تخططَ للبرامجِ النافعة قبل أن يحزِمَ الناسُ أمتعتَهم للسفر فلا يلتفتون إلى برامجِهم، وربما لم يعلموا بما لديهم إلا بعدَ عودتهم من سفرهم.

أيها الناس: وثَمّةَ مظاهرُ بدأت تنتشرُ بين الناسِ في الإجازة.. وأُنبّه إلى شيءٍ منها - وأكتفي بخمسٍ أو ستٍّ منها:

١- السهر.. وتلك ظاهرةٌ لها مخاطرُها الصحية والأمنيةُ والخُلُقية.. كم يجري في بعض السَّهَراتِ من صَخَبٍ ومنكراتٍ تتقطع قلوبُ الغيورين لها بمجرَّد سماع أخبارِها.. وكم رُزِئت عوائلُ وخُدشت كرامةُ بعضِ أفرادِها بسبب هذه السهراتِ الصاخبة.

وحتى السهراتِ العائلية التي تَطُول إلى قرب الفجرِ، ثم ينام القومُ عن صلاة

الفجر حتى يخرجَ وقتُها، تلك سهراتٌ نَصَبَ الشيطانُ فيها رايتَه، وهل يسهرُ أولئك على طول قيامٍ أو تلاوة قرآن؟ وأين نحنُ من قومٍ قال اللهُ عنهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾(١).

لقد رحلوا عنّا وقَدِموا إلى ما قدّموا -وخَلَفت من بعدهم خُلوفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ.

٢- أما السفرُ فهو سبيلٌ للتنفيس والترويحِ عن النفسِ والتأمُّلِ في كون الله الفسيح.. ولكنَّ المحظورَ حين يكونُ السفرُ مجاوزًا للحدودِ المشروعة، به تُهدَر الأموالُ وتُهدَر معها الكراماتُ، ويَضعُف الحياءُ، وتقلُّ الرقابةُ لله، ومن الفُهومِ الخاطئةِ عند بعض الناس أنه يَحِلُّ لهم في السفرِ ما لا يحلُّ لهم في الإقامة، أو شعورُ بعضهم بالخوفِ من الناس أكثرَ من خوفِهم من ربِّ الناس ...!

ومن المخاطرِ التي قد لا يتنبه لها بعضُ الأولياء السفرُ للخارج في بيئاتٍ تؤثرُ بشكلٍ أو بآخرَ على السلوكيات، وربما على المعتقَدَات.

وضَعْفُ الرقابةِ في السفر له مؤثراتٌ سلبية حتى ولو كان السفرُ لأطهرِ بقعةٍ في الأرض، وكم يشكو رجالُ الهيئةِ من صِلاتٍ واتصالاتٍ غير مشروعة بين فتيانٍ وفتياتٍ كان أهلُهم يتعبَّدون، وهُمْ وهنَّ في الأسواق يتجوَّلون.. فهل يَعِي الأولياءُ تلك المخاطرَ ويراقبون ويهتمُّون بأوقاتِهم وأوقاتِ من يرحلون معهم من بنينَ أو بناتٍ؟

أخي الشاب: وقبل أن تحزم أمتعةَ السفر تَوقَّف وسائِل نفسَك: ما الهدفُ من السفر؟ وإلى أين تسافر؟ وماذا لو داهمَتْكَ المنيَّةُ وأنت تنوي السوءَ، أين أنت من هِمَّة شابٍّ قال عن نفسِه كما نقل الذهبيُّ: حفظتُ القرآنَ وأنا ابنُ سبع

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٧، ١٨.

سنين، وما من علمٍ إلا وقد نظرتُ فيه وحصَّلتُ منه الكُلَّ أو البعض.. وما أعلمُ أني ضيَّعتُ ساعةً من عمري في لهوٍ أو لعب[١].

لقد رَحَلَ هذا الشابُّ عن الدنيا وبقي ذِكرُه الطيبُ نديًّا عبرَ القرون، فهل فكّرتَ أخي الشاب بأي نوعٍ من الذكر سيبقى لك بعدَ رحيلِك؟

٣- والنُّزهة والسِّياحة لفظةٌ محبَّبةٌ للنفوس صِغارًا كانوا أم كِبارًا.. ولكن أيّ نزهةٍ، وما نوعُ هذه السياحة؟ إن النزهة لا يلزمُ أن تكون بمقارفةِ المحرَّماتِ ولا بإسقاط الحياء، ولا بسماع الغِناء والخَناء.. ومع الوعي في المجتمعِ لا بدَّ من اختيارِ النزهةِ المناسبة، تلك التي تُروِّح عن النفوس، وتُدخِل البهجةَ ويفرحُ لها الصغار ويأنس بها الكِبار.. لكن مع بقاءِ الحِشْمةِ والفضيلة ودونَ خوارمَ للمُروءة، أو إسقاطٍ للشَّهامةِ والرجولة.

ومما يَجدُرُ التنبيهُ له أن البعض قد يرحلُ للنزهة والسياحة دون أن يستصحبَ أهلَه وأولاده، وذلك من بابِ الخوف عليهم وحمايتِهم لكنه يقعُ في المحظورِ الآخرِ حين تطولُ غَيْبَتُهُ عن أسرته تاركًا الحبلَ على الغارب، فيحصلُ للأسرة في حالِ غَيْبته من الشرورِ والفساد ما يَنْدَى له الجبين، وقيِّمُ الأسرة غافلٌ في سياحته مستمتعٌ بتنزُّهه، ولربما صُدِمَ بالواقعِ بعد عودته.. لكنه بإهمالِه يتحمَّل مسؤولية ما أَهمَل، وبطولِ غَيبته وعدمِ رقابته يجني ثمارَه المُرَّة!

٤- وحين يكون الحديثُ عن البيوتِ والأولاد.. يُمكن القولُ: إن لدينا قدرةً على ضبطِ بيوتنا -إذا أردنا- وتوجيهِ أولادنا إذا تَمَّت قناعتُنا، والدليلُ على ذلك أننا نُعلِنُ حالةَ الطوارئ أيامَ الامتحانات.. فنهتمُّ بإيقاظِ الأبناء والبناتِ مبكِّرين حتى لا تفوتَهم الامتحاناتُ، ونحرصُ على عدمِ سهرِهم حتى يستيقظوا نَشِطين،

---

(١) تهذيب السير ٣/ ١٣٩٥.

ونمنع مشاهدتَهم لبعضٍ ما يشاهدون حتى لا تؤثِّرَ على دراستِهم، بل وفوقَ ذلك نشجِّعهم على مزيدِ الدراسة والتحصيل بالحوافزِ أثناءَ الامتحاناتِ وبالهدايا بعد التفوُّقِ والنجاح، وهذا شيءٌ طيِّب، ولكن أين مثلُه أو قريبٌ منه بعد انقضاءِ الامتحانات؟

إن الإخفاقَ الذي يَحصُل لابنِك وابنتِك حين ينحرفُ خُلُقُه -لا قَدَّر الله- أعظمُ من إخفاقِه في الامتحان، وإن الرسوبَ عن المعالي حين تمتلئُ البيوتُ بالشرورِ والآثامِ وتكونُ مستودَعًا لشياطينِ الإنسِ والجنّ.. لا تُقارَن مطلقًا بالرسوب في مادةٍ أو مادتين أو أكثرَ للبنين أو البنات.

ونظرتُنا لمستقبلِ أولادنا ينبغي أن تكونَ أعمقَ وأشملَ من مجرَّد النجاح في الامتحان الدُّنيوي، والحصولِ على الشهادةِ والوظيفة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].



(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ خَلَقَ فسوَّى، وقدَّر فهَدَى، وله الحكمُ في الآخرة والأولى، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتِها ويعلمُ مستقَرَّها ومستودَعَها.. وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله.

عبادَ الله: وثَمّةَ أمرٌ التذكيرُ به والتنبيهُ عليه غايةٌ في الأهمية في كلِّ زمانٍ ومكان.. ولكنّ الحاجةَ إلى التنبيه عليه في الإجازاتِ وحين السفريّاتِ والتنقلاتِ يكون أشدَّ.

٥- إنه الغَيرةُ على المحارِم.. ذلكم الرباطُ الأُسَريُّ الذي خفّ ميزانُه عند البعض.. فنتج عن ذلك من المفاسدِ والضَّياعِ ما يَنْدَى له الجبين.. وعند رجالِ الأمن والحِسبة الخبرُ اليقين! إنَّ من أبرزِ مظاهرِ ضعف الغَيْرة عدم شعورِ الوليِّ بالمسؤولية.. أو عدمَ ممارسةِ هذه المسؤولية بالشكل المطلوب. ومن آثار ذلك غَفْلةُ الوليِّ أو تساهُلُه في ما يدخل البيوتَ من آلاتِ ووسائلِ اللهو، وأنواعِ الأشرطةِ والمجلات، وفتحِ الباب على مِصْراعيهِ على أنواع القنوات.. وتلك وربِّي تعملُ عملها في الصغير والكبير، والذكرِ والأنثى، والمتعلِّم والأُمي.

ومن الآثار لضعف المسئوليةِ والقِوَامةِ المشروعة ذهابُ الأسرة حيث شاءوا للحدائقِ والمتنزَّهات أو نحوِها، ولربما ذهب بهم الأبُ أو الابنُ أو السائق فوضعهم في أطرافِ النهار ولم يَعُدْ لهم إلا في ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل.. وهو لا يدري ماذا يصنعونَ ولا مَنْ يخالطون؟

وقُلْ مثلَ ذلك عن من يَضَعُون نساءَهم وبناتِهم في الأسواقِ لساعاتٍ طِوَال.. وقد يتعرَّضون لمخاطرَ ومراوداتٍ لا يستسلمون لها في البدايةِ وربما ضَعُفوا

واستسلموا في النهاية.. وهو سببٌ في الإهمال.. وعليه كِفْلُه من الانحرافِ إذا لم يَحفَظِ الأمانةَ ولم يلتزمْ بالمسؤولية والقِوَامة.. وينبغي أن يُعلَمَ أن الثقة شيءٌ وفعلَ الأسباب المشروعةِ والأخذَ بأسبابِ النجاةِ والسلامة شيءٌ آخرُ، ولا تعارُضَ بين الأمرين.

ومن آثار ضعفِ الغَيْرة أن بعضَ البيوت ولا سيَّما النساءِ -باتت تتَّصلُ بمطعمْ أو آخر لتأمين وجبةٍ والمجيءِ بها للبيت في غَيْبة الرجل، ولا تسأل عن مخاطرِ حديث المرأة مع رجلٍ أجنبيّ.. فكيف إذا جاءَ للبيت وربما استقبلَتْه المرأةُ صاحبةُ الطلب، وسلَّمته المبلغَ واستلمتْ منه الطعام؟ كم من فرصةٍ للشيطانِ في هذه المُداخَلات والمحادَثات.. وهل هذه وتلك من المروءةِ والحياءِ في شيء؟ وهل يرضى بها أصحابُ الشَّهامة.. فضلًا عن أصحابِ الدِّيانة؟

إن الانشغالَ بالدنيا واللُّهاثَ وراءَ المادة.. ربما كان سببًا لبعض هذه المظاهر.. فالأبُ يفرحُ بمن يقضي عنه حوائجَ أهله.. وبأيِّ شكلٍ من الأشكال -دون تنبُّه للمخاطرِ والمفاسد المستقبلية، وكلما باشَرَ الرجلُ أو أحد أبنائه الكِبارِ قضاءَ حوائجِ أهله، واعتنى بذهابهم ومجيئهم، كان ذلك دليلَ النُّبل ومؤشرًا للاهتمامِ بالأهل والأولاد، وحين يَتصوَّرُ الوليُّ أن ذلك جزءًا من واجباتِه، وقد يكون أَوْلَى من بعضِ مسؤولياته التي يمارسُها وينشغلُ بها، كلما كان ذلك دليلًا على الوعي ومؤشرًا إلى إعطاءِ الحقوقِ وصيانة الحُرُماتِ، وحين نلومُ بعضَ النساء التي تتوسَّعُ في الخروج هنا وهناك، وفي كثرة الحديثِ مع الرجالِ الأجانب والاختلاطِ بهم، ينبغي أن نلومَ كذلك الرجالَ الذين يُقصِّرون في واجباتِهم مع أهليهم.

عبادَ الله: لا ينبغي أن نكتفيَ بالتحسُّر على الواقعِ والتأثرِ لسماع الأخبار السيئة، ونُطأطأَ الرؤوسَ ونُحوقلَ عند سماع أنواعِ الجرائم الواقعة لمن حولَنا،

بل ينبغي أن نحاسِبَ أنفسَنا ونمارسَ الرقابةَ والقِوامة داخلَ بيوتنا، هذا على مستوى الأفراد.

أما على المستوى الآخَر فينبغي أن يكون للعلماءِ والدُّعاةِ وطلبةِ العلم دورٌ أكثرُ مما هم عليه في التحذيرِ من الجريمةِ وبيان سُبُل الوقاية في المدن والقرى والمناطقِ النائية، وإذا وُجِدَ فقراءُ يحتاجون لسدِّ جَوْعتِهم وستر عوراتِهم.. فثَمّةَ فقراءُ يحتاجون إلى نوع آخر من الطعام واللباس.. إنهم محتاجون إلى غذاءِ الإيمانِ ولباسِ التقوى، محتاجون إلى من يأخذُ بأيديهم إلى برِّ الأمن والإيمان.. ويُحذِّرهم من الفتنِ والشرورِ والآثام والحَيْرة والقلق.

وعلى صعيد آخرَ، فالجهاتُ المعنيةُ بالأمن وتخفيضِ معدَّلات الجريمة عليها كِفْلٌ كبير من المسؤولية، فهل تَرصدُ أبرزَ مظاهرِ الانحراف بأسبابها وآثارها، ونِسَبها؟ وهل تقوم باقتراح وتنفيذِ البرامج التي تُعالج وتحذِّر.. وتُرغِّب وترهِّب.. أم إن دورها ينتهي عند حدود المتابعةِ للجريمة إذا وقعت.. دون وضعِ حلولٍ مستقبليةٍ تمنع مَثيلاتِها -أو تمنع ما هو أعظمُ منها؟

وباختصارٍ أقول: إن حمايةَ المجتمع من أيِّ انحرافٍ مسؤوليتنا جميعًا أفرادًا ومؤسَّساتٍ، وحين نَصدُق ونُخلِص ونُفكر ونُخطط لابدَّ أن نُنتج.

معاشرَ المسلمين: إن عجلةَ الزمان تدور، والوقتُ يمضي سريعًا، والموفَّق من حَفِظَ وقتَه واستثمرَه لعملِ الصالحات، والكيِّسُ من عَظَّم حُرماتِ الله في حالِ سفره أو إقامته، وفي حال قوّتِه أو ضعفه، والسعيدُ من جاءته منيَّتُه وهو مُستعدٌّ للقاءِ ربِّه، وإذا كان الكثيرُ منا يجهدُ ويخطِّط لدنياه، فكم هم الذين يُفكِّرون ويخطِّطون للآخرة بالقَدْر المناسبِ لطولِ الإقامة فيها، ولنوعِ النعيم أو الجحيمِ الموعودِ فيها؟

لابدَّ من مجاهدةِ النفسِ والصبرِ على طولِ الطريق، وتحمُّل عناءِ السفر، ومن وصايا الصالحين أسوق لكم هذه الوصية: «مَنْ لم يحتملْ ألمَ التعلُّم لم يَذُقْ لذةَ العلم ومَن لم يَكدَحْ لم يُفلح، إذا خلوتَ من التعلم والتفكيرِ فحرِّك لسانَك بالذكر وخاصةً عند النوم، وإذا حَدَث لك فرحٌ بالدنيا فاذكر الموتَ وسرعةَ الزوال وكثرةَ المنغِّصات، إذا حَزَبَك أمرٌ فاسترجِعْ، وإذا اعتَرَتْكَ غفلةٌ فاستغفِر، واعلم أن للدِّين عَبِقةً وعَرَقًا يُنادي على صاحبه، ونورًا وضيئًا يُشرِق عليه ويدلّ عليه. يا مُحيِي القلوبِ المَيْتةِ بالإيمان خُذْ بأيدينا من مَهْواة الهَلَكة وطهِّرنا من دَرَن الدنيا بالإخلاص لك»[1].



(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥٦١.

# الإسلام والمسلمون في مقدونيا(١)

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوة الإيمان: كثيرةٌ هي البُؤَرُ المشتعلةُ في العالم، ولكنَّ نصيبَ المسلمين منها أكبرُ من غيرِهم، وبغضِّ النظرِ عمَّا يجري اليومَ من أحداثٍ داميةٍ في فلسطين، أو في إندونيسيا، والأفغان والفلبين وأرضِ الشيشان والبَلْقان.

وقبلَ أن يتناسى المسلمون أحوالَ إخوانِهم المسلمين في البوسنة والهرسك، وكوسُوفا على أرضِ (البلقان) تُطِلُّ اليومَ قضيةٌ جديدةٌ قديمةٌ للمسلمين في (مقدونيا) إنها بِشارةٌ من جانبٍ، ومأساةٌ من جانبٍ آخر - بشارةٌ تؤكِّدُ وجودَ الإسلامِ الفاعل، وتحرِّكُ المسلمين للدفاعِ عن عقيدتِهم ودينِهم، والمطالبةِ بحقوقِهم المهضومة، ومأساةٌ حيث يتعاملُ النصارى الأرثوذكس المقدونيون مع المسلمينَ المقدونيين (وغالبيتُهم من الألبان) معاملةً دُونِيةً شرسةً، ويخطِّطون لتذويبِهم وسَلْخِهم من هُوَّيتِهم المسلمةِ مستقبلًا.. ومأساةٌ كذلك -إذ تجتمعُ القوى الكافرةُ من الغرب والشرقِ على حربِ المسلمين في البلقان عمومًا وعلى أرضِ مقدونيا- في هذه الأيام - خصوصًا.

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٦/ ٣/ ١٤٢٢هـ.

فماذا نعرفُ عن مقدونيا، والمسلمين فيها؟ وماذا عن حربِ النصارى وخططِهم تُجاهَ المسلمين؟ وما هو الدورُ الإسلاميُّ المطلوب؟

تقع (مقدونيا) في البلقان في أوروبا الشرقيةِ، وهي إحدى جمهورياتِ يوغوسلافيا السابقة، تحدُّها (اليونان) جنوبًا و(كوسوفا) وصربيا من الشمالِ، و(بلغاريا) من الشرق، و(ألبانيا) من الغرب، ويبلغُ سكانُها مليونين وأربعمائة ألفٍ، نسبةُ المسلمين خمسٌ وأربعون بالمائة ٤٥% وأغلبهم (ألبان)، ونسبةُ النصارى خمس وخمسون بالمائة ٥٥% معظمهم أرثوذكس، هذا حَسَبَ تقدير الألبان، أما تقديرُ الحكومة فيقول: إن نسبة المسلمين ٣٠%، والنصارى ٧٠%[1]، العاصمة (سكوبيا) وأهم المدن: تتوفا، مانانستير، كومانوفا، ستروغا.

وقد دخل الإسلامُ إلى البلقانِ قبلَ الفَتْح العثماني، وذلك عن طريق التجارِ والدُّعاة، وفي العهدِ العثماني وبعد معركة (كوسوفا) عام ٧٩٢هـ ثنتين وتسعين وسبعمائة هجرية ١٣٨٩م دخل الألبانُ في دينِ اللهِ أفواجًا، وحينما ضَعُفتِ الدولةُ العثمانية اتَّحدت كلٌّ من (صربيا وبلغاريا واليونان) ضدَّ الدولةِ العثمانية وانتصروا عليها، وقاموا بتقسيمِ (مقدونيا) بينهم، وذلك عام ١٩١٣م، وبقيت (مقدونيا) على تلك الحالِ حتى الحرب العالميةِ الثانية، وبعد الحربِ العالمية الثانية (١٩٤٥) جاء (تيتو) إلى المنطقة بالشيوعية، وكوّنَ الاتحادَ الفِدْرالي اليوغوسلافي الذي ضمَّ عددًا من دولِ البلقان، ومنها (مقدونيا)، وإنما شمل (تيتو) (مقدونيا) بالانفصال ليُحقِّقَ هدفَه من نشرِ الشيوعية وأهدافَه السياسيةَ الأخرى.

---

(١) انظر: الإسلام في جمهورية مقدونيا، تقرير من مؤسسة الوقف الإسلامي ١٤٢٢هـ.

وبعد سقوطِ الاتحادِ السوفيتي والنظامِ الشيوعي عام ١٩٩٢ أعلنت (مقدونيا) استقلالَها التامّ. ولكن كان زِمامُ الحكم بأيدي مُخلَّفات الشيوعية.. وعلى الرغمِ من مشاركةِ المسلمين في حركةِ الاستقلال إلا أن الحكومة المقدونية حكومةٌ نصرانيةٌ أرثوذكسية في الغالب، وتمثيلُ المسلمين في الحكومة والجيش ليس على حسبِ تعدادِ المسلمين ونسبتِهم[1].. وهذا أوجدَ عند المسلمين منذُ الاستقلالِ وحتى اليومِ شعورًا بالظُّلمِ تجاهَهم، وشعورًا بأهدافِ النصارى لتذويبِهم وسَلْخ هويتِهم المسلمة.

ولكن المسلمين في مقدونيا مُدرِكون لهذا الخطر، وقد استعصَوْا قديمًا على محاولةِ الشيوعيين في طمس هويتهم، وهم اليومَ يعلنون الرفضَ لحركات النصارى ضدهم وضد إسلامهم.

أجل إنَّ الراصدين لحركةِ الإسلام في مقدونيا ونشاطِ المسلمين هناك يقولون: إن المتجوّلَ في مقدونيا ربما ظنَّها دولةً إسلاميةً لكثرةِ المساجد بها، حيث بلغَ عددُها سبعين وأربعمائة مسجدٍ، وفي مدينة (تتوفا) وحدَها ثمانون مسجدًا، وجامعان كبيران لأداءِ صلاة الجمعة، وفي مقدونيا كتاتيبُ وحِلَقٌ لتعليمِ القرآن تزيدُ على ثلاثٍ وستين حلقةً، وفي مقدونيا كذلك - كما يُقال - صحوةٌ إسلاميةٌ تُبشِّرُ بمستقبل خيرٍ للإسلام والمسلمين، كما يوجدُ في مقدونيا عددٌ من المؤسَّسات واللجانِ الإسلاميةِ العاملةِ في حقل الدعوة - وإن تفاوتتْ في نشاطها وتوجُّهاتها وعملِها-.

هذه المظاهرُ الإسلامية وغيرُها لاشكَّ تُقلِقُ الأعداء.. لاسيما في وسطِ

(١) إذ يشغل النصارى المقدونيون ما نسبته ٨٤.٥% من الوظائف الحكومية، في حين لا يشغل المسلمون الألبان سوى ٩.٤% من الوظائف الحكومية، فهم يعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية.

يُسيطرُ عليها الأرثوذكس النصارى، ويُدعَمُ من قِبَل الدولِ الغربية والاتحاد الأوروبي. وهي بالطبع لا تريد للإسلامِ وجودًا ولا للمسلمين نشاطًا[(١)].

معاشرَ المسلمين: ولهذا حَمَلَ النصارى في مقدونيا على المسلمين، وهل تعلمونَ أن ما يَقرُبُ من ثلاثمائةِ ألفِ مسلمٍ ألبانيٍّ يعيشون في مقدونيا ولا يحملون الجنسيةَ المقدونيةَ، ولا يحقُّ لهم دخولُ الانتخاباتِ، وهذا جزءٌ من مخطَّطِ النصارى في إضعافِ المسلمين في مقدونيا.

- وفي عام ١٩٨٧م سُمع دويٌّ انفجارٍ هائلٍ في العاصمةِ (سكوبيا) وعند استبانةِ الحَدَث وُجِدَ أنه صوتُ تفجيرٍ لمئذنةِ مسجدٍ مضى عليه عشراتُ السنين دون مئذنةٍ، وحينما بدأ المسلمون في بنائِها وعلمَ النصارى الحُكّام بذلك فجَّروها بكميةٍ من المتفجِّرات - أراد النصارى تفجيرَ مشاعرِ المسلمين قبل تفجيرِ مئذنةِ مسجدٍ مضى على الصلاة فيه عشراتُ السنين!

وعلى صعيدٍ آخر وفي مسلسلِ مضايقة المسلمين نَصَبَ النصارى صليبًا بلغ ارتفاعُه مائتي مترٍ، وعلى قمةِ جبل (فودنو)، ووُضِعَت على الصليبِ الأنوارُ ليُرى من بعيدٍ، عُمِلَ ذلك بمناسبةِ الألفية الثالثة.

- وفي طريق التحدِّي لمشاعر المسلمين قام النصارى بتغييرِ تسمية مستشفى مدينة (أوهريد) التي يَقطُنُها المسلمون، وسُمِّي المستشفى باسم (القديس أرزمو).

وأصدرت وزارةُ الداخلية كذلك تعليماتٍ تمنعُ رفعَ الأذانِ عبرَ مكبِّرات الصوت بدعوى أن ذلك يُسبِّب إزعاجًا للمواطنين، وأن صوتَ المؤذِّن غيرُ

(١) انظر: تقرير الندوة العالمية للشباب المسلم عن مقدونيا.

لائقٍ، قاتلهم اللهُ أنىَّ يُؤفَكون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١).

عبادَ الله: واليومَ ماذا يجري في مقدونيا (ضدِّ المسلمين)؟

لقد جرَتِ اتصالاتٌ بين السلطاتِ المقدونية والسلطات الصِّربية لرسم الحدودِ بين البلدين - دون اعتبارٍ للمسلمين - ثم أُثِيرَ المسلمون أكثرَ حين جرى اتصالٌ آخرُ لترسيمِ الحدودِ مع كوسوفا، وهنا عارضَ المسلمون الألبانُ لأن هذه المنطقة يسكنُها الألبان، وهناك علاقاتٌ وقَراباتٌ أُسَرية، ومصالحُ مشتركة بين ألبانِ مقدونيا وألبان كوسوفا.. وكأن النصارى أرادوا قَطْعَها فثارت ثائرةُ المسلمين الألبان، ودعتِ الأحزابُ الألبانية في مجلسِ الشعبِ المقدونيِّ أن يتمَّ ذلك مع صربيا وليس مع كوسوفا، كما وجدوها فرصةً للمطالبةِ بحقوقِهم المهضومةِ مثلَ السماح لهم بالدراسةِ باللغة الألبانية، وتغييرِ الدستورِ المقدونيِّ بجعل الألبان شعبًا دستوريًا (له مشاركة في الدستور)، السماح بزيادةِ عدد الألبان في الدوائرِ الحكومية، ومَنْحِ الجنسية لمن لم يُمْنَحْ منهم، والقيامِ بتعدادِ السكانِ لمعرفةِ نسبةِ الألبان الحقيقيةِ والتعاملِ معهم وَفْقَ هذه النسبةِ، إلى غيرِ ذلك من مطالبَ لم تأبَهْ حكومةُ مقدونيا بها، بل أخذت تسيطرُ على بعضِ القرى المسلمة على الحدودِ بين مقدونيا وكوسوفا.

وحين أحسَّ المسلمون بالضَّيْم والخطرِ يداهمُهم شكَّلوا (جيش التحرير الوطني الألباني) وهو تحت قيادةِ رجل تخرَّج من المدرسةِ الإسلامية بمقدونيا.

وقبلَ عيدِ الأضحى عام ١٤٢١هـ بدأت المصادماتُ وأُعلِنت حالةُ الطوارئ في البلادِ، وتقدَّم جيشُ التحرير في (تتوفا) على الجبال المجاورةِ للمدينة حتى

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

وصلَ إلى مشارفِ طرق المدينة.

وفي ٢٥/ ١٢/ ١٤٢١هـ أرسلت السلطاتُ المقدونيةُ قواتٍ من الدباباتِ والأسلحةِ المتنوعة وشارك كثيرٌ من أفرادِ الجيش المقدوني والصِّربي، وحصلتْ مصادماتٌ ومعاركُ عنيفة، وفي ٧/ ١/ ١٤٢٢هـ شنَّت الحكومةُ المقدونيةُ هجومًا جويًا على مواقعِ المسلمين كان مدعومًا بقواتٍ أجنبية من (أوكرانيا) وغيرِها، وقد قام بالتخطيط له خبراءُ (بريطانيون) وأصبحَ المسلمون في هَلَع، ونَتَج عن ذلك هجرةٌ من مقدونيا إلى الدولِ المجاورة، حتى بلغ عددُ اللاجئين ثلاثينَ ألفَ لاجئ.

ومع هذا التحالفِ النصرانيِّ للدول المجاورة لمقدونيا وتلك القسوةِ والعنفِ مع المسلمين فقد انهالت على حكومةِ مقدونيا تأييداتُ الحكوماتِ الغربية، فأمريكا تؤيِّد الحكومةَ المقدونية، ووزيرُ خارجية روسيا يصفُ الألبان المسلمين في مقدونيا بأنهم يُثيرون نزاعًا جديدًا، أما (روبرتسون) أمينُ عامِّ حلفِ الأطلسي فقد قال: إن الحلفَ لن يسمحَ لمن أسماهم بـ(المتشدِّدين) بالإخلالِ باستقرارِ مقدونيا؟! حتى رئيسُ اليونان - الذي بينه وبين المقدون عداوةٌ - أكَّد دعمَه لحكومةِ مقدونيا. . أما صربيا، وروسيا وبلغاريا فلم تكتفِ بالتأييد بل أهدت للمقدون دباباتٍ وأرسلتْ مساعداتٍ عسكريةً، لماذا كلُّ هذا؟ لمواجهةِ المسلمين وتصفيةِ الإسلام هناك ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

أيها المسلمون: وفي هذه الأيام تشتدُّ الهجمةُ النصرانية في مقدونيا على إخوانِنا المسلمين، ويُستخدَمُ الجيشُ بآلياته وعَتادِه ورجالِه وغالبيتُهم من

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

النصارى لضربِ المسلمين ومحاصرتِهم وتهجيرِهم، وكأنهم أرادوا تعجيلَ حَسْمِ المعركةِ قبل أن يشتدَّ عودُ الألبانِ المسلمين.. ومما يُدمي القلبَ أن هذه المعركةَ مع عدمِ تكافئها تُدعَمُ من قِبَل الدولِ النصرانية الكبرى المجاورة والبعيدة، بل ومن قِبَل الاتحاد الأوروبي.. ولا غرابةَ في ذلك، فالكلُّ عدوُّهم الإسلامُ، والكلُّ لا يطيقونَ وجودًا فاعلًا للمسلمين.

ويبقى المسلمون المُستضعَفون في مقدونيا يقاومونَ في سبيلِ البقاء مع حفظِ هويتهم المسلمة - يُقاومون وحدَهم في غَفْلةٍ من المسلمين عنهم أو تراخٍ عن مدِّ يدِ العونِ لهم- إلا قليلًا من هيئاتٍ ومنظَّماتٍ إسلامية وعلى رأسها الوقفُ الإسلامي والندوةُ العالميةُ للشباب الإسلامي ورابطةُ العالم الإسلامي.

عبادَ الله: وحين نَعرِضُ لوَضْع المسلمين في مقدونيا باختصارٍ يَرِدُ السؤالُ: وما هو الدَّورُ المطلوبُ من المسلمين تجاهَ إخوانِهم في مقدونيا؟ إن الشعورَ الحيَّ بقضيةِ المسلمين هناك والتفاعلَ معها جزءٌ من الواجب، فالمسلمون كالجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهر والحُمَّى، ونقل قضيتِهم العادلةِ للعالم عبرَ وسائلِ الإعلام كلِّها وما يريدُه النصارى لهم.. وكذلك مدُّ يدِ العونِ لهم والمساهمةُ في دعمِ المشاريعِ الإسلاميةِ القائمةِ هناك من إنشاءِ المساجد ودعمِ الدُّعاة ونحوِها، كذلك يُسهِمُ في تثبيتِ المسلمين ويمنعُ تذويبَهم، والدعاءُ لهم بالثبات على الحق والنصرِ والتمكينِ في الأرض، فذلك جزءٌ من حقوقِهم ولا يُعذَرُ منه أحدٌ من المسلمين.

ومما يجدرُ بالمسلمين كذلك أن يَعُوا مخطَّطاتِ الأعداء عمومًا، وما يرادُ للمسلمين في بلادِ البلقان خصوصًا ومنها مقدونيا.. وألا ننخدعَ بالبياناتِ المزيَّفة والتهمِ الفارغةِ فذلك جزءٌ من الحربِ الإعلامية.



# الغلام الأمريكي المسلم والميلاد الجديد[١]

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومنْ يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

عبادَ الله: فضلُ الله يؤتيهِ مَنْ يشاءُ، ومِنْ أعظمِ الفضائل وأكبرِ النِّعَمِ الهدايةُ للدِّينِ الحقِّ دينِ الإسلامِ، إنها الفطرةُ يولَدُ عليها كلُّ مولودٍ.. ولكنَّ عواملَ التأثير بفعلِ الوالدَيْن أو غيرِهم تَحرِفُ عنِ الفطرةِ.. وقدْ يعودُ المنحرفُ، بلُ وقد يُسلمُ الكافرُ استجابةً لنداءِ الفطرةِ التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها.

وسأحكي لكمْ هنا قصةً حديثةً معاصرةً وواقعيةً، قرأتُها في إحدى الصحفِ[٢] وحدثني بها شهودٌ عيانٌ.

القصةُ وقعتْ في إحدى ولاياتِ أمريكا.. ولشابٍّ يبلغُ منَ العمرِ قُرابةَ عشرِ سنواتٍ، وُلدَ الغلامُ (ألكساندرُ) لأبوينِ نصرانيَّينِ عامَ تسعينَ وتسعَ مئةٍ وألفٍ للميلادِ، وقرَّرتْ أمُّه منذُ البدايةِ أنْ تتركَه ليختارَ الدِّينَ الذي يرغبُ بعيدًا عنْ أيِّ مؤثِّراتٍ عائليةٍ أو اجتماعيةٍ، وما أنْ تعلَّمَ الغلامُ القراءةَ والكتابةَ حتى أحضرتْ له أمُّه كُتبًا عنْ كلِّ الأديانِ السماويةِ وغيرِ السماويةِ، وبعدَ قراءةٍ متفحِّصةٍ قرَّرَ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ٣/ ١٤٢٢هـ.

(٢) جريدة الوطن، السبت ١٦/ ١١/ ١٤٢١هـ.

(ألكساندرُ) أنْ يكونَ مسلمًا! بل شُغفَ حُبًا بهذا الدِّينِ حتى أنه تعلَّمَ الصلاةَ وحفِظَ بعضَ سُوَرِ القرآنِ، وتعلَّمَ الأذانَ، وقرأَ شيئًا عنِ التاريخِ الإسلاميِّ، وتعلَّمَ بعضَ الكلماتِ العربيةِ.

كلُّ هذا -كما يقولُ الخبرُ- دونَ أن يلتقيَ بمسلمٍ واحدٍ، ثمَّ قرَّر أنْ يكونَ اسمُه الجديدُ (محمدَ بنَ عبدِ الله) تيمُّنًا بالرسولِ ﷺ الذي أحبَّه منذُ نعومةِ أظفارِه.

إنها الفطرةُ هُديَ لها هذا الغلامُ الأمريكيُّ.. وفَضلُ اللهِ أدركَهُ فتخلَّصَ منْ ظلماتِ الكفرِ، وانحرافاتِ النصرانيةِ أو اليهوديةِ وسواهما.. ونسألُ اللهَ لهُ ولغيرهِ منَ المسلمينَ الثباتَ على الحقِّ.

إخوةَ الإسلامِ! ولا يزالُ العجبُ يُحيطُ بقصةِ هذا الغلامِ، ولا يدري المطّلعُ على قصتِهِ أيعجبُ منْ عصاميَّةِ هذا الشابِّ وقوةِ إرادتهِ وقدرتهِ على اتخاذِ هذا القرارِ بالإسلامِ في وسطْ اجتماعيٍّ لا يعترفُ بالإسلامِ وإنْ أعطتْهُ أمُّه حريّةَ الاختيارِ، أمْ يعجبُ المطّلِعُ كذلكَ منْ فهمِ هذا الغلامِ لهذا الدِّينِ الجديدِ وحبِّه لهُ واعتناقِهِ لهُ رغمَ الصعوباتِ التي تواجههُ.. وفي إجاباتِ هذا الغلامِ ما يكشفُ الحقيقةَ أكثرَ.. فعندَ سؤالِه منْ أحدِ المسلمينَ المقابلينَ لهُ: ما هيَ الصعوباتُ التي تعاني منها لكونِكَ مُسلمًا في جوٍّ غيرِ إسلاميٍّ؟ أجابَ الغلامُ بكلِّ أسفٍ وحسرةٍ: تفوتُني بعضُ الصلواتِ في بعضِ الأحيانِ بسببِ عدمِ معرفتي بالأوقات!

يا سبحانَ الله! غلامٌ حديثُ العهدِ بالإسلامِ، وفي بيئةٍ غيرِ مسلمةٍ يتحسَّرُ على فواتِ وقتِ الصلاةِ -أحيانًا- وعذرُهُ عدمُ معرفةِ الوقتِ، وليسَ تهاونًا أو كسلًا! فبماذا يا تُرى يُجيبُ من يتأخَّرونَ عنِ الصلاةِ، وربما فاتتْهمْ في عددٍ منَ الأوقاتِ.. وهمْ يسمعونَ الأذانَ ويرَوْنَ المسلمينَ وهمْ يصلُّونَ، بلْ وهمْ كبارٌ

وفي بيئةٍ إسلاميةٍ تأمُرنا بالصلاةِ وتدعو إليها؟! إنَّه الكسلُ وضعفُ الهممِ وغلبةُ الهوى ونزغُ الشيطانِ.. إلا مَنْ كانَ معذورًا بسفرٍ أو مرضٍ.

وهمَّةٌ أخرى.. بل صبرٌ على تكاليفِ الإسلامِ، وتحدٍّ لغيرِ المسلمينَ يبرزُ في قصةِ هذا الغلامِ وهو يُسأَلُ: هلْ صمتَ رمضانَ؟ فيبتسمُ ويقولُ: نعمْ لقد صمتُ رمضانَ الماضيَ كاملًا والحمدُ للهِ، وهيَ المرةُ الأُولى التي أصومُ فيها.. ثمَّ يواصلُ حديثَهُ قائلًا: لقدْ كانَ الصيامُ صعبًا عليَّ خاصةً في الأيامِ الأُولى، ولقدْ تحدَّاني والدي أنني لنْ أستطيعَ الصيامَ، ولكني صُمتُ، ولم يُصدقْ ذلكَ.

وحين سُئلَ الغلامُ المسلمُ عن أُمنيتهِ في الحياةِ أجابَ: عندي العديدُ منَ الأمنياتِ ومنها حفظُ القرآنِ! وتعلُّم لغةِ القرآنِ، وقالَ: أتمنَّى أنْ أذهبَ إلى مكةَ وأقبِّلَ الحَجَرَ الأسودَ! هنا تدخلتْ أمُّه قائلةً: إنْ غُرفةَ ابنِها مملوءةٌ بصُوَر الكعبةِ، وأضافتْ: إنَّ إيمانَ ابنِها بأمورِ الإسلامِ عميقٌ إلى درجةٍ قدْ لا يُحسُّ بها أو يتصوَّرُها الآخرونَ!

ثمَّ استطردَ الغلامُ قائلًا: إنني أحاولُ جمعَ ما تبقَّى منْ مصروفيَ الأسبوعيِّ لكيْ أتمكَّنَ منَ الذهابِ إلى مكةَ المكرَّمةِ يومًا ما.. لقد سمعتُ أنَّ الرحلةَ إلى هناك تكلِّفُ أربعةَ آلافِ دولارٍ تقريبًا، ولديَّ الآنَ منها ثلاثُ مئةِ دولارٍ.. ثمَّ علَّقتْ أمُّهُ والعاطفةُ تغالبُها لتحقيقِ أمنيةِ ابنها، تقولُ: ليسَ عندي أيُّ مانعٍ منْ ذهابهِ إلى مكّة، ولكنْ ليسَ لدينا المالُ الكافي لإرسالهِ في الوقتِ الحالي.

ومرةً أخرى: فرْقٌ بينَ هذا الغلامِ حديثِ الإسلامِ في تطلُّعِه وشوقِه إلى زيارةِ البيتِ الحرامِ وأداءِ مناسكِ الحجِّ والعمرةِ.. وبينَ نفرٍ من المسلمينَ قدْ يكبرونهُ سنًّا، وقدْ يتوفَّرُ لهمْ ما يَحجُّونَ بهِ ويَعتمرونَ، ولكنهمْ مَعَ الأسفِ عنْ كلِّ ذلكَ غافلونَ!

أخي المسلم! أيُّها المتهاونُ في الصلاةِ! وهلْ تدري عنْ قصةِ هذا الغلامِ مَعَ الصلاةِ في وقتِ الدراسةِ وفي مجتمعٍ لا يُقيمُ للصلاةِ وزنًا، بلْ يستنكرُها ويستنكرُ مَنْ يؤدِّيها؟! لقد سُئلَ هذا الشابُّ المسلمُ: هلْ تُصلي في المدرسةِ؟ فأجابَ: نعم، وقد اكتشفتُ مكانًا سريًّا في المكتبةِ أصلِّي فيهِ كلَّ يومٍ!

وتابعَ المتحدِّثُ مَعَ هذا الشابِّ يقولُ: وحانَ وقتُ صلاةِ المغربِ وأنا أتحدَّثُ معهُ، فنظرَ إليَّ قائلًا: هلْ تسمحُ لي بالأذانِ؟ ثمَّ قامَ وأذَّنَ، في الوقتِ الذي اغرورقت فيهِ عينايَ بالدموعِ!

إنها العزّةُ بالإسلامِ، والفرحُ بذكْرِ اللهِ يُرفَعُ، والاستعدادُ للصلاةِ والتفرغُ لها مهما كانَ نوعُ الارتباطِ دونَ مجاملةٍ أو استحياءٍ في دينِ اللهِ!

إخوةَ الإسلامِ: وأختمُ الحديثَ عنْ واحدةٍ من أُمنياتِ هذا الغلامِ الأمريكيِّ المسلمِ، تنمُّ عنْ وَعْيِه بحقوقِ المسلمينَ ومقدَّساتِهِمْ، ووعيِه كذلكَ باعتداءِ اليهودِ واغتصابِهِمْ، فقدْ ذَكَرَ منْ أمانيهِ أن تعودَ فلسطينُ للمسلمينَ، فهيَ أرضُهمْ وقد اغتصبَها اليهودُ منهمْ.. ولمْ يَثنِه عنْ هذا الرأيِ خلافُ والدتِهِ لهُ.. بلْ قالَ: أمِّي لمْ تقرإِ التاريخَ، ولوْ قرأتْه كما قرأتُ لعرفتْ كما عرفتُ!

إنها عقليةٌ مسلمةٌ شابةٌ يُرجى لها مستقبلٌ زاهرٌ عسى اللهُ أنْ ينفعَ بهِ الإسلامَ والمسلمينَ، وأنْ يهديَ مَنْ ضلَّ إلى الصراطِ المستقيمِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].



(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ يُعطي الدنيا مَنْ أحبَّ ومَنْ لمْ يحبَّ، ولا يُعطي الدِّين إلا مَنْ أحبَّ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ له، يَهديْ منْ يشاءُ، ومَنْ يُضلِلِ اللهُ فما لهُ من هادٍ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه كانَ أحرصَ الناسِ على هدايةِ الأمّةِ للخيرِ في حياتهِ، وما تزالُ سنّتُه تدعو وترغِّبُ وتُبيِّنُ وتَهديْ، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾(١).

يا عبدَ اللهِ: يقولُ العارفونَ: إنَّ الإنسانَ يولدُ مرتينِ: مرةً عندما يخرجُ منْ ظلماتِ رَحِمِ أمِّهِ إلى نورِ الدنيا، ومرةً عندما يَخرجُ منْ ظلماتِ المعصيةِ إلى نورِ الطاعةِ.

وإذا كانَ الميلادُ الأولُ يشتركُ فيهِ الخَلْقُ كلُّهمْ مسلمُهمْ وكافرُهمْ، بَرُّهمْ وفاجرُهمْ، فإنَّ الميلادَ الآخَرَ خاصٌّ بمَنْ وفَّقهُ اللهُ للهدايةِ ودلَّه على طريقِ الاستقامةِ وأرادَ لهُ سعادةَ الدنيا والآخرةِ.

إنَّ هذا النوعَ منَ الميلادِ - أعني التحوُّلَ منَ المعصيةِ إلى الطاعةِ، ومنَ الضلالةِ إلى الهدى- لا يتقيَّدُ بزمانٍ محدَّدٍ، فقدْ تُولَدُ ميلادَكَ الجديدَ وأنتَ في العشرينَ أو الأربعينَ من عمرِك أو قبلَ ذلكَ أو بعدَ ذلكَ، وقدْ تُولَدُ ميلادَكَ الجديدَ في نفسِ الساعةِ التي تولَدُ فيها ولادتَكَ الحقيقيةَ.

وهذا النوعُ منَ الميلادِ -وهُوَ التحوُّلُ منْ السيِّئِ إلى الحسنِ- لا يتقيَّدُ بمكانٍ، فلربَّما وُلدتَ وأنتَ في المسجدِ، أو الشارعِ، أو البيتِ، أو السجنِ، أو على فراشِ المرضِ، في البرِّ أو البحرِ أو الجوِّ، قدْ تُولَد وتهتدي وأنتَ في

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

شاهقاتِ الجبالِ أوْ في بطونِ الأوديةِ والشِّعابِ، وكما يُولَدُ أناسٌ بجوارِ البيتِ الحَرامِ فقدْ يولَدُ آخرونَ في أرضِ المادِّيَةِ الغربيةِ.. أوْ في قعرِ اليهوديةِ والنصرانيةِ، أو في الأراضي الشرقية، حيثُ الإلحادُ والشيوعيةُ.

إنه ميلادٌ ليسَ لهُ سببٌ واحدٌ محدَّدٌ، فلعلَّ السببَ في مولدِ الهدايةِ والاستقامةِ موعظةٌ صادقةٌ، أو موقفٌ مؤثِّرٌ، أو قراءةٌ في كتابٍ نافعٍ، أوْ سماعٌ لشريطٍ مؤثِّرٍ، أو لعلَّ السببَ يكونُ خليلًا ناصحًا، أو دعوةً في ظَهْرِ الغيبِ، أو رؤيا في المنامِ.. أو غيرَ ذلكَ منْ عواملِ الهدايةِ بإذنِ اللهِ تعالى.

يا أخا الإسلام: ما أغلى هذا الميلادَ وما أسعدَ الفردَ بهِ، وكمْ منْ أناسٍ عاشُوا فترةً منْ حياتِهمْ في البؤسِ والشقاءِ، ولربَّما ظنُّوا أنَّ الناسَ كلَّهمْ كذلكَ.. بلْ وأنَّ الحياةَ كلَّها تسيرُ على هذهِ الوتيرةِ، فلمّا هداهمُ اللهُ واستنشقُوا عبيرَ الإيمانِ أدركوا نعمةَ اللهِ عليهمْ في الحاضرِ.. وأدركوا ما كانوا فيهِ منْ جحيمٍ في الماضي.

يا أخا الإسلامِ: ومهما مرَّتْ بِكَ هذهِ الشقوةُ منْ عمرِكَ فأنتَ سعيدٌ أنْ ولدتَ مولدَ السعادةِ قبْلَ موتِكَ، وكلَّما تقدَّمتْ هذهِ الولادةُ في عمرِكَ كلَّما ازددتَ هديً وراحةً وسعادةً.

يا أخا الإيمانِ: دعني أقصَّ عليكَ واحدةً منْ قصصِ التائبينَ، منْ أهلِ الميلادِ(١) الجديدِ، كانتْ هديتُه للنجاحِ رحلةً وسفرًا للخارجِ، يُحدِّثُنا عنْ مشاعرِه وأحاسيسهِ في هذهِ الرحلةِ ويقولُ: أخيرًا تركتُ أرضي إلى البلادِ المفتوحةِ، وصلْنا، كلُّ شيءٍ مُعَدٌ: الاستقبالُ، والفندقُ، وجدولُ الزياراتِ.. الأرضُ خضراءُ، والجوُّ جميلٌ، والمشاهدُ ساحرةٌ.. ولكنَّ العالَمَ منْ حولي

(١) انظر: «الميلاد الجديد» إبراهيم الغامدي ٢٤-٢٨، مع شيء من التصرف.

غريبٌ! تختلطُ فيهِ أصواتُ السكارى مَعَ آهاتِ الحيارى، لا تسألني: ماذا فعلتُ هناكَ؟ لقدْ فعلتُ كلَّ شيءٍ إلا الصلاةَ والقرآنَ، فلمْ يكنْ في البرنامجِ المعدِّ وقتٌ لهما!

لقد مرَّ الوقتُ سريعًا ولمْ يبقَ على انتهاءِ الرحلةِ إلا يومٌ واحدٌ، وكانَ منْ فقراتِ حفلِ التوديعِ اختيارُ الشابِّ المثاليِّ في الرحلةِ، ووقعَ الاختيارُ عليَّ، وكانَ الوسامُ صليبًا ذهبيًّا، ولا غرابةَ! فعددٌ منَ المشتركينَ معنا في هذهِ الرحلةِ نصارى. فكّرت وقدّرتُ لماذا اختاروني وَحْدي وهناكَ الكثيرُ ممّنْ هو على دينِهمْ.. ألأنِّي مسلمٌ اختاروني؟

توالتِ الأسئلةُ في ذهني وترددتْ حيرتي، وزادَ عَجَبي، وهنا في هذا الموقفِ تذكرتُ أبي وصَلاتَه، وأمّي وتسبيحَها، وخطيبَ الجمعةِ وتحذيرَه منَ السفرِ للخارجِ.. بلْ قفزَ إلى ذِهْني رسولُ اللهِ ﷺ وكأنَّهُ يزجرُني ينهى عنْ مّا وصلتُ إليهِ.

ولكنْ قطعَ هذا التفكيرَ كلَّه صوتُ المقدِّم للبرنامجِ يطلبُ مني التقدمَ إلى المنصّةِ لاستلامِ الصليبِ وهُوَ يُمسِكُ بهِ. وفي هذهِ اللحظاتِ تخيَّلتُ الصليبَ يلمَعُ كالحقدِ، ويسطعُ كالمَكْرِ.. اقتربَ القائدُ وأمسكَ بعنقي ليُقلِّدَني الوسامَ وليلبسَني الصليبَ..!

هنا وفي هذا الموقفِ الرهيبِ ولدتُ، وكأنني أسمعُ صارخًا يقولُ: قفْ إنكَ مسلمٌ! وتذكرْ أنكَ مغزوٌّ، وعُدْ إلى ربِّكَ مادامَ في الحياةِ مهلةٌ، فقدْ لا تعودُ منْ سفرِكَ، وماذا سيكونُ مصيرُكَ لوْ نزلَ بكَ رَيْبُ المَنُونِ وتلكَ حالُكَ، وتعالى شعورُ الإيمانِ وجذوةُ اليقينِ، وتخيّلتُ مشاهدَ الآخرةِ والبعثِ والحسابِ وكأنَها طيفٌ يمرُّ بي.. وهنا تشجَّعتُ وأمسكتُ بالصليبِ الذهبيِّ وقذفتُهُ في وجهِ القائدِ، بلْ ودستُه تحتَ قدميَّ، وأخذتُ أَجْري وأَجري وهمْ يظنُّونَ بي شيئًا منَ

الجنونِ، وما بي جنونٌ، حتى صعدتُ إلى ربوةٍ مرتفعةٍ، وحينَ وصلتُ إلى قمّتِها صرختُ في آذانِهِمْ، بلُ وفي أُذنِ الكونِ كلِّهِ، وأشهدُت الأرضَ والسماءَ على مولدي الجديدِ وأنا أقولُ: اللهُ أكبرُ. . اللهُ أكبرُ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنّ محمدًا رسولُ اللهِ، حينَها علمَ القومُ السرَّ، وخيَّمَ على وجوهِهمُ السكونُ. . فمنهمْ مستغربٌ، ومنهمُ المستهزئُ، ولكنني على ثقةٍ أن هذهِ الصرخةِ ستحفرُ في قلوبِهمْ ولوْ بعدَ حينٍ، وهيَ بكلِّ حالٍ ستكونُ -بإذنِ اللهِ- مولدًا لآخرينَ يَسمعونَ قصَّتي ويأخذونَ العبرةَ منْ موقفي.



# كنت في البلقان
# (١) المسلمون في ألبانيا(١)

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئات أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهم عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابِعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: كنتُ مع مجموعةٍ من إخوانٍ لي فضلاءَ في أرضِ البَلْقان، وفي جزءٍ مهمٍّ منها، حيث للإسلامِ تاريخٌ، وللمسلمين وجودٌ قديمٌ - ومن خلالِ مشاهداتي سأُحدِّثكُم.. ولستُ أدري أأحدِّثُكم عن غيابِ الهُويَّةِ الإسلامية وجهودِ الأعداءِ ومَكْرِهم وخُطَطِهم لسَلْخِ المسلمين عن دينِهم عبرَ عقودٍ خلتْ.. كيف آلَ إليه أمرُ المسلمين في ظلِّ هذه الظروفِ الصعبة؟ أم أحدِّثُكم عن الانبعاثِ الإسلاميِّ الجديد، والعودةِ إلى أصولِ الإسلام وتعاليمِه، وماذا يحتاجُه المسلمون العائدون من إخوانِهم المسلمين في كلِّ مكان.. ولا سيَّما في بلادِ الحرمينِ الشريفينِ حَرَسها الله.

ولن أحدِّثَكم عن جمالِ الطبيعةِ هناك في ألبانيا، ولا عن الوِدْيانِ المتدفِّقة، والأنهارِ الجارية، ولا عن العيونِ الزرقاءِ ومياهِها العجيبة وظِلالِها الوارفة،

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ٥/ ١٤٢٢هـ.

فذاك دأْبُ أصحابِ كتب الرِّحلات، لكني سأحدِّثُكم عن شيءٍ من واقعِ المسلمين هناك، والصعوباتِ التي تواجهُهم، والحلولِ وأنواعِ الدعمِ التي يمكن أن تُقدَّمَ لهم.

إخوةَ الإيمان: في أَلبانيا للإسلام جذورٌ وللمسلمين تاريخٌ، ولكنّ البلادَ حين حُكِمت بالشيوعية مؤخَّرًا مع العقودِ الأخيرة الخمسةِ من القرنِ الميلاديِّ المنصرمِ، عادت إليها غُرْبةُ الإسلام، وكانت خمسون عامًا حتى سنة ١٩٩٠م كفيلةً بمَسْخِ صورةِ الإسلامِ ومحاصرةِ المسلمين والتضييقِ عليهم، حتى هُدمَت المساجدُ العامرةُ بالمصلِّين، وما بقي منها -وهو نَزْرٌ يسيرٌ- كان يُستخدَم لِلَّهو واللعبِ ولدورِ السينما، بل ربما هُدِمَ المسجدُ وأُقيمَ مكانه دوراتٌ للمياهِ لمزيدِ النكاية بالمسلمين وأماكنِ عبادتِهم؟

والقويُّ من المسلمين -وهم قِلَّة كذلك- مَن باتَ يُصلِّي سرًّا، ويصومُ رمضانَ خُفْية- حتى إن المصابيح لتُطفَأُ، والنوافذَ تُغلَق ويوضعُ عليها ما يسترُ الأنظارَ حين يقومُ المسلمون في الأسحارِ لتناولِ طعام السحور.

ووصَلَ سوءُ الحالِ والتضييقُ على المسلمينَ إلى السجن.. ليس لمن يقول: ربِّيَ الله، فقط، بل ولمن يقول: هناك ربٌّ؟! إذ يُروِّج الشيوعيون لفكرةِ الإلحاد القائلة: لا إلهَ والكونُ مادَّة.. تعالى اللهُ عما يقولُ الظالمون علوًّا كبيرًا.

وفي ظلِّ هذه الأجواءِ الصعبةِ والقبضةِ الحديديّة الشيوعيةِ نشأ جيلٌ من أبناءِ المسلمين لا يعرفُ من الإسلام إلا اسمَه، ولا من القرآنِ إلا رسمَه، وما يسمعُه من أبويهِ -إن قُدِّر له أن يسمعَ شيئًا من ذلك- إذْ بلغ الحالُ ببعضِ الآباء أن يمنعَ أولادَه من تعلُّمِ شيءٍ من القرآن حتى لا يتعرَّضَ الابنُ أو تتعرضَ الأسرةُ كلُّها لعقوبةِ الشيوعيين، والجريمةُ تعلُّمُ القرآن؟!

عبادَ الله: هذه الصورةُ المظلِمة، وهذا الكبتُ الرهيبُ، والتضييقُ على الناس في كل شيء، حتى غدا الناسُ كلُّهم وكأنهم في سجنٍ داخلَ ألبانيا -كما يقول الألبان- هذه الحالةُ ما كان لها أن تستمرَّ، فقد ضَجِرَ الناسُ وضاقوا ذَرْعًا بالشيوعيةِ والشيوعيين، وكان في سقوطِ الشيوعية في الاتحاد السوفيتي- ثم ما تلاها من دولٍ أُخرى كانت تابعةً لها- متنفسٌ لهؤلاء الألبان، إذْ قاموا عامَ تسعين وتسعمائة وألف بثورةْ شعبيةٍ عارمةٍ ضدَّ الشيوعية والشيوعيين وسرَتْ هذه الحركةُ الشعبية في طولِ البلادِ وعرضِها حتى سقطت الشيوعيةُ في ألبانيا وعاد الحكمُ ديمقراطيًا -كما يقولون- من عام ثنتين وتسعين وتسعمائة وألف، وهنا تنفَّس الألبانُ الصُّعَداءَ، وعادُوا للحياةِ من جديد.. وكأنهم من قبلُ كانوا في عِدادِ الموتى، وعاد المسلمون يمارِسون عبادتَهم التي طالما مُنِعوا من أدائِها.. إلَّا من ضَعُفَ أو انسلخَ من تكاليفِ الإسلام فأولئك ظلُّوا في غيِّهم يعمهون، وفي حَيْرتِهم يتردَّدون، ولذا فلا غرابةَ أن تسمعَ الرجلَ أو المرأةَ يعتَّزانِ بالانتماء إلى الإسلامِ، فإذا سألتَ عن الصلاةِ أو الصيامِ أو نحوِها من واجباتِ الإسلام لم تجدْ لها وجودًا عند هؤلاء؟

أيها المسلمون: وبرغم هذه الغُرْبة عن الإسلام، ووجودِ مسلمينَ بلا إسلامٍ حقيقي هناك فَثمَّةَ صورةٌ مُشرِقة تقابلُ هذه الصورةَ، إذ يوجدُ نفرٌ من المسلمين والمسلماتِ يلتزمونَ بالإسلامِ عقيدةً وسلوكًا، انتماءً وواقعًا، أولئك يَعمُرونَ المساجدَ بالطاعة، ويذكُرون الله ويشكرونَه على تغيُّرِ الحال، أولئك حريصون على الخيرِ، وقائمون بما يستطيعون من تكاليفِ الإسلامِ وواجباتِه -بل وسُنَنِه- ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، والجميلُ في هذه الصحوةِ أن عمادَها الشبابُ، وهؤلاء الشبابُ حريصون على الخيرِ وعلى دعوةِ قومِهم وأهلِيهم، ولديهم من الهِمَّة والحيويَّة والجِدّيَّة ما يجعلُهم بإذنِ الله أملًا يُرجَى نفعُه في ألبانيا -بل

وفيما جاوَرَهم من أرضِ البَلْقان.

إخوةَ الإسلام: إن الزائرَ لألبانيا قبل عقدٍ من الزمن أو يزيد قليلًا.. والزائرَ اليوم يجدُ فرقًا كبيرًا في أوضاعِ المسلمين عمومًا، وفي أوضاعِ الشباب خُصوصًا، فمِن قَبلُ كان الشرودُ والضياعُ والقهرُ والاستبدادُ وفُقدانُ الهُويةِ، والعيشُ بلا هدفٍ، والسجنُ والأذى لمن يَحمِل همَّ الإسلام أو يُحدِّد أهدافًا غيرَ أهدافِ الشيوعية في الحياة.

أما اليوم فالانتماءُ للإسلام مفخرةٌ، والمسلمون يعيشون لأهدافٍ نبيلة، والدعوةُ إلى الله يَرُوجُ سوقُها، ويشتدُّ ساقُها، والمساجد تُعمَر حِسًّا ومعنىً.. والمؤسساتُ الإسلامية والهيئاتُ الدعويّة تجدُ لها مجالًا في الدعوة، والدعاةُ إلى الله يَجِدُون من يُرحِّب بهم ويسمعُ إليهم.

أيها المسلمون: وبشكلٍ عامٍّ ومعَ هذه المبشِّرات والإرهاصات، فالمسلمون في ألبانيا يواجهون صعوباتٍ تُحِيطُ بهم ومعوِّقات، ومن المناسبِ أن يعلمَها إخوانُهم المسلمون ليساهموا في حلِّها وتذليلِها، ومن هذه الصعوباتِ ما يلي:

١- غربةُ الإسلامِ الماضية لا تزال آثارُها باقيةً، ومهما قيل عن نفرٍ من المسلمين وفَّقهم اللهُ وتجاوزوها، فَثمّةَ أكثريةٌ من المسلمين لا يزال الإسلامُ فيهم غريبًا، وتشكِّل الغُربة والجهلُ بالدِّين أكبرَ المعوِّقاتِ للدعوة ونشرِ الخير في ألبانيا.

٢- والوجودُ النصرانيُّ قويٌّ في ألبانيا، لا بكثرةِ النصارى، فنسبةُ المسلمين هناك بين خمسةٍ وسبعين إلى ثمانين بالمائة من تعدادِ السكان، بينما يشكِّل النصارى ما بين عشرين إلى خمسةٍ وعشرين بالمائة. ولكن قوة النصارى بالدَّعمِ والمساندةِ سواءٌ من داخلِ ألبانيا أو من القُوى النصرانيةِ خارجَ ألبانيا.. وحتى

تتضحَ الصورةُ وإن كانت مأساويةً، يُقال: إنه يوجد الآنَ في ألبانيا أكثرُ من مائةٍ وثلاثين مؤسسةً تنصيريةً، على حين تُعدُّ المؤسساتُ الإسلاميةُ العاملةُ هناك على الأصابعِ، وليس يخفى أنَّ ألبانيا تُحاطُ بالدولِ النصرانية من جميعِ جهاتِها.

٣- الفسادُ الخُلُقيُّ هناك كثيرٌ، والمحرَّمات منتشرةٌ، والفتنةُ كبيرة، لا سيَّما مع تبرُّجِ النساءِ الفاضحِ، وانتشارِ الخمورِ والمخدّراتِ ونحوِها من موادِّ الفسادِ الفكرية عبرَ القنواتِ الغازيَةِ، والمسلمون في ألبانيا هدفٌ يُراهِنُ عليه الأعداءُ بكلِّ وسيلة. ولكن ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(١).



(١) سورة الأنفال، الآية: ٨.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله يُعِزُّ من يشاءُ بالطاعةِ والاستقامة، ويُذِلُّ من يشاءُ بالمعصية والرذيلة، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكرِم، ومن يهدِ اللهُ فهو المهتدي وهو الموفَّق، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه دعا إلى الحنيفيّةِ السَّمْحة فهدى اللهُ به قلوبًا غُلْفًا، وأسمعَ اللهُ به آذانًا صُمًّا.. اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

عبادَ الله: ومن الصعوباتِ والمعوِّقات التي تواجه المسلمين في ألبانيا:

٤- الفقرُ والبطالة، والفقرُ كادَ أن يكون كفرًا، وهو ظاهرٌ لمن تأمَّلَ في ألبانيا، وتزيدُ البطالةُ من شدةِ الحال، وهذه وتلك تزيدُ من مشكلاتِ المسلمين في ألبانيا، وتُسهِمُ بشكلٍ أو بآخرَ في الفسادِ والانحراف.

٥-والهجرةُ من ألبانيا- ولاسيما في أوساطِ الشباب - للدولِ الكافرة المجاورةِ للبحث عن العمل، هي الأخرى إشكاليةٌ وتحدٍّ ضدَّ الشعبِ الألباني، ولاشكَّ أن لهذه الهجرةِ مخاطرَها في تردِّي الأخلاقِ وانحرافِ الأفكار.

٦- ويواجه الشبابُ المتديِّنُ والشاباتُ الملتزمات، وهم وهنَّ قليلٌ بالنسبة لغيرهم، تحدٍّ من أهلِيهم والأبعدِينَ لالتزامِهم وقيامِهم بأمر الإسلام، ولربما قيل لهم جهلًا أو تجاهلًا -: وما هذا الدينُ الذي أَتيتُم به؟ وحتى لو لم يُقَلْ لهم شيءٌ، فلك أن تتصوَّرَ وضعَ شابٍّ أو شابةٍ يعيشُ بين أبوينِ لا يُصلِّيان ويشربانِ الخمرَ حتى يَثمَلا! ولا تسألْ عن التفريطِ في الواجباتِ الأخرى أو ارتكاب محرَّمات أخرى، ومع ذلك فالحقُّ يقال: إن هؤلاءِ الشبابَ صابرون ومحتسِبون على ما يلقَوْنَ، زادهم اللهُ ثباتًا وهدى، وفتحَ على قلوب أهلِيهم وهداهم للهُدى.. وبفضلِ الله ثم بجهودِ هؤلاءِ الشباب لم تعدِ اللحيةُ مستغربةً، ولم يَعُدِ

الحجابُ معدومًا وإن كانت هذه وتلك لا تمثِّلُ إلا أقليةً وسطَ جموعٍ شاردةٍ غافلة.

إخوةَ الإسلام: هذه من أبرزِ الصعوباتِ والمعوِّقات التي تواجهُ المسلمين في ألبانيا -وقد يكون هناك غيرُها- ولكن ما الحلُّ.. وكيف يُسهِمُ المسلمون في تذليلِها أو بعضِها؟ والإجابةُ عبر النِّقاط والمقترَحات التالية:

١- شعورُ المسلمين عمومًا -حكومات وأفرادًا، العلماءَ والدعاة، والأغنياءَ- بأوضاعِ المسلمين هناك، ومدُّ يدِ العونِ لهم، وكلٌّ على حسبِ قُدرتِه، ولا ينبغي أن يكون النصارى أسرعَ في النجدةِ والمساعدةِ من المسلمين، وهل تعلمُ أن كفالةَ اليتيم في ألبانيا لمدةِ شهرٍ بخمسْ وعشرين دولارًا، وهل تعلمُ أن الدعوةَ تُقدَّم لليتيم مع الإطعام وبالمبلغِ نفسِه فهنالك مؤسساتٌ إسلاميةٌ ودعاةٌ إلى الله يقومون بكفالةِ الأيتام ودعوتِهم وتعليمِهم الخيرَ؟

٢- الإكثار من عقدِ الدَّوراتِ الشرعيةِ والملتَقَيات النافعةِ بالمسلمين والألبانِ عمومًا، وبالشباب المتديِّنِ على وجهِ الخصوص، فتلك ترفعُ من معنويَّاتِهم، وتفقُّهُهم في دينِ الله وتزيدُ من جهدِهم وعطائِهم بإذن الله.

٣- بناءُ المساجدِ حتى يستطيعَ المسلمون إقامةَ الصلاةِ جماعةً، وقد عَلِمْنا أن قرىً بل مدنًا بأكملِها لا يوجدُ فيها مسجدٌ واحد.

٤- كفالةُ الأئمةِ والدعاةِ إلى الله، فهناك مَن لديهِ استعدادٌ للدعوةِ لكن قد يشغلُه البحثُ عن المعاشِ له أو لمن يَعُولُ عن الدعوةِ إلى الله، ولو وُجِدَ من يَكفُلُهم لتفرَّغُوا للدعوة، وهل تعلمُ أن المبلغَ الذي يُكفَل به الداعيةُ -ذكرًا كان أم أنثى- مائةُ دولار شهريًا تقريبًا، ومن جهَّز غازيًا فقد غزا، والجهادُ بالمال لا يقلُّ أهميةً عن الجهادِ بالنفس.

٥- إقامةُ المشاريع الدَّعويةِ ذات الجوانب الإغاثيةِ، فهذه تستقطبُ عددًا من المسلمين لفقرِهم وحاجتِهم، ومن يُطعِمُ يستطيعُ أن يعلِّمَ ويدعوَ.

٦- بعثُ الدعاةِ للإقامةِ هناك للدعوةِ وتعليمِ الخير، وكم من طاقةٍ معطَّلةٍ وفي بلادِ المسلمين حاجةٌ إليها، وأيُّ قَدْرٍ من العِلْم والدعوةِ يكفي هناك، إذِ المسلمون محتاجون إلى شيءٍ يُقدَّمُ لهم.

٧- استقطابُ عددٍ من أبناءِ المسلمين الألبانِ إلى بلادِ المسلمين على هيئة مِنَحٍ دراسية يتعلَّمون العربيةَ والعلومَ الشرعية ثم يعودون إلى بلادِهم دعاةً إلى اللهِ على بصيرة، وأئمةً في المساجدِ، ومُفتِين.. وهكذا وللحقِّ فإنَّ لبلادِ الحرمين وللجامعةِ الإسلامية بالذاتِ والجامعات الأخرى سهمًا واضحًا، وأثرًا ملموسًا يراه الزائرُ رأْيَ العينِ. ولِما رأيناهُ من أثرٍ ندعو للمزيدِ، فالحاجةُ لا تزالُ قائمةً.

٨- فتحُ مدارسَ للبنين تزاحمُ مدارسَ النصارى، وأُخرى للبناتِ تُحافظُ على الحِشْمة وتمنعُ الاختلاط.. وهذه وتلك من أنفعِ الوسائلِ إذا أُحسِنَ اختيارُ المعلِّمين والمناهجِ، واستمرَّت متابعةُ المتخرِّجين وتوظيفِهم.

٩- دعمُ المؤسساتِ الإسلاميةِ الألبانيةِ العاملةِ هناك، وهي أحوجُ ما تكونُ للدعمِ والمساندة.. والفرقُ كبيرٌ بين إمكاناتِها ودعمِها وبينَ المؤسساتِ التنصيرية.

١٠- وحيث تقومُ اليومَ عددٌ من المؤسَّسات والهيئاتِ الإسلاميةِ من خارج ألبانيا بالدعوةِ هناك، ولها أثرٌ واضحٌ وللدعاة فيها جهدٌ مشكورٌ، فهذه كذلك تستحقُّ الدعمَ والمساندة.. ومن أبرزِها مؤسسةُ الوَقْف الإسلامي، وهناك مؤسساتٌ غيرُها تُذكَر وتُشكَر وليس المجالُ حصرًا لشيءٍ منها.

١١- وللإعلامِ دورٌ كبيرٌ في نقلِ الصورة، وعلى الإعلاميين كِفلٌ كبيرٌ من

المسؤولية.. وذلك عبرَ الخبرِ والتحليلِ الصحفيِّ، والبرنامجِ الإذاعي، والقنواتِ المرئية.. فكلُّ ذلك يُسهِم في توعيةِ المسلمين في ألبانيا وينقلُ أخبارَهم، ويقدِّم الحلولَ لمشاكلهم.

١٢- كما يُسْهِمُ في التوعيةِ هناك وجودُ مطبعةٍ تُسهِم في نشرِ تعاليم الإسلام عبرَ الكتاب والمجلَّة ونحوها.

إن هذه الخطواتِ الإعلاميةَ ونظائرَها لو عُنِيَ المسلمون بها ووفَّروها لإخوانِهم في ألبانيا -لكان ذلك نافعًا ومؤثِّرًا بإذن الله لا على مستوى ألبانيا وحدَها، بل على مستوى البلقانِ كلِّها.. وعسى اللهُ أن يهيئَ للمسلمينَ مِن أمرِهم رُشدًا.

عبادَ الله: تِلكُم جولةٌ سريعةٌ في أرضِ ألبانيا بأوضاعِها واحتياجاتِها والمقترَحات حيالَها -أسألُ الله أن ينفعَ بها، وللحديثِ بقيةٌ إن شاءَ الله في موقعٍ آخر.. وعن حالةٍ أُخرى أَستكملُها في الخطبةِ القادمةِ بإذن الله تعالى.

اللهم اجمعْ كلمةَ المسلمين على الحقِّ والدِّين، وكلِّلْ جهودَ الدعاةِ والعاملين بالتوفيقِ والسَّداد، واخلُفْ على المتقينَ وأَغنِ فقراءَ المسلمين من فضلِك يا ربَّ العالمين.



# كنت في البلقان
# (٢) المسلمون في البوسنة والهرسك[١]

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.. اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلين وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[٣].

إخوة الإسلام: ولئِن كان الحديثُ في الجمعةِ الماضيةِ عن الإسلامِ والمسلمين في ألبانيا بينَ آثارِ الشيوعيةِ والانبعاثِ الإسلاميِّ الجديد، فحديثُ اليوم عن فئةٍ أُخرى من المسلمين عاشوا هم الآخرون تحتَ وَطْأة الشيوعيةِ والشيوعيِّين فترةً من الزمن، ثم عاشوا تحتَ حُكْم النصارى الغربِ والكُرْوات فترةً زمنيةً أخرى، ثم عادوا اليومَ يحكمُهم الشيوعيون والعِلْمانيون.. كانت

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ٥/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٥.

أخبارُهم وأحوالُهم غائبةً عن المسلمين فترةً من الزمن، حتى إذا دقَّ النصارى طبولَ الحربِ وأرادوا تصفيةَ الوجودِ الإسلاميِّ في البوسنة والهرسك، تحرَّكتْ عواطفُ المسلمين في المشرقِ والمغربِ، وعَرَفَ من لم يعرِفْ من قبلُ أن في البوسنة والهرسك رجالًا ونساءً وأطفالًا يقولون: ربُّنا الله.

عبادَ الله: إلى أرضِ البوسنة والهرسك أنقلُكم -ولو ذِهْنيًا- وعن أحوالِ المسلمين البوسنيين أحدِّثُكم -ولو قليلًا- ومن لم يهتمَّ بأمرِ المسلمين فليس منهم.

ولستُ أدري أمِنْ روائعِ الجهاد وبطولاتِ المقاتلين أَطُوف بكم.. وهناك لو استُنطِقَ الحجرُ لشهدَ على ملاحمِ البطولةِ وكرامةِ الشهداء، وتكادُ الأوديةُ الجاريةُ بالأنهار.. أن تختلطَ بها دماءُ القتلى والجرحى.

يمكنُك في أرضِ البوسنة والهرسك أن تقرأ الحربَ وآثارَها في المُعاقِين والمرضى، وفي كثرةِ القبور الجماعية على جَنَباتِ الطُّرُق، وفي آثار التدميرِ في المنشآتِ والمباني التي لم تُرمَّمْ بعدُ.

أم أتحدَّثُ عن وحشيةِ النصارى وما فعلوه بالمسلمين سواءً من داخلِ أرض البوسنة أم من خارجِها، ولا سيَّما الدولِ الكبرى، أم أتحدَّثُ إليكم عن مكاسبِ المسلمين وخسائرِهم في هذه الحربِ الأخيرة وما هو الدَّورُ المطلوبُ من المسلمين تجاهَ إخوانهم، بعد معرفةِ خُطَطِ النصارى ووجودِهم في البوسنة والهرسك.

أيها المسلمون: وبدأتْ أكثريَّةُ المسلمين تعرفُ عن الإسلام والمسلمين في البوسنةِ والهرسك بعد الحربِ التي استمرَّتْ أكثرَ من ثلاثِ سنوات من عام ١٩٩٢م إلى ١٩٩٥م.. وكان لوحشيةِ النصارى الضّربِ بالذاتِ في هذه الحربِ

أثرٌ في تعاطُفِ المسلمين، بل وغيرِ المسلمين مع مُسلِمي البوسنة والهرسك.

كيف لا يتعاطفون وقد خلَّفتِ الحربُ ما يزيدُ عن مائتي ألف قتيلٍ ما بين مسلمٍ ومسلمةٍ وطفلٍ؟

أما الجرحى والمعاقون -بأيِّ نوعٍ من الإعاقة- فهؤلاء يُقدَّرون بمائة ألفٍ، ولا يزال ما يَقرُبُ من ثلاثين ألفَ معاقٍ يُعانُون من أثرِ الإعاقة.

كما خلّفت الحربُ خمسةً وعشرين ألف يتيمٍ، ولا تسأل عن حاجةِ هؤلاءِ للرعاية -لكافةِ جوانبِها.

أما مَن فرَّ من المسلمين البوسنِّيين نتيجةَ ويلاتِ الحرب فيُقدَّرُون بمليونِ مسلمٍ، على هيئةِ لاجئين إما من قريةٍ إلى أخرى داخلَ البوسنة، أو من دولتِه إلى دولةٍ مجاورةٍ، ومنهم من فرَّ إلى دولٍ بعيدةٍ إسلاميةً كانت أم غيرَ إسلامية.

إخوةَ الإيمان: ولم تقفْ آثارُ الحرب وهجمةُ النصارى على المسلمين في البوسنة عند هذا الحدِّ.. بل طالتِ الآثارُ العزَّلَ من السلاحِ والآمنين في بيوتِهم ولم تَسلَم النساءُ من خُبْثِ النصارى ووحشيَّتِهم.. ويؤكِّدُ البوسنيون أن أكثرَ من أربعين ألفَ امرأةٍ مسلمة فعلَ بها النصارى الفاحشةَ، هذا إنْ سَلِمَتْ من القتلِ والتشريد.

وبيوتُ الله هي الأخرى أُسقِطت مآذنُها ومحاريبُها وهُدِّمت جدرانُها، وقد بلغ عددُ المساجدِ التي سُوِّيَت بالأرض ودُمِّرت تمامًا ستُّمائةِ مسجدٍ تقريبًا، وفوقَ ذلك أُصيبَ ثلاثُمائةِ مسجدٍ بشدوخٍ وتصدُّعاتٍ تحتاجُ معه إلى ترميمٍ وإصلاحٍ، ونال التدميرُ كذلك المنشآتِ والممتلكاتِ، وأُفسدت البُنَى التحتيةُ من طرقٍ وجسورٍ ومولِّداتِ كهرباء ونحوِها فضلًا عن تهديمِ البيوت ليصبحَ ساكنوها بلا مأوى، ويقال: إنه يوجدُ الآن أكثرُ من ثلاثِمائةِ ألفِ مسلمٍ لم يستطيعوا

العودةَ إلى منازِلهم في البوسنة -على أثرِ تدميرِ الحرب وتشريدِ الشعوب.

إخوةَ الإيمان: والمآسي هناك تَعصُر الفؤادَ، ووحشيةُ الصِّرب والكُرْوات والنصارى تظهرُ في أكثرَ من اتجاه.. ولئن نسي العالَمُ أو تناسَوْا هذه المآسيَ والجرائمَ، فلن ينسى المسلمون عامةً ومسلمو البوسنة والهرسكِ على وجه الخصوص تلك المذابحَ الجماعيةَ الغادرة التي تمَّت بتواطئٍ وتخطيطٍ من المجرمين، وما مذبحةُ (سربرنتسا) إلا نموذجًا لهذا الغدرِ الأثيم، فقد كانت مُحصّلةُ القتلى في هذه الحادثةِ وحدَها عشرة آلاف وأربعمائة قتيل وقتيلة، في مدةٍ لا تتجاوزُ الأسبوع! وفي هذه المذبحةِ غابتْ شِعاراتُ حقوقِ الإنسان عند الغربِ، بل وغاب معها قِيَمُ الغرب التي طالما تبجَّح بها، والسببُ أن العنصرَ الخاسرَ مسلمون حتى ولو كانوا أوربيين؟ لكن حقوق هؤلاءِ المسلمين المظلومين محفوظةٌ عند المسلمين، وجزاؤُهم وأجرُهم عند ربِّ العالمين.

أيها المسلمون: وبرغمِ هذه الويلاتِ والخسائرِ المُرَّة لهجمةِ النصارى على المسلمين، إلا أن الأحداث برُمَّتِها لم تكن شرًا محضًا، بل كان في ثناياها من الخيرِ ما يحمل البِشرَ، والفأْلَ لحاضرِ المسلمين في البوسنة والهرسك ومستقبلِهم بإذن الله.. وهنا يَردُ السؤال.. وما هي الآثارُ الإيجابيةُ والمبشِّراتُ الإسلامية في أرضِ البوسنة والهرسك:

١- لقد كان من أبرزِ هذه الآثارِ معرفةً عددٍ من المسلمين في العالم بإخوانٍ لهم في العقيدةِ في البوسنة والهرسك، وتعاطُفِهم معهم بالدَّعم والدعاءِ، وهذا في حدِّ ذاتِه مكسبٌ لإحياءِ مشاعرِ المسلمين وترابُطِهم إذا استمرَّ وأُنجِز.

٢- وفي نفوسِ البوسنيين أيقظتِ الحربُ بويلاتِها وشراسةِ النصارى وحِقْدِهم كوامنَ العقيدة في النفوس، فعادوا يتذكَّرون هويتَهم المفقودةَ ردحًا من الزمن، وبدؤوا يعودون إلى دينِهم ويعتزُّون بإسلامهم، في مقابلِ تعصُّب النصارى لدينِهم

وحربِهم للمسلمين على عقيدتِهم، وبدأ يرتادُ المساجدَ مَنْ لم يكن يعرفُ طريقَها من قبلُ.

٣- أما الأثرُ الأعظمُ فهو عودةُ عددٍ من شبابِ البوسنة للإسلام بمفهومِه الصحيحِ الشامل، وبالالتزامِ الصادق، بل والحماسِ للدعوة لهذا الدِّين، وبَعْثِه من جديدٍ في نفوس قومِهم البوسنيين، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1]، وقد رأينا بأمِّ أعيننا -نماذجَ لهؤلاءِ الشبابِ الملتزمين زادهم اللهُ هدى وبصيرةً، وثبَّتهم وحَفِظَهم ونفعهم ونفعَ البلادَ والعبادَ بهم.

٤- وأمرُ الوعي كذلك بدأ في صفوفِ النساء -وإن كان بنسبٍ أقلَّ- فبدأتَ تسمعُ عن عددٍ من الملتزماتِ بل الداعياتِ، ولم يعُدِ الحجابُ -كما كان من قبلُ- مظهرًا من مظاهرِ التخلُّفِ والرجعيةِ، بل رمزًا للعِزَّةِ والكرامةِ والأصالةِ الإسلامية، وإن كان لا يزال نِسبٌ كبيرةٌ من النساءِ هناك يمثِّلنَ الضياعَ والانحرافَ ويشكِّلنَ عنصرًا من عناصرِ الفسادِ والفتنة، ثبَّت الله المهتدياتِ، وهدى الضالاتِ والمتبرِّجاتِ إلى الحقِّ والهدى.

٥- وفي مقابل هدمِ النصارى للمساجدِ تعاطفَ المسلمون مع إخوانِهم في البوسنة، فعُمِّرت المساجدُ من جديدٍ وبمساحاتٍ أوسعَ وببناءٍ أقوى وأفخم، بل وبُنيَ إلى جانبها المراكزُ الإسلاميةُ للدعوةِ والتعليمِ ويُعدُّ مسجدُ ومركزُ خادمِ الحرمين الشريفين في سراييفو أكبرَ وأفخمَ مسجدٍ ومركزٍ، لا في البوسنةِ والهرسك وحدَها، بل ربما على مستوى البلقانِ، وحين يُفتَحُ المركزُ بخدماته وتقنيتِه العاليةِ ويُدعَم ويوفَّقُ لعاملين نَشِطِين مخلِصين، فسيكون له أثَرُه بإذنِ الله هناك، وهناك مساجدُ ومراكزُ أخرى، جزى الله العاملين المخلِصين المنفِقين عليها خيرَ الجزاء.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

٦- ورغم ظروفِ البوسنيين وفقرِهم فقد تعاطَفُوا وشاركوا في بناءِ المساجدِ والمراكزِ هناك.

٧- ودوَّتْ صيحاتُ الإغاثةِ في مشرقِ العالَم الإسلاميِّ ومغربِه للتعاطفِ مع الأيتام والأراملِ والمحتاجين من المسلمين في البوسنةِ، فقامت عددٌ من المؤسساتِ الإسلامية والهيئاتِ الإغاثية، ونفرٌ من أثرياءِ المسلمين وأهلِ الخير بكفالةِ عددٍ من الأيتام، ورعايةِ عددٍ من الأسر المحتاجة هناك -ولكنَّ الحاجة لا تزالُ قائمةً، وقائمةُ اليتامى التي تنتظرُ ربما تفوق قائمةَ المكفولين- وهذا التعاطفُ نوعٌ من تلاحُمِ المسلمين وأسلوبٌ من أساليبِ وَحْدتِهم، وهو مغيظٌ للأعداءِ بكلِّ حال.

أعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيم: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(١).



(١) سورة البلد، الآيات: ١١-١٦.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، حَكَم في مُحكَم تنزيله بأخوّة المؤمنين مهما تباعدتْ ديارُهم أو اختلفتْ ألسنتُهم وألوانُهم فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أمرَ بالولاءِ للمؤمنين وحذَّرَ من الفتنةِ والفسادِ إذا لم يُفعَل هذا الولاءُ والبراءةُ من الكافرين ولو كانوا أقربَ قريبٍ، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾(٢).

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أخبرَ عن ترابُطِ المؤمنين بقوله: «**المؤمنونَ كرجلٍ واحدٍ إن اشتكَى رأسُه اشتكَى كلُّه، وإن اشتكَى عينُه اشتكى كلُّه**». رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير(٣).

اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

إخوةَ الإيمان: ولعلَّ أحدَكم يسألُ ويقول: وكيف انتهتِ الحربُ في البوسنة والهرسك، وماذا عن اتفاقيةِ (دايتن) وما الدَّورُ المطلوبُ من المسلمين، وما الفرقُ بين وجودِ المؤسَّساتِ التنصيريةِ والمؤسساتِ الإسلاميةِ في البوسنةِ والهرسك بعد نهايةِ الحربِ إلى هذا اليوم؟ وللإجابةِ أقولُ: من المعلومِ أنَّ المسلمين في أُخرَياتِ أيامِ الحرب بدؤوا يتقدَّمون وتَسقُط بأيديهم المدينةُ تِلوَ الأخرى.. وكلما تقدموا تأخَّرَ النصارى.. ولكنَّ هذا الوضعَ أقلقَ الدولَ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) صحيح الجامع ح٦٥٤٤.

النصرانيةَ الكبرى، فبدأ التدخلُ سافرًا، بل بدأ الضغطُ على حكومةِ البوسنة بقُوَّة لإيقافِ الحربِ وإبرامِ وثيقةِ صلحٍ، وما كان للمجاهدينَ رغبةٌ في إيقافِ الحربِ.. ولكن أمامَ ضغطِ الحكومة والتي بدورِها واجهتْ ضغوطًا من الغربِ وفي مقدمتِه أمريكا، امتثلوا للأمرِ الواقع، وفوَّتوا على الغربِ خُطةً خبيثةً ماكرةً بإشعالِ الفتنةِ بين المسلمين حين يوافق بعضُهم على إيقافِ الحرب ويرفضُ آخرون إيقافَها.

وبعدَ إيقافِ الحرب أشرفَ الغربُ كلُّه وفي طليعتِه أمريكا على اتفاقيةِ (دايتن) في فرنسا، والتي جاءتْ بنودُها وشروطُها مُجحِفةً بحقِّ المسلمين ومائلةً كلَّ الميلِ مع النصارى.. وهل يُتوقَّعُ من الأعداءِ غيرُ هذا؟ ومهما تبجَّحَ الغربُ برعايةِ السلام والعدلِ فذاك النفاقُ الذي سوَّد وجوهَ القوم.. ولكنهم حين يُجحِفون بحقِّ شعوبٍ أوروبية لكنها مسلمةٌ.. فذاك الذي يؤكِّد تزعُّمَهم لحربِ العقائد ويبعثُ في النفوس حميَّةَ الولاءِ للعقيدة لا للعِرقِ والجنسية!

أجلْ لقد جاءتِ اتفاقيةُ (دايتن) لتضمنَ دولةً للصِّرب في البوسنة، أما المسلمون فبلا دولةٍ، بل يُحكَمون هم والكروات حكمًا فِدْراليًا، ويتولَّى الحكمَ بالتناوب مندوبٌ من الغرب.

ليس ذلك فحسبُ، بل هذه الاتفاقيةُ الظالمة استهدفتْ ضربَ المؤسسةِ العسكريةِ للجيش البُوسني، وبدلَ أن يكون في الجيشِ مائتا ألفِ جنديٍّ مسلم متحمِّسٍ للقضاءِ على آخر صِربيٍّ في البلاد، قلَّصتْ الاتفاقيةُ هذا العددَ إلى ثلاثين ألفَ جنديٍّ فقط.. وهؤلاء كذلك منزوعو السلاحِ؟!

واستهدفت الاتفاقيةُ الظالمةُ - فيما استهدفتْ - كتائبَ المجاهدين والذين أسمَتْهم الاتفاقيةُ (بالمقاتلين الأجانب) واشترطتْ حلَّ الكتيبة - وإن كان معظم أفرادها من الشبابِ البوسنيِّ، فالمجاهدون مهما كان نوعُهم وعددُهم يُرهِبون

القوى الكبرى، ولذا يسعَوْن لمحاصرتِهم والتضييقِ عليهم.

عبادَ الله: وكلمةُ حقٍّ تقال لهؤلاءِ المجاهدين - سواءٌ من داخلِ البوسنة أو خارجِها- إنهم بحقٍّ صمَامُ أمان، وصيحةُ الحقِّ والانتصارِ للمظلوم والغضبِ لله، ونداءُ تكبيرِهم دوَّت له الجبالُ.. باعوا أنفُسَهم لله، وحملوا أرواحَهم على أكُفِّهم جهادًا في سبيل الله ورغبةً في الشهادة. وكم تشهدُ أرضُ البوسنة أو سواها من مواقعِ الجهاد على شجاعتِهم وبَذْلِهم، وحُقَّ للجبال أن تبكيَ لوداعهم، وحين تُحدِّث الأرضُ أخبارَهَا فستشهدُ على صلاتِهم بالليل والناسُ نِيَام، وبكائِهم من خَشْيةِ الله في الأسحار، وعلى طول سهرِهم مرابطينَ في سبيل الله، في وقتٍ كان فيه فِئامٌ من المسلمين يغطُّون في نومٍ عميق.. كذلك نحسبُهم والله حسبُنا وإياهم -اللهم اقبَلْ شهداءَهم، وثبِّتْ على الحقِّ أحياءَهم، واهدِهم صراطَك المستقيم.

إخوةَ الإسلام في كلِّ مكان: أتدرونَ ماذا يحتاجُه إخوانُكم المسلمون في البوسنة والهرسك منكم في ظروفِهم الحاضرة؟

١- إنهم محتاجون ألَّا تنسَوْا قضيتَهم في وقتٍ كثَّفَ النصارى وجودَهم وجهودَهم، نعم إنَّ من أخطائنا أننا نتعاطفُ مع إخواننا في وقتِ ذُروةِ الأَزْمة، ثم فجأةً ننسحبُ وننساهم وقضيتَهم، على حينِ تتركَّزُ جهودُ النصارى في وقتٍ يغيبُ فيه المسلمون فيُفسِدون ويهدِمون ما بناه المسلمون.. فهل يليقُ الانسحابُ حين تُقطَفُ الثمار.. ليس ذلك في البوسنة فقط، بل وفي كثيرٍ من مواقعِ الجهاد التي دعمناها.. ثم بسرعةٍ وفجأةً نسيناها، ولعلَّ مما يُثير دهشتَكم وحماسَكم أن تعلموا أن بأرض البوسنة والهرسك اليومَ أكثرَ من ثلاثمائة مؤسسةٍ تنصيريةٍ حسبَ تقرير المجلس التنسيقي للمؤسساتِ غيرِ الحكوميةِ في البوسنة، وكما يعترفُ بذلك البوسنيون.. إنَّ من حقِّ البوسنيين أن يتحسَّروا على انسحابِ

المؤسسات الإسلامية بعد الحربِ، ونحن معهم نتحسَّرُ على هذا الإخلاءِ في وقتٍ تكاثرَ فيه الدخلاءُ والنصارى.

ولقد كانت تجربتُكم في ربطِ الدعوةِ مع الجهاد -في أرض البوسنة- تجربةً رائدة.. آتَتْ أُكُلَها في حينِها، ولا تزالُ أرضُ البوسنة ترتوَّى من مَعِينها، والأملُ -بعدَ الله- كبيرٌ في شبابِ البوسنة الذين تربَّوْا في محاضنِ الجهاد.. واستفادوا من دعوةِ المجاهدين.

٢- ولا تزال الحاجةُ قائمةً لبناءِ المساجد أو إكمالِ ما بُدئ به ولم يُكمَل، وقد رأيتُ ما بُدئ به ولم يُنجَزْ، علمًا بأن هذه المساجدَ على مستوى القريةِ والمدنِ هي الوحيدةُ.

٣- والدعاةُ إلى اللهِ من البوسنيين أو غيرِهم يحتاجونَ إلى دعمٍ ماديٍّ يسدُّ حاجتَهم ويُفرِّغهم للدعوة بين أهلِيهم وبني قومِهم، كما يحتاجون إلى الدعمِ المعنويِّ وهو أهمُّ، وذلك بزيارةِ المشايخ والدُّعاةِ وطلبةِ العلم لهم، وإقامةِ الدورات الشرعيةِ والبرامجِ النافعة، والدروسِ والمحاضراتِ العامَّة لهم ولعمومِ المسلمين هناك، وكلُّ ذلك يُسهِم في تثبيتِهم -بإذن الله- أمامَ المدّ النصرانيِّ والصليبيِّ وموجاتِ العَلْمنة والتغريب.. وإذا كان حاكمُ الصِّرب المجرمِ وُكِّلَت إليه مهمةُ التصفية الجسدية لمسلمي البوسنة والهرسك -وقد اعترفَ العالَمُ الغربيُّ بأن حاكمَ الصرب مجرمُ حربٍ- فحاكمُ الكروات النصرانيُّ وُكِّل إليه أَوْربةُ البوسنيين (يعني جعلَ البوسنة أُوروبية الطابع والشخصية) فقد صرَّح الرئيس الكرواتي بأن الغربَ كلّفه بهذه المسؤولية.. فهل يهبُّ المسلمون لنجدةِ وحمايةِ إخوانهم من كيدِ النصارى.

٤- وهناك عددٌ من اليتامى والأيامى والأراملِ والمعاقين من المسلمين خلَّفتها آثارُ الحرب، وهؤلاء إن لم يسبقِ المسلمون لمساعدتِهم وإيوائِهم وسدِّ

حاجتهم فستخطفُهم المؤسساتُ التنصيرية وستقدِّمُ لهم الطعامَ والكساءَ والتعليم بيدٍ وبالأخرى تقدِّمُ لهم الإنجيلَ المحرَّفَ وتسلخُهم من إسلامِهم الحق، أو يقعون فريسةً للفسادِ الشيوعيِّ والانحلالِ الخُلُقي ويصبحون عالةً على المسلمين فيما بعدُ.

٥- وحين تُعنَى المؤسساتُ الكافرةُ هناك بالإعلامِ وتركِّز على التعليم، فهل يُولِي المسلمون هذه الجوانبَ المهمة عنايتَهم بفَتْحِ المدارسِ واستقدامِ طلاب المِنَح، والعنايةِ بالجوانب الإعلامية بكافة صُورِها وقنواتِها لصالحِ المسلمين في البوسنة وقضيتِهم المشروعة؟

٦- وأخيرًا فإنني أهمسُ في أذنِ عددٍ من التجارِ والسيّاحِ أن يتجهوا بتجارتِهم وسياحتِهم إلى بلادِ المسلمين هنا وسيجدونَ فيها من جمالِ الطبيعة وحسنِ الأجواء ما يدعوهم للسياحةِ، وستكون فرصةً لاطِّلاعهم على أحوال إخوانِهم المسلمين ودعمِهم، فليس مَنْ رأى كمن سمعَ، بدل أن يتجهوا لسياحتِهم وتجارتِهم واستثماراتِهم إلى بلادِ الكفر والعهرِ، فتذهبُ أموالُنا إلى صناديقِ أعدائنا، فندعمُهم من حيثُ لا نشعر -وهم ليسوا بحاجةٍ إلى دعمِنا- وننسى دعمَ إخواننا وهم في أشدِّ الحاجةِ لدعمنا.

تِلكُم معاشرَ المسلمين خلاصةُ رؤىً ومشاهدَ ومشاعرَ عشتُها مع إخوانِنا في ألبانيا والبوسنة والهرسك.. رأيتُ أن أُشرِكَكم فيها، وأن أحمِّلَكم مع نفسي مسؤوليةَ الدعمِ والمناصرةِ لهؤلاء المسلمين.

اللهم انصرْ دينَك وعبادَك الصالحين، اللهم اكفِنا شرورَ الأعداء. اللهم هل بلَّغتُ.



# لغة القوة ماذا تعني وماذا تنتج؟(١)

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومنْ يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيَّها المسلمونَ: لغةُ الغطرسةِ والكبرياءِ ماذا تعني وماذا تُنتِجُ؟ سؤالٌ يتردَّدُ دائمًا ولكنهُ يُثارُ أكثرَ حينَ تكثرُ مستنقعاتُ الدماءِ، وحينَ يُظلَمُ الضعفاءُ، ويُقتَلُ الأبرياءُ ويُشمَلُ بالقتلِ الأطفالُ والنساءُ.

والمتأمِّلُ اليومَ في كونِ اللهِ الواسعِ يرى ظُلْمًا وعدوانًا، وقتلًا وتشريدًا منْ دولٍ تملكُ القوةَ، وتلوِّحُ بعصاها الغليظةِ، وتمتدُّ بأذرعِها الضاغطةِ هنا وهناكَ.

ومنَ المؤسفِ والمؤلمِ أنْ تكونَ الأرضُ المباركةُ، حيثُ مسرى الأنبياءِ وبيتُ المقدسِ، أكثرَ هذهِ الأماكنِ تعرُّضًا للظُّلْمِ والصَّلَفِ والكبرياءِ، وأنْ يكونَ الشعبُ الفلسطينيُّ الأعزلُ.. إلّا منْ حجارةٍ يحملُها الأطفالُ.. وهُتافاتٍ يُصوِّتُ بها الرجالُ، وأدعيةٍ ودموعٍ تُطلقُها وتَسكبُها ألسنةُ وعيونُ النساءِ.. أنْ يكونَ هذا الشعبُ الأبيُّ منْ أكثرِ الشعوبِ التي وَقَعَ عليها الظُّلمُ والاعتداءُ في هذهِ الأيامِ.

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٦/٦/١٤٢٢هـ.

ونعودُ للسؤالِ المطروحِ مرةً أخرى: ماذا تعني لغةُ الغطرسةِ والكبرياءِ..؟ إنَّ ممَّا تَعنيهِ هذهِ اللغةُ أنها تنفيسٌ عنِ الحقدِ الدفينِ، وهيَ أسلوبٌ سافلٌ منْ أساليبِ الاستفزازِ، هي نزغةٌ منْ نَزَغاتِ الشيطانِ، وهيَ محاولةٌ لتصفيةِ القضيّةِ العادلةِ على حسابِ الجماجمِ والأشلاءِ البشريّةِ.. وهيَ كذلكَ فهمٌ منْ فهومِ السلامِ عندَ مَنْ يَرَوْنَ أنفسَهمْ حُماةَ السلامِ.. وتعني كذلكَ فَرْضَ القوّةِ وإشعارِ الأطرافِ الأخرى بعدمِ قدرتها على التحدِّي.

بلْ قدْ تعني هذهِ الغطرسةُ الأخيرةُ أَبْعدَ منْ ذلكَ، فقدْ تكونُ رسالةً موجَّهةً.. وقدْ تكونُ مؤشِّرًا لعدوانٍ أوسعَ.

عبادَ اللهِ: ومهما عنتْه هذهِ الحركاتُ والاستفزازاتُ والقتلُ والتدميرُ فإنَّ الناتجَ لها سلبيٌّ، ولعلَّ أكثرَ المتضرِّرينَ منها همُ المُشعِلونَ لفتيلِها.

نعمْ إنَّ الضغطَ يولِّدُ الانفجارَ.. والتحدِّيَ يخلُقُ تحدِّيًا آخرَ، والضعيفَ إذا حوصرَ وضيِّقتْ عليهِ المسالكُ قد يتقوَّى؛ لأنهُ لمْ يبقَ لهُ شيءٌ يَخشى على فواتِه، وبالتالي فسيُجازفُ بأغلى ما يَملكُ، وبكلِّ حالٍ سيتضرَّرُ الطرفُ الآخرُ.

والقويُّ إذا لم يُحسنِ استثمارِ قوّتِهِ وضبْطَ قدراتهِ؛ عادتْ هذهِ القوةُ وبالًا عليهِ، ومِنْ سننِ اللهِ في كَوْنهِ أنَّ الظُّلْمُ إذا بلغَ حدَّه تهدَّمتْ عروشُ الظالمينَ، وكانتْ تلكَ بدايةَ النهايةِ لهم، وفي كتابِ اللهِ العزيز تصديقُ ذلكَ، مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(١).

وقولِهِ تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(٢).

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٥.

أينَ فرعونُ ذو الأوتادِ؟ وأينَ قارونُ صاحبُ الأموالِ؟ أينَ عادُ التي لمْ يُخلَقْ مثلها في البلادِ؟ وأينَ ثمودُ الذينَ جابُوا الصخرَ بالوادِ؟ لقدْ أهلكَ اللهُ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[1] . . ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[2].

عبادَ الله: إنَّ المسلمَ حينَ يتأملُ واقعَ اليومِ بحروبهِ الشاملةِ، وتدميرِه المتعدِّدِ المواقعِ والأشكالِ. . فهناكَ تدميرٌ للممتلكاتِ، وهناكَ تدميرٌ للقِيَمِ. . وفوقَ هذا وذاكَ هناكَ تدميرٌ للإنسانِ نفسِهِ، وفي كلِّ يومٍ تُزهقُ أرواحٌ بريئةٌ، وتُغتالُ البسمةُ على شفاهِ الأطفالِ والنساءِ والشيوخِ والعجائزِ، وكلُّ ذلكَ ترعاهُ دولٌ عظمى - إنَّ المسلمَ حينَ يتأمَّلُ هذا الواقعَ المرَّ يَروعُهُ ذلكَ، لكنهُ يخرجُ بنتيجةٍ مفادُها أنَّ الحضارةَ القائدةَ للعالمِ اليومَ ليستْ على مستوى مسؤوليةِ القيادةِ، فهيَ عاجزةٌ عنْ تأمينِ الأمنِ والطمأنينةِ -رغم إمكاناتِها الماديةِ الهائلةِ- وهيَ أعجزُ عنْ تأمينِ السعادةِ الحقَّةِ لبني البشرِ. . وإنْ وفَّرتْ لهمْ منْ وسائلِ التقنيةِ والترفيهِ ما لمْ يتوفَّرْ مثلُه منْ قبلُ، بلْ وهيَ عاجزةٌ عنْ تحقيقِ أدنى درجاتِ العدلِ. . وإنْ توفَّرَ لها منَ المنظَّماتِ والهيئاتِ ما تدَّعي بهِ توفيرَ العدلِ - كمحكمةِ العدلِ الدوليةِ، ومجلسِ الأمنِ، وهيئةِ الأممِ المتحدةِ، وسواها منْ منظَّماتٍ وهيئاتٍ لا تعدُو أن تكونَ الألقابُ مملكةً في غيرِ موضعِها: كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسدِ.

وعلى المسلمينَ أن يُدرِكوا مسؤوليتَهمْ في القيادةِ، وأنْ يهيِّئوا أنفسَهمْ للصدارةِ.

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٥٠-٥٣.

(٢) سورة النجم، الآية: ٥٥.

أيُّها المسلمونَ: وحينَ نُقلِّبُ صفحاتِ التاريخِ نجدُ أنَّ الحضاراتِ الماديةَ البعيدةَ عنْ هَدْيِ السماءِ - قديمًا أوْ حديثًا - لمْ تستطعْ أن توفِّرَ ما يتطلبُه الإنسانُ منْ أمنٍ ورخاءٍ وطمأنينةٍ وسعادةٍ، بلْ يعيشُ الناسُ في ظلِّها في بؤسٍ وشقاءٍ، وظُلْمٍ وجَوْرٍ. . تتقلَّبُ فيها فئةٌ قليلةٌ منَ الناسِ بأنواعِ النعيمِ والملذاتِ . . لتشقى شعوبٌ بأكملِها وأفرادٌ كثيرةٌ أخرى.

أجلْ إنَّ حضارةَ الرُّومِ وحضارةَ الفُرْسِ هما الحضارتانِ اللتانِ كانتا تَسُودانِ العالَمَ قبلَ بعثةِ محمدٍ ﷺ، وحينَ بلغتا منَ الفسادِ والشرورِ والظُّلْمِ والطغيانِ مبلغَهما جاءتْ رسالةُ الإسلامِ مخلِّصةً للعالَمِ منْ نَكَدِهما وشرورِهما. . وكانتْ نهايتُهما على أيدي المسلمينَ، فكانَ المسلمونَ وكانتِ الحضارةُ الإسلاميةُ هيَ البديلَ الصالحَ الذي وفَّرَ السعادةَ والطمأنينةَ والرحمةَ والعدلَ في الكونِ، ليسَ فقطْ لمنْ يَدِينونَ بالإسلامِ بلْ ولغيرِ المسلمينَ منْ أهلِ الذمَّةِ الذينَ بدأُوا يَدخلونَ في الإسلامِ تباعًا على أثرِ رؤيتِهمْ لعدالةِ الإسلامِ ورحمةِ المسلمينَ.

ومَنْ هؤلاءِ المسلمونَ الذينَ وفَّروا السعادةَ والعدلَ والطمأنينةَ للناسِ؟ أكانوا ملائكةً منَ السماءِ. . أمْ كانوا بشرًا منْ غيرِ طينةِ البشرِ؟. . كلا، إنهمْ بشرٌ لكنَّهمُ اتَّصلوا بالسماءِ، واهتدَوْا بالقرآنِ، وتربَّوا في مدرسةِ محمدٍ ﷺ، فكانَ تفوُّقُهمْ وكانَ عدلُهمْ. . باختصارٍ: الدينُ الحقُّ غيَّرَ حياتَهمْ وأشعرَهمْ بمسؤوليتهمْ في هذا الكونِ. . وإلا فقدْ كانوا قبلَ الإسلامِ أسوأَ منْ غيرِهمْ: حياتُهمْ قائمةٌ على الحروبِ والمنازعاتِ ولأتْفَهِ الأسبابِ. . والظُّلمُ يعتبرونَهُ منْ شِيَمِ النفوسِ. . والضعيفُ في نظرِهمْ هُوَ الذي لا يستطيعُ أن يَظلِمَ، ومنْ حروبِهمُ التي وَعاها محمدٌ ﷺ قبلَ بعثتِهِ (حربُ الفِجَارِ) وتلكَ لها منِ اسمها نصيبٌ، فقدْ كانتْ حربًا فاجرةً ظالمةً، وبها استحلَّ المحارِبونَ المحارِمَ بينهمْ، ولذا فإنَّ الذينَ قالوا بعدمِ مشاركةِ الرسولِ ﷺ فيها -منْ أهلِ السِّيَرِ- علَّلوا عَدَمَ مشاركتِهِ بأنها كانتْ

حربَ فجارٍ بينَ كفّارٍ.. بينَ كنانةَ وقريشٍ من جهةٍ، وقيس عَيْلانَ من جهةٍ أخرى.. أمّا الذين قالوا بمشاركتِهِ فيها فعلَّلوا ذلكَ بأنه اشتركَ دفاعًا عن المقدَّساتِ والمحارمِ ولاسيَّما أنَّ قيسَ عَيْلان هيَ المعتديةُ.. وبكلِّ حالٍ فهذا نموذجٌ لحروبِ العربِ في جاهليّتهمْ، فكيفَ إذا أُضيفَ إليها حربُ البَسُوسِ وداحسَ والغَبْراءِ بويلاتِها وآثارِها؟



## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، ولا عُدوانَ إلا على الظالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه المبعوثُ رحمةً للناسِ أجمعينَ، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ.

إخوةَ الإسلامِ: وانقلبتْ أحوالُ الجزيرةِ من مَسْرحٍ للأحداثِ والحروبِ.. تتهارشُ فيها البشرُ كما تتهارشُ الوحوشُ الضاريةُ، وتتطاحنُ القبائلُ والأممُ لأدنى سببٍ، إلى واحةٍ للأمنِ والإيمانِ، يسيرُ الراكبُ فيها من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ ومنْ بلادِ فارسَ إلى بلادِ الرُّومِ - بلْ وأبعدَ منْ ذلكَ - لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ على غَنَمِهِ.

إنَّه الإسلامُ غيَّرَ تفكيرَ الشعوبِ.. ونقلَ الطاقةَ المُهدَرةَ ووظَّفَها في مجالاتٍ بنائيةٍ نافعةٍ، فعادَ الكونُ يُعمرُ بذِكْرِ اللهِ، وعادتِ الحياةُ بلونٍ جديدٍ وطعمٍ جديدٍ.. يَشعرُ الضعيفُ بحقِّهِ وحمايتِه كما يشعرُ القويُّ بذلكَ تمامًا.

وعادَ المحارِبونَ بلا هدفٍ يحملونَ راياتِ الجهادِ فاتحينَ وداعينَ إلى الدِّينِ الحقِّ.. وليستْ حركةُ الفتوحِ الإسلاميةِ انتشارًا للإسلامِ بحدِّ السيفِ، أو بلُغةِ القوةِ كما يحلو للمستشرقينَ وأتباعِهِمْ أن يروِّجُوهُ.. بلْ كانتْ دعوةً إلى دينِ اللهِ، وفتحًا للقلوبِ بالقرآنِ قبلَ فتحِ البلادِ بالقتالِ، ولمْ يكنِ القتالُ حركةً توسُّعيةً تهدفُ إلى السيطرةِ والاستعلاءِ.. ولكنَّها كانتْ تعميمًا للخيرِ في أرضِ اللهِ، ونشرًا للعدلِ، ومحاصرةً للباطلِ، وقمعًا للمبطِلينَ، وحينَ يُحطِّمُ المسلمونَ المجاهدونَ القياداتِ الظالمةَ يكونُ شعارُهم: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي

﴿ٱلدِّينِۖ﴾[١]، فلا إكراهَ للشعوبِ على الإسلامِ، إذا كانَ هدفُ الجهادِ في الإسلام إزاحةَ الطواغيتِ التي تُرغمُ الشعوبَ على العبوديةِ لغيرِ اللهِ، وتَحكُمُ فيهمْ بغيرِ شرعِ اللهِ.. وفرقٌ كبيرٌ بينَ هذا اللونِ منَ الجهادِ الإسلاميِّ وبينَ الحروبِ الظالمةِ في الجاهلياتِ القديمةِ والمعاصرةِ، التي تُهلِكُ الحَرْثَ والنَّسلَ، وهدفُها السيطرةُ والاستعلاءُ والاستعمارُ والسَّلبُ والنهبُ.

إخوةَ الإيمانِ: وإذا كانتْ لغةُ القوَّةِ والجبروتِ والعُنفِ فاشلةً على مستوى الدولِ والأممِ، فهيَ كذلكَ سيئةُ الآثارِ والنتائجِ على مستوى الأفرادِ.

نَعَمْ، إنَّ التفاهمَ بينَ الآباءِ والأبناءِ لا تستقيمُ فيهِ لغةُ القوةِ والعنفِ، بلْ هُوَ أحوجُ إلى المفاهمةِ والتقديرِ والاحترامِ والطاعةِ منْ قِبَلِ الأبناءِ، والرحمةِ والشفقةِ والعطفِ منْ قِبَلِ الآباءِ.

وهكذا تخدمُ في العلاقاتِ الزوجيةِ لغةُ التفاهمِ والتعاونِ والرفقِ واللِّينِ أكثرَ ممّا تخدمُ لغةُ القوةِ والتحدِّي والمعاندةِ والمكابرةِ.

وبمثلِ ذلكَ يقالُ عنْ علاقةِ الإخوانِ والجيرانِ.. فهيَ تستقيمُ مَعَ الرأفةِ والرِّفقِ ولينِ الجانبِ والتقديرِ والاحترامِ المتبادَلِ.. ولا تستقيمُ مَعَ الصَّلَفِ والغِلظةِ والجفاءِ، ويستطيعُ المعلِّمُ الناجحُ أن يربِّيَ الطلابَ برفقِهِ وتشجيعهِ وتقديرِهِ واحترامِهِ للطلابِ.. وقد يُخفقُ حينَ تكونُ لغةُ القوةِ دائمًا والشدةِ أبدًا هيَ وسيلتَهُ في التربيةِ والتعليمِ.

وإذا كانتِ الحيواناتُ التي لا تعقلُ محتاجةً إلى الرأفةِ والرفقِ.. وتنفرُ منَ الشدَّةِ والغلظةِ. فكيفَ يسوغُ معاملةُ مَنْ يَعقلونَ بهذهِ الشدَّةِ والغلظةِ التي لا تُنتِجُ إلا نفورًا وفسادًا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

عبادَ اللهِ: وحينَ نتحدَّثُ عنْ آثارِ لغةِ القوةِ والغطرسةِ والكبرياءِ، وندعُو للمفاهمةِ والعدلِ والرحمةِ والرأفةِ، فدِينُنا أساسًا يُعلِّمُنا هذهِ القِيَمَ، ويدعُونا إلى تمثُّلِها في واقعِ الحياةِ.

أجلْ، إنَّ منَ التوجُّهاتِ الربّانيةِ لمعلِّم البشريةِ وقائدِ سفينةِ الإسلامِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1] ومنها: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[2].

ولعبادِ اللهِ كلِّهمْ جاءتِ الوصيةُ منَ السماءِ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[3]، وإذا كانتِ الوصيةُ بحُسنِ العبارةِ في القولِ، فالوصيةُ بغيرِها منَ الأفعالَ منْ بابِ أَولى.

إخوةَ الإسلامِ: إنَّ من علائمِ السعادةِ في المجتمعاتِ أن تسودَها الرحمةُ، فالراحمونَ يرحمُهمُ الرحمنُ.. وحينَ تُنزَعُ الرحمةُ منْ أمّةٍ أوْ مجتمعٍ أوْ فردٍ فتلكَ علامةُ الشقوةِ، ففي الهَدْيِ النبويِّ: «**لا تُنزعُ الرحمةُ إلا منْ شقيٍّ**»[4].

ومفهومُ القوةِ في الإسلامِ ليسَ استعراضًا للعضلاتِ بغيرِ حقٍّ، وليسَ تدميرًا بلا هدفٍ، بلْ هُوَ ضبطٌ للمشاعرِ وتحكُّمٌ في القوةِ، وصرفٌ للطاقةِ في وجهِها المشروعِ، وقد عبَّرَ الرسولُ ﷺ عنْ شيءٍ من هذا بقولهِ: «**ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ، وإنما الشديدُ الذي يَملكُ نفْسَه عندَ الغضبِ**».

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٤) حديث حسن: «جامع الأصول» ٤/ ٥١٦.

# أيسر العبادات وأزكاها[1]

## الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ العليِّ الأعلى، أحمدُه تعالى وأشكرُه وله الأسماءُ الحُسْنى والصفاتُ العُلى، وأشهدُ أن لا إله إلا هو بذِكْرِه تطمئنُّ القلوب، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه خيرُ الذاكرين وخيرُ الشاكرين وما زال لسانُه رطبًا بذِكْرِ الله حتى لحقَ بالرفيقِ الأعلى.

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

عبادَ الله: كم نُفرِّط في ثواب الآخرة وهو عظيم والآخرة خيرٌ وأبقى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/٦/١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

وكم نُجهِدُ أنفسَنا في سبيلِ حُطامِ الدنيا واللهُ يقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(١).

والفرقُ كبيرٌ بين مُريدِ العاجلةِ ومُريدِ الآخرة، وعنهما قال ربُّنا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾(٢).

أيها المسلمون: وثَمّةَ طريقٌ سهلٌ من طرقِ الآخرة طالما غَفَلَ عنه نفرٌ من المسلمين. وهناك عبادةٌ ميسَّرة وعظيمةُ الأجرِ وطالما زهدَ فيها نفرٌ من المسلمين.

إنها عبادةُ الذِّكرِ لله.. يَصِلُ بها الذاكرُ إلى درجاتِ المجاهدين -بل يفوق- وإلى درجاتِ المنفقين والمتصدِّقين بل تزيد.

يقول عليه الصلاة والسلام: «**ألا أنبِّئُكم بخيرِ أعمالِكم وأزكاها عندَ مَلِيكِكم، وأرفعِها في درجاتِكم، وخيرٌ لكم من إنفاقِ الذهب والوَرِقِ، وخيرٌ لكم من أن تَلقَوْا عدوَّكم فتضرِبوا أعناقَهم ويَضرِبوا أعناقَكم؟ ذِكرُ اللهِ**».

رواه الترمذي وابنُ ماجه والحاكم بسند صحيح(٣).

أجل إن الذِّكرَ بشهادةِ المصطفى ﷺ خيرُ الأعمالِ وأزكاها عند المَلِك العلام، وأعظمُها في رِفْعةِ الدرجات.

هل يُعجِزُك يا أخا الإسلام أن تقولَ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه؟ وهل تدري أنَّ هؤلاء الكلماتِ المعدوداتِ طريقٌ لمغفرةِ الذنوبِ والخطايا مهما عَظُمَت، وفي

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٧٠ ح٢٦٢٦.

صحيح البخاري وغيره: «**مَن قال: سبحانَ الله وبحمدِه، في يومٍ مائةَ مرةٍ حُطَّت خطاياه وإنْ كانت مثلَ زَبَدِ البحرِ**».

يا أخا الإيمان، ويا مَن تبحثُ عن الحمايةِ والتحرُّزِ من الشيطان.. أنت واجدُه في ذِكْر الله.. وواجدٌ معه مزايا ومِنَحًا ربانيةً أُخرى، وفي الحديث المتفق على صحته قال ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ في يوم مائةَ مرةٍ، كانت له عَدْلَ عشرِ رقابٍ، وكُتِبتْ له مائةُ حسنةٍ، ومُحِيَتْ عنه مائةُ سيئة، وكانت له حِرزًا من الشيطانِ يومَه ذلك حتى يُمسيَ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ عَمِلَ أكثرَ من ذلك**».

أيها المسلمون: إن الذِّكرَ حِرزٌ وأمانٌ وحِصن وسِيَاج.. وهل يخفى أن للسفرِ أذكارًا وللمنزلِ دخولًا أو خروجًا أذكارًا، وللأكلِ والشربِ والنوم والاستيقاظ أذكارًا وعند نزولِ المنزل، وعند قضاءِ الحاجة وعند إتيانِ الرجل أهلَه. كلّ ذلك وسواه من الأحوالِ له أذكارٌ تَحفَظُ وتُبارِك.. والموفَّق من عَلِمَ فعَمِل، وما زال لسانُه رَطْبًا بذِكْر الله بُكْرةً وعشيًّا.. ذلك نداءُ الرحمن لأهلِ الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[1].

أيها المسلمون: كم تَضِيقُ الصدورُ أحيانًا وكم تمرضُ قلوبُنا أحيانًا - ثم نظلُّ نبحثُ عن العلاجِ المكافحِ للضِّيقِ والقلقِ هنا وهناك.. وأعظمُ علاجٍ للقلوبِ ذِكرُ الله، وتلك شهادةُ الذي خَلَقَ وهو أعلمُ بمن خلق ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

نعم إنَّ المكروبَ يجدُ في ذِكْر الله ما يفرِّجُ عنه كُربتَه، وفي ذِكْر الله إنقاذٌ حين يغيبُ المنقذون: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

والمريضُ يجدُ في ذِكْر الله ما يُسرِّي عنه ويخفِّف آلامَه، والغريبُ يجدُ في الذِّكر إيناسًا له وتخفيفًا لآلام غُرْبته، إن الذِّكْر يجعلُ من القليلِ كثيرًا ومن الضعيفِ قويًا، ييسِّر العسير ويخفِّفُ المَشَاقَّ، ومن شكَّ فليُجرِّبْ مع استحضارِ عَظَمةِ الله حالَ الذِّكر، والثقةِ بعونِه وتفريجِه.

والمرأةُ تجدُ في ذِكْر الله عونًا لها على مسؤولياتِها، وهذه فاطمةُ بنت محمد ﷺ شَكَتْ ما تلقى من أثرِ الرَّحى، فانطلقتْ حين علمتْ أن النبيَّ ﷺ أتاه سَبْيٌ لتأخذَ منه خادمًا لها، فلم تجدْ أباها ووجدتْ أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها فأخبرتها بحاجَتِها، فلما جاء النبيُّ ﷺ أخبرته عائشةُ بمجيءِ فاطمةَ، فجاء النبيُّ ﷺ إلى بيتِ عليٍّ وفاطمة وقد أخذا مضجعَهما، فقعدَ بينهما.. ثم قال: «**ألا أعلِّمُكما خيرًا مما سألتُماني، إذا أخذتُما مضاجعَكما فكَبِّرا أربعًا وثلاثين وسبِّحا ثلاثًا وثلاثين وتَحمَّدا ثلاثًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادمٍ**».

يا أخا الإسلامِ: وحين تضيقُ عليك الدنيا وتَقِلُّ ذاتُ يدِك فلا مالَ عندَك ولا عَقَار، فاعلمْ أن بإمكانك أن تعوِّضَ بالذِّكْر ما فاتك من الدنيا لتزرعَ ما شئتَ للآخرة، وفي وصيةِ إبراهيمَ لمحمدٍ عليهما الصلاة والسلام ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ قال إبراهيمُ: يا محمدُ أَقْرِئ أُمتَك مني السلامَ وأخبِرْهم أنَّ الجنةَ قيعانٌ، وأنها طيِّبةُ التربةِ عَذْبةُ الماء، وأن غِراسَها: سبحانَ اللهِ، والحمدُ لله،

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبر.. رواه الترمذيُّ وحسَّنَه.

فأينَ الذين يَغرِسون بالذِّكْر اليومَ ما يغتبطون له غدًا في الجنةِ؟ وغرسُ الآخرةِ لا مُنازِعَ له ولا مانعَ منه، بل هو فضلُ الله يؤتيهِ مَن يشاء.

يا عبدَ الله: وإذا وفَّقكَ اللهُ للذِّكْر في سحابةِ النهار، وحين تكونُ يقظانَ فلا تفرِّط في الذِّكر حين يَجِنُّ الليلُ وتستيقظُ من النوم، وإليك هذا الحديثَ النبوي فاعقِلْه واعملْ به، يقول ﷺ: «**مَن تَعارَّ من الليلِ** -يعني استيقظ- **فقال: لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ لله، وسبحانَ الله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، ثم قال: اللهمَّ اغفِرْ لي، أو دعا استُجِيب له، فإن توضَّأَ وصَلَّى قُبِلَت صلاتُه**». رواه البخاري.

يا أخا الإسلام: وبشكلٍ عامٍّ فالذِّكرُ عبادةٌ ميسَّرة، وهي ذاتُ مكارمَ وفضائلَ والمغبونُ من كان نصيبُه من الذِّكر قليلًا -لا سيَّما والذكرُ لا يحتاجُ إلى تفرُّغٍ، بل يمكنُ العاملُ أن يذكرَ الله وهو يزاول مهنتَه، والموظفُ بإمكانه أن يذكرَ الله دون أن يؤثِّر على وظيفتِه، وهكذا وهو يقودُ سيارتَه أو بين أهلِه وأولاده.. بل تستطيعُه المرأةُ وهي تزاولُ عملَ بيتِها، ولا يحتاجُ الذِّكرُ إلى طهارةٍ ولا وقتَ يُنهَى فيه عن الذِّكر.. بل يُمارَسُ في كلِّ حينٍ حتى وهو مستلقٍ على فراشِه.. وما أجملَ المرءَ يغيبُ عن الحياةِ ويودِّعُ الدنيا بالنوم وهو ذاكرٌ لله، ثم يستقبلُ الحياةَ بالاستيقاظ بذِكْر الله.

وهل علمتَ أن الذِّكرَ من أحبِّ الأعمالِ إلى الله وأكبرِها عندَ الله، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] وقد سأل معاذُ بن جبلٍ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله ﷻ؟ قال: «**أن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ من ذِكْرِ الله ﷻ**»[(١)].

وفي الذِّكر تعويضٌ عما يَفُوتُ المرءَ من صدقةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وجهاد.. كما في حديثِ فقراءِ المهاجرين الذين جاؤوا رسولَ الله ﷺ يقولون: ذهبَ أهلُ الدُّثورِ بالدرجاتِ العُلى والنعيمِ المقيم، فقال ﷺ: «**وما ذاكَ؟**» قالوا: يُصلُّون كما نصلّي، ويصومون كما نصومُ، ولهم فضلُ أموالِهم يحجّون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدَّقون؟

فقال ﷺ: «**ألا أُعلِّمُكم شيئًا تُدرِكون به من سَبَقَكم وتَسبِقُون به مَن بعدَكم، ولا أحدَ يكون أفضلَ منكم إلا من صَنعَ ما صنعتُم؟**». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تُسبِّحون وتَحمَدُون وتكبِّرون خلفَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين**» متفق عليه[(٢)].

وحَسْبُ الذاكرين اللهَ كثيرًا والذاكراتِ أنَّ الله وعدَهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا، كما قال تعالى في آخرِ آية الأحزاب: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن حبان في الموارد، والبزار في كشف الأستار، وسنده حسن. صحيح الوابل الصيب/ ٧٩.

(٢) رياض الصالحين/ ٥٣٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، هو الحيُّ لا إله إلا هو فاعبدُوه مُخلِصين له الدِّين، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ولو أنَّ السماواتِ السبعَ وعامرَهنَّ غيرَ الله والأرَضِينَ السبعَ وُضِعتْ في كِفّة، ولا إله إلا الله في كفةٍ، لرجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، مَن صلَّى عليه صلاةً صلَّى اللهُ عليه بها عشرًا، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: هنيئًا للذين لا تزالُ شفاهُهم تتحرَّك بذِكْرِ الله في حال خَلْوتِهم أو في حال اجتماعِهم مع الناس، وهنيئًا للذين يَعقِدون أناملَهم بالتسبيحِ والتحميدِ والتكبير والتهليل في حالِ إقامتِهم أو سفرِهم.

إن أُولي الألبابِ هم الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبِهم.

والمؤمنون حقًّا هم الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبُهم والذين آمنوا هم الذين تطمئنُّ قلوبُهم بذِكْر الله.. وفَرْقٌ بين هؤلاء وبين مَنْ إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَه اشمأزَّت قلوبُهم وإذا ذُكِر الذين من دونِه إذا هم يستبشرون.

أجل يا عبادَ الله، إن المصلِّين أكثرُ الناس ذِكرًا لله وتلاوةً واستغفارًا، كيف لا وفي الصلاة ذِكرٌ ودعاءٌ وتسبيحٌ وتهليل وتكبير وتحميدٌ، بل لقد سمَّى اللهُ الصلاةَ ذِكرًا كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١).

أمّا المنافقون فهم أضعفُ الناسِ وأقلُّهم للهِ ذِكرًا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢) لأنهم إذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

عبادَ الله: كم هو عظيمٌ عندَ الله أن يتذكَّرَ المرءُ عَظَمةَ الله، ويذكرَ آلاءَه ونعمَه فيخشعَ قلبُه لذِكْر الله وتفيضَ عيناهُ بالدموع حيث لا يراهُ إلا الله، وأحدُ السبعةِ الذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه رجلٌ ذكرَ الله خاليًا ففاضت عيناه، وربُّنا في محكم التنزيل يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1].

وكم هو عظيمٌ كذلك أن يُذكِّر المرءُ بذكر الله فيَذكرَ اللهَ في حالِ اجتماع الناس ليذكِّرَهم بالله -وكفى أولئك فخرًا أن الله يَذكُرهم في ملأ خيرٍ من الملأ الذين ذكروا اللهَ عندهم.. ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب «**مَن ذَكَرني في ملأ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم**» ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

وما أعظمَ الأمرَ حين يشاهِدُ المرءُ خَلقًا عظيمًا أو صُنعًا عجيبًا في الكون فيذكِّرُه ذلك بمَن خلقَ العظيم ومن صنَع العجيب، ومن عجبٍ أن نعجبَ أحيانًا من الطائرة في جوِّ السماء وننسى عظمةَ مَن خلقَ السماء وأمسك السماواتِ والأرضَ أن تزولا .. وهل من قادرٍ على إمساكِهما لو زالتا؟ كلَّا بل هو اللهُ العزيزُ الحكيم.

يا أخا الإيمان: وإذا أثقلتْكَ الخطايا وتلبَّستَ بالمعاصي وأحسستَ بالذنْبِ فعليك بالذِّكر فهو كفَّارةٌ للخطايا، وفي «صحيحِ الأدب المفرَد» للبخاري: أن رسول الله ﷺ أخذ غصنًا فنفضَه فلم ينتفض، ثم نفضَه أخرى فلم ينتفضْ، ثم نفضَه فتحاتَّتْ ورقُها، ثم قال: «**إنَّ سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله تَنفُضُ الخطايا كما تنفضُ الشجرةُ ورقَها**»[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٣) صحيح الأدب المفرد للبخاري/ تحقيق الألباني ص٢٣٧.

وهل سمعتُم بحديثِ البطاقة وما فيه من عَظَمةِ الذِّكر وعدلِ ربِّ العالمين، فقد روى الترمذيُّ وحسَّنه والنَّسَائيُّ والحاكمُ وصححه ووافقه الذهبيُّ مرفوعًا: «**يُصَاحُ برجلٍ من أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامة فيُنشَرُ له تسعةٌ وتسعون سجلًا، كلّ سِجلٍّ فيها مدَّ البصرِ، ثم يقال: أتُنكِر من هذا شيئًا؟ أظلمَك كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا ياربِّ، فيقال: أفَلكَ عُذرٌ أو حسنةٌ؟ فيهابُ الرجلُ فيقول: لا، فيقال: بلى، إنَّ لكَ عندنا حسنةً وإنه لا ظلمَ عليك اليومَ فيُخرَجُ له بطاقةٌ فيها: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ مع هذِه السِّجلاتِ؟ فيقال: إنك لا تُظلَمُ، فتوضَعُ السجلاتُ في كفَّةٍ والبطاقة في كفةٍ فطاشت السجلاتُ وثَقُلَت البطاقةُ**».

قال ابنُ القيِّم رحمه الله: فالأعمالُ لا تتفاضلُ بصُوَرِها وعددِها، وإنما تتفاضلُ بتفاضلِ ما في القلوب، فتكون صورةُ العملينِ واحدةً وبينهما من التفاضل كما بينَ السماءِ والأرض(١).

ألا فاستحضِروا عَظَمَة الله حين تذكرونه، وأحْيُوا قلوبَكم بذِكْره، وإياكم وترانيمَ الأذكارِ البِدْعية، دون وعيٍ لما يقال، ولا تأثُّرٍ بالأذكار كما يفعلُ المتصوِّفة.

يا أخا الإسلام: عوِّد نفسَك على ذِكْر الله ذكرًا كثيرًا، وذكِّرْ به مَن حولَك فالذِّكرى تنفعُ المؤمنين، وإياكَ أن تكونَ في عِدادِ الموتى وأنت بَعدُ على قيدِ الحياة، فالفرقُ بينَ من يَذكُرُ اللهَ ومن لا يذكرُ الله كالفرقِ بين الحيِّ والميتِ، والناصحون يقولون لك: عُدْ إلى حديثِ الأذكارِ وتأمَّلْ فضلَها واحفظْ واعملْ بما تيسَّرَ لك منها وستجدُ الطمأنينةَ والسعادةَ والحفظَ والعونَ في الدنيا..

(١) فتح المجيد، تحقيق الفقي ص٥٢.

وستجدُ الجزاءَ الأكبرَ يومَ تلقى الله.. ولا تكنْ حصيلتُك من الموعظةِ مجرَّدَ سماعها، وما أعظمَ البيوتَ حين تُعمَر بذِكْر الله، بل وما أعظمَ الأماكنَ العامةَ والمؤسساتِ حين يعلو بها ذِكرُ الله، كم نحتاجُ للتذكير بقيمة الذِّكر في وسائل الإعلام ومناهجِ التعليم، وفي المحاضراتِ والنَّدَوات، وفي الخُطَب والمناسبات، في البرِّ والبحرِ وفي جوِّ السماء، بل هناك مَن يرى أنَّ ثوابَ الذِّكر يصلُ الموتى.. تلك ذكرى والذِّكرى تنفعُ المؤمنين، ومن تزكَّى فإنما يتزكَّى لنفسِه، لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير، سبحانَ الله وبحمدِه عددَ خلقِه ورضاءَ نفسِه وزِنَةَ عرشِه ومِدادَ كلماتِه.



# من معالم القرآن وقصصه(١)

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستهديهِ ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسَلِين، وارضَ اللهم عن الصحابةِ أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣).

إخوةَ الإسلام: يؤسسُ القرآنُ في نفوسِ المسلمينَ معانيَ عُظْمى، ومعالمَ كُبْرى، وفي أيِّ وقتٍ عادوا إليها وجدوا فيها ما يروي الظمأ.. وفي أيِّ مكانٍ تأمَّلوها وجدوا فيها أمنًا وتطمينًا، كيف لا والقرآنُ هُدًى وشفاءٌ ونورٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾(٤)، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٥).

(١) أُلقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣/ ٧/ ١٤٢٢هـ.
(٢) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

فالمريضُ يجدُ في القرآنِ شفاءَه، والخائفُ المضطرِب يجدُ في آياتِه ما يطمئنُه ويسلِّيه، والضعيفُ يقفُ في القرآن على ما يقوِّيهِ ويشدُّ من أَزْرِه، والقويُّ المستكبِرُ يجدُ في القرآنِ ما يطأطئ من كبريائِهِ، والظالمُ يضعُ القرآنُ حدًّا لظلمِه.. وهكذا.

وفي سُنن الله الدارجةِ في الكون تأكيدٌ على حقائقِ القرآنِ وشاهدٌ عليها، وتأكيدٌ كذلك على أن الضعيفَ يَقْوى إذا احتمى باللهِ وتوكَّلَ عليه والتزم شرعَه، وهو ما يُسمَّى بـ(قوة الضَّعف).

والقويُّ يَضعفُ إذا طغى وتجبَّر وظنَّ أن القوةَ قوتُه، وأن الكيدَ كيدُه، ولربما زادَ في الطغيانِ فقال: «أنا ربُّكم الأعلى».

وفي رحلةٍ مع شيءٍ من قَصَص القرآنِ دَعُونا نقرأْ نماذجَ لهذا وذاك، فأهلُ سبإٍ طَغَوْا وتجبَّروا وأعرضوا بعد أن مَكَّن اللهُ لهم ووهبهم من الرزقِ ما وهبهم وكان في جنتَيهِم آيةٌ.. فماذا كانت نتيجةُ طغيانِهم وإعراضِهم؟ قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[1].

وتأمَّلوا كيف تمَّ التدميرُ بالماء.. وهو في العادة مصدرُ نَماءٍ وحياةٍ، فعاد بقُدْرةِ الله وسيلةَ تدميرٍ وإهلاك؟

أيها المسلمون: وتأمَّلوا طائفةً من الأقوامِ والأممِ يَعرِضُ لها القرآنُ مشيرًا إلى طغيانِها وتمرُّدِها، وكيف صدُّوا عن السبيلِ وكانوا مستبصِرين، وكيف مُكِّن لهم في الأرضِ فما استقاموا على منهجِ الله - وفي النهايةِ وحين بلغ الطغيانُ والجحودُ مبلغَه كانت النهايةُ المؤسفةُ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

(١) سورة سبأ، الآيتان: ١٦، ١٧.

مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

إخوةَ الإيمان: وحين يُقالُ: إن النمرودَ بنَ كنعانَ أحدُ الملوكِ الأربعةِ الذين ملكوا الدنيا، فمن المؤكدِ أن الذي حاجَّ إبراهيمَ عليه السلام في ربِّه وصل غرورهُ وكبرياؤُه إلى حدٍّ قال فيه لإبراهيم: «**أنا أُحْيي وأُميت**»، وكُتبُ التفسير تشيرُ إلى نهايةْ مؤلمةٍ لهذا الملكِ الجبّار، وفيها عِظَةٌ وعِبرة، نقل ابنُ كثير: قال زيدُ بن أسلمَ: وبعثَ اللهُ إلى ذلك الملكِ الجبارِ مَلَكًا يأمرُه بالإيمان بالله فأَبى عليه، ثم دعاه الثانيةَ فأَبى ثم الثالثةَ فأَبى، وقال: اجمعْ جموعَك وأجمعُ جموعي، فجمع النمرودُ جيشَه وجنودَه وقتَ طلوعِ الشمس، وأرسل اللهُ عليهم بابًا من البعوضِ بحيثُ لم يَرَوْا عينَ الشمس، وسلَّطَها عليهم، فأكلتْ لحومَهم ودماءَهم وتركتهم عِظامًا بادية، ودخلت واحدةٌ منها في مَنخِرَي الملِك فمكثتْ في منخريهِ أربعمائةِ سنةٍ، عذَّبه اللهُ بها فكان يضربُ رأسَه بالمِرْزاب في هذه المدةِ كلِّها حتى أهلكه اللهُ بها[٢].

عبادَ الله: تأملوا فالفرقُ كبيرٌ بين رجلٍ يدَّعي الربوبيةَ وبين بعوضةٍ يتسع لدخولها المَنخِرُ، والمسافةُ هائلةٌ بين الدعوى الجائرةِ وبين النهاية بهذه البعوضةِ؟ وكذلك يمحَقُ الله الكافرين ويُنهي الظلم وينتقمُ من الظالمين.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٣٨-٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٤٦٤.

أُمةَ الإسلام: لا تخافوا البغيَ في الأرض، حين ترتبطوا بخالقِ الأرضِ والسماء، ولا تخافوا الضَّيعةَ من قُوى الأرض، فمِن فوقِها قوةُ السماء، ومهما بلغتْ قوةُ البشرِ فثِقُوا أن القوةَ لله جميعًا، وإذا توكَّلتم على اللهِ حقّ توكُّلِه فلن يستطيعَ أحدٌ أن يَكيدَكم، ولقد تحدَّى فردٌ أُمةً من الناس -لكنه كان مؤمنًا وهم مشركون، ونجح المتحدِّي وأبلَسَ المجرمون ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

إخوةَ الإسلام: وعلى مشارفِ ولادةِ محمدٍ ﷺ هدَّد الأحباشُ النصارى العربَ بل أَتبعوا التهديدَ بالغزو، وجاء أصحابُ الفيلِ ليهدِموا البيتَ الحرامَ ويُزيلوه من الوجود، ويحوِّلوا الحجاجَ والمعتمرين إلى كنيسة القُلَّيس[2]، وما كان للعربِ كافةً ولأهل مكةَ خاصةً قِبَلٌ بهذا الجيشِ العَرَمْرَم، وما كان أهلُ مكةَ حينها مسلمين، بل كانوا وثنيِّين ولكن الله وحدَه تولَّى الدفاعَ عن بيتِه والدفاعَ عن أُمةٍ قدَّر وقضى أن يبعثَ من رَحِمِها رحمةً للعالمين.

وانتهى الظلمُ على أعتابِ مكةَ وردَّ اللهُ الظالمينَ وجعل كيدَهم في تضليل، وأرسل الله عليهم جندًا من جندِه -ولله جنودُ السماواتِ والأرض، وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو- فعادوا يجرُّون ذيولَ الهزيمةِ وجعل الله من حَدَثِهم عِظَةً وذِكْرى تُتلى في كتاب الله إلى قيامِ الساعة.

إخوةَ الإيمان: وفي غُضونِ هذه الحادثةِ وُلِدَ محمدٌ ﷺ يتيمًا عائلًا فخَلَقَ له ربُّه من الضعفِ قوةً، ومن القِلَّة كثرةً، ومن الفقرِ غنىً ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ

---

(١) سورة هود، الآيات: ٥٤-٥٦.

(٢) سمَّتها العرب بذلك لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. تفسير ابن كثير عند سورة الفيل.

﴿ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

لقد كان فردًا فصار أُمةً، وكان أُميًا فعلَّم الملايينَ من البشرِ، وكان فقيرًا ففتح اللهُ له كنوزَ الأرض، وأبصرَ مفاتيحَها قبلَ أن يفتحَ أصحابُه مواطنَها.. وما ذهب الجيلُ الذي صَحِبَه حتى زَعزَعَ أركانَ الأكاسرةِ والقياصرةِ.. وفتحوا بلادَ الفُرْس والروم.. وأورثَهم اللهُ أرضَهم وديارَهم وأموالَهم واستبدلوا حضارتَهم القائمةَ على الظلمِ والطُّغيانِ والجحودِ والإنكارِ والتحريفِ لرسالاتِ السماء بحضارةٍ أشرقت شمسُها فاستضاء الكونُ كلُّه بضيائِها.. وطوى فجرُ الإسلام قرونًا من الظلمِ والطغيان، وساد العدلُ والرَّخاءُ شعوبَ الأرض، وكذلك يصنعُ الإسلامُ، وتلك من ثَمراتِ الإيمان.

أعوذ بالله من الشيطان: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[١].



(١) سورة الأعراف، الآيات: ٩٦-٩٩.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله العزيزِ الحميدِ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ ذو القوةِ المَتِين، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أوحى إليه ربُّه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(١).

اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: وحتى تكتملَ الصورةُ في نماذجِ القرآن أَعرِضُ لنموذجينِ في كتاب اللهِ آتاهما اللهُ من المُلكِ والقوةِ والعدلِ والرحمةِ ما كان سببًا للتمكينِ في الأرض، ونفعِ الخلق، وإقرارِ الحق، والعبوديةِ الحقَّةِ لربِّ العالمين.

أجل إنَّ ذا القَرْنينِ مكّن اللهُ له في الأرض وهيَّأ له من الأسبابِ ما طاف به الأرضَ، ودانتْ له الأُممُ وخضعتْ له الشعوبُ فساسَها بالعدل، وأقامَ بالقوةِ حضارةً، وبنى بالعلمِ والمعرفةِ سدًّا عظيمًا تُعدّ الموادُّ المستخدمةُ فيه سَبْقًا للعِلْم الحديث بقرونٍ لا يعلمُ عددَها إلا الله(٢).

بَلَغ ذو القرنين مَطلِعَ الشمسِ، ومغرِبَها وهناك ساسَهُم بالعدلِ وقوَّمهم بالإيمان ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾(٣).

وحين بلغَ بين السدَّينِ كان بنيانُه للسدِّ انتصارًا للمظلومِينَ ووَضَعَ به حدًّا للمفسدِين.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.

(٢) انظر: خطبة تمكين ذي القرنين، م٢.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

وذو القرنينِ في أَوْجِ قوتِه لا يتجبَّرُ ولا يستكبرُ بل ينسبُ القوةَ العُظْمى لخالِقه، ويعترفُ بأن تمكينه على هذه المقدَّراتِ من لَدُنِ العزيزِ الحميد ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾(١).

وحين أقامَ السدَّ شامخًا لم ينسَ أن يَنسُبَه لله الواحدِ القهّارِ، ولم يتعاظَمْ في نفسه تعاظمَ البنّاءِ، بل اعترف بأنه رحمةٌ من اللهِ وهو القادرُ على جعلِه دكَّاء إذا شاء ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(٢).

إخوةَ الإيمان: وكذلك تكون دعائمُ التمكينِ الحقِّ في الأرض.. قوةً وتخطيطًا، تأخذُ بكلِّ أسبابِ القوةِ المادية الممكِنةِ شرعًا وعقلًا، وتوكلًا على الله وإيمانًا بقدرتِه، تنفي الغرورَ بالنفسِ وتعظيمَ الذات ولا تنسى مَن خلقَ الأسبابَ وقدَّرها، وسياسةً حازمةً عادلةً مع خلقِ الله تَسُوسُهم بشرعِ الله تكافئُ المحسنَ، وتأخذُ على أيدي السَّفيه، وتمنعُ الظلمَ وتقيمُ دعائمَ الحق ولا تدعُ الضعفاءَ نهبًا للأقوياء، ولا تجعلُ من الناس سادةً أو عبيدًا أرقَّاءَ؟

أُمةَ القرآن: ومِن ذي القرنينِ إلى سليمانَ عليه السلام وكلاهما في عِدادِ ملوكِ الأرض الأربعةِ -كما يقال- ونبيُّ الله سليمانُ عليه السلام دعا ربَّه مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِه، فكانت الإجابةُ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾(٣) وفوقَ ذلك: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ﴾(٤)، أي: سخَّرَ الله له عينَ النُّحاس ليستخرجَ منها ما شاء(٥)، بل قال له

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٨.
(٣) سورة ص ، الآيات: ٣٦-٣٨.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٢.
(٥) السعدي، ٦/ ٢٦٦.

ربه: هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

نعم لقد حُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنسِ والطيرِ فهم يُوزَعون، واستسلمتْ ملكةُ سبأٍ لسليمانَ وهي التي أُوتيَتْ من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيم، ولكن كان مُلْكُ سليمانَ -وقَبْله النبوةُ- نعمةً ورحمةً للعالَمين بإنسِهم وجِنِّهم، برجالِهم ونسائِهم، بأقويائِهم وضعفائهم، فملكةُ سبأ تتحوَّلُ من الكفر إلى الإيمان، وتعترفُ بالظلم وتُسلِمُ لربِّ العالمينَ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

والجنُّ تُسلِمُ قِيادَها لسليمانَ عليه السلام فيُسخِّرُ قوّتَها في بناء المحاريبِ والتماثيل والجِفَانِ والقُدورِ الراسياتِ - وهذه الآليّاتُ كلُّها تُستخدمَ للخيرِ والجهاد وإطعامِ الطعام، ومَن تمرَّد من الجنِّ وعصى يُوثَقون في الأغلالِ والأكبال.

وأبطلَ اللهُ مكرَ الشياطينِ ودعواهم على الإنسِ بعِلْم الغيب، فسليمانُ الذي قهَرَهم واستخدمَهم يموتُ حين يموتُ وهم ماضُونَ في العمل وهم يظنُّونه على قيدِ الحياة، وما دلَّهم على موتِه إلا دابةُ الأرضِ تأكلُ مِنسأتَه (أي: عصاه التي يتكئُ عليها).

نعم إخوةَ الإيمانِ: إن سليمانَ عليه السلام لم ينسَ شكرَ الله حيثُ أَنعمَ عليه وأمدَّه بهذه القُوى والمَقدِرات ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٢).

وأثنى ربُّه عليه وعلى أبيه داودَ عليه السلام بالشكرِ فقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(١).

إن التمكينَ في الأرضِ والتفضيلَ على الخلقِ لا يستدعي الكفرَ والظلمَ والكبرياءَ، بل هو -في شرائعِ السماء- سبيلٌ للشكرِ للخالقِ والإحسانِ للمخلوقين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢).

معاشرَ المسلمينَ: وخُلاصةُ القولِ: أن آياتِ القرآنِ وقَصَصَه ترشدُنا إلى الارتباطِ الوثيق بالخالقِ في حالِ القوةِ أو الضعفِ، وتَهدِينا للعُبوديةِ الحقَّةِ لربِّ العالمينَ في حالِ السّراءِ والضرّاءِ، وتَدعُونا للشكرِ والعدلِ مع الله ومع خلقِه، وتُحذِّرُنا من مَغَبَّةِ الظلم والكفرِ عاجلًا أو آجلًا.

وتقصُّ علينا من آثارِ الأُممِ والدولِ ما فيه مُدَّكَر. . وصدَقَ اللهُ إذ يقول في هذه القَصَص: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

اللهمَّ اهدِنا بالقرآنِ وانفَعْنا بمواعظِ القرآنِ.

إن المتأملَ في قَصَص القرآن يجدُ أن عددًا من الأُممِ والقُوى الظالمةِ أخذها اللهُ بنوعٍ من العذابِ لا قِبَل للخَلقِ فيه، ويرى أن أسبابَ الهلاكِ جاءتْ من السماء ومن حيثُ لا يحتسبُ أهلُ الأرض، ويرى من جانبٍ ثالثٍ أن العقوبةَ

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.

تمَّتْ على مشهدٍ من الناسِ. . فالغرقُ وقع حيث يُبصَرُ الناجون، والخسفُ حصلَ حيثُ تماسكَتْ الأرضُ للمعاصِرينَ، والبعوضُ يَهزِم الجموعَ ويُهلِك النُّمرود، والرياحُ تُهلِك، والملائكةُ تقاتِل ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(١) والطيرُ الأبابيلُ تُرسَل وتُدمِّر، والرعبُ والهلَعُ في القلوب سلاحٌ ربانيٌّ قَذَفَ اللهُ به قلوبَ يهودِ بني النَّضِير منْ حيثُ لم يحتسِبوا، وأصابَ به يهودَ بني قُريظةَ حين تحزَّبوا مع الأحزابِ وظاهروا.

إنها أسلحةُ السماء والانتقامُ الربانيُّ، يُذكَّرُ بها أهلُ القرآنِ لا من أجل أن يتواكلوا ويقعُدوا عن العمِل والأخذِ بأسبابِ القوة. . بل ليستيقِنُوا أن النصرَ في النهايةِ من الله فلا تُرهِبُهم قوةٌ مهما بلغتْ فللهِ القوةُ جميعًا. . ولا يرعبُهم جمعٌ وجنودٌ مهما احتشدت فللهِ جنودُ السماواتِ والأرض، وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو.

إنّ على المسلمينَ أن يتوكَّلوا على اللهِ حقَّ توكُّله ويقدِّروه حقَّ قدرِه، وينصروه إن رغِبوا منه النصرَ فاللهُ يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾(٢) ويثقوا أن الإيمانَ به والعملَ بشرعِه ضمانةٌ للنصر ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾(٤)، وكم يعجبُ ربُّنا من خلقِه حين يستمدُّون النصرَ من غيرِه وهو وحدَه واهبُ النصرِ والعزَّة، وحين يُخيَّلُ لهم أن غيرَهم من البشرِ قادرون على الضُّرِّ أو النفعِ وهم لا يملكون لأنفسِهم نفعًا ولا يدفعون عنها ضُرًّا، ويُريهِم من آياتِه في الآفاقِ والأنفسِ ما يتبيَّنُ لهم به الحقُّ ثم يَظلُّون في مِريةٍ من لقاءِ ربِّهم.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ٧.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١١.

# تداعي الأمم «انصر أخاك»(١)

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِه اللهُ فلا مضلَّ له ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسَلين، وارضَ اللهم عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: الأيامُ دُوَل، والفتنُ والبلايا -قديمًا وحديثًا- تَحُلُّ وترتحِلُ، ومن قرأ التاريخَ وَجَد في حوادثِ الماضي ما يكشفُ له عن طبيعةِ المعركة في الحاضر.

ومِن آلامِ هذا القرنِ وفتنِه إلى آلامِ القرنِ الثالثِ الهجري وفتنِه أنقلُكم عبرَ مشهدٍ من مشاهدِ الصراعِ بين المسلمينَ والنصارَى، تحدَّث عنه المؤرخون كابنِ جَرير وابن الأثير وابن كَثِير، قالوا:

في سنةِ ثلاثٍ وعشرينَ ومائتينَ خرجَ توفيلُ بنُ ميخائيلَ - ملكُ الرومِ النصارى -إلى بلادِ الإسلام، وأوقعَ بأهل زِبَطْرةَ ملحمةً عظيمةً قَتَلَ بها من الرجالِ وسَبَى الذريّةَ والنساءَ، وأغار على (مَلَطْيَة) وغيرِها من حصونِ المسلمينَ، وسبَى المسلماتِ، ويُقال: إن أكثرَ من ألفِ امرأةٍ وقعت في السَّبْي(٢)، ومَثَّلَ بمن صار في يدِه من المسلمين وسَمَلَ أعينَهم وقطعَ أنوفَهم

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/ ٧/ ١٤٢٢هـ.

(٢) الطبري ٩/ ٥٥.

وآذانَهم، فخرجَ إليه أهلُ الثغورِ من الشامِ والجزيرةِ، إلا مَنْ لم يكنْ له دابةٌ ولا سلاحٌ.

أما الخليفةُ العباسيُّ المعتصِمُ فكان حينَها منشغلًا بفتنةِ بابَكَ الخُرَّمِيِّ، ويسَّر اللهُ له القضاءَ عليه، وأخمدَ فتنتَه، وكان ذلك سببًا في طَمَعِ النصارى في بلاد المسلمين، واستثمارًا سيِّئًا لهذه الفتنةِ في حينِ غفلةٍ من المسلمينَ عنهم -أو هكذا ظنُّوا- ولكنّ الخليفةَ المعتصمَ حين بلغه خبرُ النصارى وما صنعوا في بلادِ المسلمينَ استعظَمَ الأمرَ، وتألَّم لمُصابِ المسلمينَ على أيدي النصارى، وزادَ من ألمِه -كما ذكرَ ابنُ الأثيرِ- أنّ امرأةً هاشميةً صاحَتْ وهي أسيرةٌ في أيدي الروم تقول: (وامُعتصِماه) فبلغَهُ ذلك الصريخُ فأجابها من ساعتِه بقوله: لبّيكِ لبّيكِ، ونهضَ من ساعتِه وصاحَ في قصرِه: النفيرَ النفيرَ، وأمرَ بتعبئةِ الجيوشِ، واستدعى القاضيَ والشهودَ فأشهَدَهُم أن ما يملِكُه من الضِّياعِ ثلثُه صدقةٌ، وثلثُه لولدِه، وثلثُه لمواليه.. وخرجَ قائدًا للجيشِ العظيمِ بنفسِه، وانتصارٌ للمسلمينَ المحاصَرينَ من قِبَلِ الروم بعثَ الرسلَ بين يديهِ ليأتوه بالأخبار، فرجعوا إليه يقولونَ: إن ملكَ الرومِ صنعَ ما صنعَ بالمسلمينَ ثم رَجَعَ قافلًا إلى بلادِه، فلم يَثْنِ ذلكَ من عَزْمِ الخليفةِ، بل أرادَ الانتصارَ للمسلمينَ وتأديبَ النصارَى وحصارَهم في أعظمِ مدنِهم، ولذا سأل المعتصمُ أُمراءَه قائلًا: أيُّ بلادِ الرومِ أمنعُ أَحصنُ؟ قالوا: عَمُّوريَة، فهي عينُ النصرانية، وهي أشرفُ عندهم من القُسطنطينيةِ، ولم يَعْرِضْ لها أحدٌ منذُ كان الإسلامُ، فقرَّر المعتصمُ غزوَها، وجهَّز لها جيشًا لم يجهِّزْه أحدٌ قبلَه من الخلفاء.. حتى فتحَها اللهُ على يديهِ وعلى أيدي الأبطالِ من المسلمينَ الذين أبلَوْا بلاءً حسنًا، حتى تمَّ الفتحُ لهم وكسَروا شوكةَ النصارَى، وعزَّ الإسلامُ وانتصرَ المسلمون[١].

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٥٥-٥٧، الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٧٩، ٤٨٠، البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٣.

أيها المسلمون: ذلكمْ مشهدٌ من مشاهدِ تاريخِنا ونموذجٌ للنُّصرةِ والدفاعِ عن حِيَاضِ الإسلام والمسلمين عند أسلافِنا.

واليومَ آهاتٌ وأنَاتٌ لملايينَ من المسلمينَ والمسلماتِ من شيوخٍ ونساءٍ وأطفالٍ تُقطِّعُ نِياطَ القلوبِ ولا تكادُ تجدُ لها سامعًا أو منقِذًا.. بل حصارٌ عالميٌّ وأُمميٌّ لا تدري أتعجَبُ فيه من عِظَم القوةِ المُحاصِرة أم من كبرياءِ أصحابِها؟ أم تعجبُ من ضعفِ المُحاصَرين والظلمِ الواقعِ عليهمْ وصمودِهِمْ وثباتِهِمْ رغمَ المِحَنِ داخليًا وخارجيًا، ورغمَ الحصارِ الواقعِ عليهمْ سَلَفًا.. والحصارِ والتهديدِ والإنزال الواقعِ عليهمْ حاضرًا.. وكانَ اللهُ في عونِ المسلمينَ وثَبّتَ أقدامَهم وأمدَّهم بنصرٍ من عندِه.

إخوةَ الإسلامِ: ويزادُ العجبُ ويغضبُ الربُّ حينَ يتخاذلُ المسلمونَ عن نُصْرةِ إخوانِهم المظلومينَ.. فكيفَ إذا هَمَّ أو فكَّر أحدٌ من المسلمين بمشاركةِ الكافرينَ بضربِ المسلمين؟ إنها فِتَنٌ تدعُ الحليمَ حيرانَ، ومصائبُ تتصدَّعُ من هَولِها الجبال، وإلى الله المُشتكَى وهو وحدَه المُسْتَعان.

أيها الناسُ: إنَّ الإرهابُ مرفوضٌ من قِبَلِنا معاشرَ المسلمين مثلَ -بل أكثرَ- مما هو مرفوضٌ عندَ غيرِنا من الأُممِ، ولكنّ السؤالَ المهمَّ: ما هو مفهومُ الإرهابِ ومَن يصدِّرُه أكثر؟

وإذا رُفِضَ الإرهابُ الفرديُّ أو الجماعيُّ ومن أيِّ فئةٍ قامت به، فأشدُّ من ذلكَ الإرهابُ العالميُّ بصورِه وأشكالِه المختلفةِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والعسكريةِ والفكريةِ والعَقَديةِ، والذي يُمارسُه الغربُ على العالَمِ عبرَ قطارِ العولمةِ القَسْري، وعبرَ المؤتمراتِ والملتقَياتِ التي يُصرُّ الغربُ فيها على قلبِ الحقائقِ والضغطِ بقوةٍ حتى يَصدُرَ القرارُ باعتبارِ دولةِ الصهاينةِ دولةً ديمقراطيةً وليستْ في عِدادِ العنصريةِ وليست في عِدادِ الدولِ الإرهابيةِ، بل في قائمةِ الدولِ المتحضِّرةِ.

وإذا كنا -معاشرَ المسلمين- نستنكرُ قتلَ الأبرياءِ بغير حق، وسواءٌ وَقَعَ ذلكَ في بلادِ الغربِ أمْ في بلادِ الشرقِ، فاستنكارُنا لقتلِ المسلمينَ الأبرياءِ أشدُّ، وأينَ العدلُ، بلْ وهلْ من مقرَّراتِ حقوقِ الإنسانِ أن يُثأَرَ للأمريكانِ على حسابِ الأفغانِ؟ وبأيِّ حقٍّ يُحاصَرُ ما يزيدُ على عشرينَ مليونِ مسلمٍ؟ والمبرِّراتُ المعلَنَةُ للحصار والضربِ لا تزال في دائرة الشكوكِ والتُّهم، ولم تتجاوز حدودَ (المشتبَه به، والمتَّهَم الأول) ونحوَها من عباراتٍ لا تتكئُ على حقٍّ ولا تستندُ إلى برهان؟

وكان اللهُ في عونِكم يا مُسلمِي الأفغانِ، فلقد أُتِيتُم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم، رَمتكُم مِللُ الكفرِ عن قوسٍ واحدةْ، وتخاذلَ عنكمْ إخوانُكم المسلمونَ في ذِروةِ الشدةِ، وقعَ عليكُمْ نوعٌ من الحصارِ فيما مَضى فأهلكَ الجوعُ شيوخًا ونساءً رُكَّعًا، وأطفالًا رُضَّعًا، وخلَّف أعدادًا من المهاجرين تَهِيمُ على وجهِها حتى تجدَ مأوى أو تَهلِكَ في البيداء.

واليومَ يُحكَمُ الحصارُ عليكم وتُهدَّدون بالضربِ الماحقِ عشيةً أو ضحى، ويزيدُ من آلامِكم ويُعمِّقُ جرحَكم حينَ يُدعى إخوانُكم المسلمونَ لحصارِكم، وتلك وربِّي - حين تقعُ - مأساةٌ لا في حقِّكُمْ فحسبُ، بل في حقِّ المسلمينَ جميعًا، وإلا فأينَ عقيدةُ الولاءِ للمسلمينَ والبراءةِ منَ الكافرينَ، وتلكَ التي نقرأُ آياتِها في كتابِ ربِّنا صباحَ مساءَ ونعلِّمُها نساءَنا وأطفالَنا، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾[(١)] ويصف ربُّنا الذين يتولَّوْن الكافرين بقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[١].

أتُرى نفرًا من المسلمين اتَّخذوا هذا القرآنَ مهجورًا، وإلا فأين هم من هذا النداءِ الربانيِّ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

أفلا يتأملُ مَن في قلبه مرضٌ شفاءَ القرآن في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾[٣].

أمةَ محمدٍ: وأين أنتُم من هَدْيِه عليه الصلاة والسلام حيثُ يقول: «**المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه...**» متفق عليه، وفي روايةٍ: «**لا يخونُه ولا يَكْذِبُه ولا يَخذُلُه، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: عِرضُه ومالُه ودمُه...**»[٤].

أُمةَ الإسلام: لا بدَّ من مراجعةٍ للنفسِ ولنصوصِ الشرعِ، وما أجملَ تلك العبارةَ التي سَطَّرها أبو الوفاءِ بنُ عَقِيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «**إذا أردتَ أن تعلمَ محلَّ الإسلام من أهلِ الزمان فلا تَنْظُرْ إلى زِحامِهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجِهم في الموقفِ بـ«لبَّيك»، وإنما انظُرْ إلى مواطأةِ أعداءِ الشريعة...**» إلى أن يقول -وقد ذَكَر نموذجًا للولاءِ غير المشروع-: «وهذا يدلُّ على برودةِ الدِّينِ في القلب»[٥].

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٠، ٨١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٢.

(٤) الترمذي بسند صحيح: صحيح الجامع ٦/ ١٧.

(٥) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٢٦٨، نواقض الإيمان .. د. عبد العزيز العبد اللطيف ص٣٦٠.

يا أخوةَ الإسلام في أرضِ الأفغان: ونحن نُشهِدُ اللهَ ونُشهِدكم أننا نَبرأُ إلى الله مما يصنعُه بكم الأعداءُ، ونعتذرُ مما يصنعُه المسلمون؛ ونسألُ اللهَ أن يردَّهم إلى الحقِّ عاجلًا غيرَ آجِلٍ، ونقول لكم ناصحين: حين تُغلَق عنكم منافذُ الأرض فثِقُوا أن أبوابَ السماءِ مفتوحةٌ، وحين يتخلَّى عن نُصرتِكم البعيدُ والقريبُ، والعدوُّ والصديق فارتبِطوا بالله وحدَه يُجِرْكُم ويدافعْ عنكم، وتوكلوا على الله حقَّ توكُّلِه، ومَن يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُه، وحين تحققون أسبابَ النصر الواردةَ في آياتِ سورة الأنفال، فثِقُوا بنصر الله لكم، فالله يقول: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].



(١) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، أَمَرَنا بالتعاونِ على البِرِّ والتقوى، ونهانا عن التعاونِ على الإثمِ والعُدْوان، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أمَرَنا بالاعتصام بحبلِه المتين، ونهانا عن الفُرْقةِ والاختلاف، فذاك نهايةُ الأُمم مِن قبلِنا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، قال وهو الصادقُ الأمينُ: «**إن أَوثَقَ عُرَى الإيمانِ الحبْ في الله والبغضُ في الله**»، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: سؤالٌ مهمٌّ يَجدُر طرحُه والتفكيرُ -مليًّا- في الإجابة عليه، والسؤالُ يقول: ما الهدفُ من هذا التحالفِ الغربيِّ والشرقي، والاستعدادِ العسكريِّ الذي تقودُه أمريكا، ويُصوَّب ظاهرًا إلى أفغانستان؛ أيهدفُ بالفعل إلى ضرب أفغانستان -وحدَها-؟ فهي لا تحتاجُ لمثلِ هذه الحشود، أم إن الهدفَ ضربُ المفاعل النوويِّ الباكستاني؟ بل وشلُّ حركةِ الصناعةِ الحربية النَّشطةِ والمتطوِّرة في باكستانَ المسلمةِ، أم إن الأمرَ يتجاوز ذلك إلى ضربِ كل نشاطٍ إسلاميٍّ وعلى امتدادِ الكُرَة الأرضية كلِّها؟ وقد أعلنتِ الدوائرُ الغربيةُ عن عددٍ من المنظماتِ الإسلاميةِ لتكونَ هدفًا تُضرَبُ باسمِ محاربةِ الإرهاب؟

أم إن الأمرَ أوسعُ من ذلك، إذ يتجاوزُ لمحاصرةِ الإسلام وشنِّ الحرب على المسلمين عبرَ مخطَّطٍ طويلِ المَدى، تلك التي فلتت من لسانِ (بوش) وعَبَّر عنها بـ(الحرب الصليبية) ثم عاد وعادت بعضُ داوئرِه لتعتذرَ عنها كي لا تثيرَ حفيظةَ المسلمين؟ فهل يا تُرَى يتنبَّهُ المسلمون لطبيعةِ المعركةِ؟

إخوةَ الإيمان: إنَّ من حقائقِ القرآن التي لا تَقبَلُ الجدلَ الْتقاءَ اليهودَ والنصارى والمشركين على حربِ المسلمين وعداوتِهم حتى يَدخلوا مِلَّتَهم ﴿وَلَن

تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[(١)] ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[(٢)].

ومن حقائقِ القرآن كذلك نهيُ المؤمنين عن مُوالاةِ الكافرين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[(٣)].

أما مظاهرةُ الكافرين ضدَّ المسلمين فهي خيانةٌ لله تعالى ورسولِه ﷺ وللمؤمنينَ كما قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[(٤)].

وما فتِئَ العلماءُ قديمًا وحديثًا يُفْتونَ ويحذِّرون من هذه المُوالاةِ للكافرين ومساعدتِهم على المسلمين، ويعتبرون ذلك نِفاقًا أو كفرًا.

وهنا أَنقلُ لكم اثنتين فقط من هذه الفَتاوَى، الأُولى لأحدِ أئمةِ الدعوةِ السلَفيةِ الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله- حيث قال -وقد سُئِلَ عن النفاقِ وعلاماتِه وإطلاقِه-: «مَن ظَهَرَت منه علاماتُ النفاقِ الدالةُ عليه كارتدادِه عند التحزيبِ على المؤمنين وخِذْلانِهم عند اجتماعِ العدوِّ كالذينَ قالوا: لو نعلمُ قتالًا لاتَّبعناكُم، وكونِه إذا غَلَبَ المشركون التجأَ إليهم، ومدحِه للمشركين بعضَ الأحيانِ وموالاتِهم دون المؤمنين، وأشباهِ هذه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٨٠، ٨١. وانظر نواقض الإيمان، العبد اللطيف، ص٣٨٢.

العلاماتِ التي ذَكَرَ اللهُ أنها علاماتٌ للنفاقِ وصفاتٌ للمنافقين، فإنه يجوزُ إطلاقُ النفاقِ عليه وتسميتُه منافقًا...»[(١)].

أما الفتوى الثانيةُ فلسماحة المفتي السابقِ لبلاد الحرمينِ الشريفينِ فضيلةِ الشيخ عبدِ العزيز بن بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «وقد أجمعَ علماءُ الإسلامِ على أنَّ مَن ظاهَرَ الكفارَ على المسلمين وساعدهم عليهم بأيِّ نوعٍ من المساعدة فهو كافرٌ مثلُهم كما قال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)].

أيها المسلمونَ: وبإزاءِ هذه الهَجْمةِ النازلةِ بأهلِ الإسلام، واعتمادًا على هذه الآيات والفتاوى، فإنني أذكِّرُ الزعماءَ وقادةَ الدولِ الإسلامية ألا ينخدِعوا ويتورَّطوا في هذا المخطَّط المستهدِف للإسلامِ والمسلمين، حتى وإن أُعلن الإرهابُ قِناعًا له، وسيحفظُ التاريخُ كلَّ موقفٍ، وستَعِي ذاكرةُ الأجيالِ كلَّ ما قيل وسُطِّر، وليس يخفى أن الغربَ يتعاملُ مع الإرهابِ بشكلٍ انتقائي، وإلا فهل أشدُّ من إرهابِ الصهاينة والذين باتوا هذه الأيامَ يستثمرون الحدثَ لصالِحِهم في الأراضي المقدَّسة، وفي حالِ انشغالِ المسلمين عنهم، علمًا بأن أصابعَ الاتهام تُشيرُ إليهم -كما تشيرُ إلى غيرِهم- في تفجيرِ الأحداثِ الأخيرة.

أما العلماءُ فإنني أذكِّرُهم بجهادِ الكلمة وقولِ كلمةِ الحقّ، والخَشْيةِ من الله وحدَه، وشموليةِ الفتوى، والنُّصحِ لأئمة المسلمين وعامَّتِهم.

كما أُذكِّر الدعاةَ وطلبةَ العلمِ والمفكِّرين والإعلاميين وأصحابَ الوَجاهةِ والكلمةِ ببيان الحقِّ للناس، ومَلْءِ قلوبِهم بالثقةِ بالله، وشَحْذِ هِمَمِهم للدعوةِ

---

(١) الدرر السنية، ٧/ ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١. فتاوى ابن باز، ١/ ٢٧٤.

للإسلامِ الحقّ، والنُّصرةِ للمسلمينَ المستضعَفين، وبيانِ خُطَط ومَكْرِ الكافرين.

أما أغنياءُ المسلمين فيُذكَّرون بالجهادِ بالمالِ في سبيلِ الدعوةِ وسدِّ حاجةِ المحتاجين، ولا سيَّما إذا نَزلَت بأحدٍ من المسلمين نازلةٌ واحتاج إلى مساعدةِ إخوانِه المسلمين، وليس يليقُ أن تُعلِنَ منظَّماتٌ إغاثيةٌ عالميةٌ وغيرُ مسلمةٍ مساعدةَ اللاجئينَ والمهاجرين والمتضرِّرين من الشعوب المسلِمةِ ويظلُّ المسلمون في مَعزِلٍ عن الأحداث.

معاشرَ المسلمين: يا أُمةَ القرآنِ، وبشكلٍ عامٍّ فعلى كل مسلمٍ ومسلمةٍ كِفْلُه من المسؤولية تجاهَ الإسلامِ والمسلمين؛ ومأساةٌ حين يظنُّ نفرٌ من المسلمين أنه يكفيهم أن يتابعوا الأخبارَ ويسألَ بعضُهم بعضًا: هل تمَّت ضربةُ الحلفاءِ للمسلمينَ أم لم تتمَّ بعدُ، ويكفيهم مجردُ استنكارِهم لضرب المسلمين[1] أن بإمكانِ كلِّ مسلمٍ أن يقدِّمَ شيئًا، ويخطئُ من يظنُّ أن سلاحَ الدعاءِ وحدَه هو الذي يملكُه المسلمون لمناصرةِ إخوانِهم المسلمين، وهذا السلاحُ رغمَ أهميتِه وحاجتِنا إليه فنحنُ نملكُ معه أسلحةً أخرى.. فسلاحُ الكلمةِ الصادقةِ سهمٌ، وتعميمُ الوعي بين الناس سلاحٌ، والمساعدةُ بالمال -صدقةً أو زكاةً-، قلَّ أو كَثُرَ سلاحٌ، والنصحُ والمَشُورةُ للمسلمين سهمٌ، والمهمُّ أن نستفرغَ طاقتَنا في سبيلِ نُصْرة إخوانِنا، ونستجيبَ لوصيةِ حبيبِنا محمدٍ ﷺ حين قال: «**انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا**».

أيها المؤمنونَ: ومع كلِّ ما تَبذلُون فاعلموا أن دينَ الله منصورٌ من قِبَلِ الذي أنزلَه، فهو أغيرُ لدينِه وحُرُماتِه منّا.. وإنما ننصرُ أنفسَنا، ونقدِّمُ لأنفسِنا، والله تعالى أَرحمُ بعبادِه منّا.. ولكننا مُمتَحنون في ولائِنا للمؤمنينَ وبراءتِنا من

---

(١) فغير المسلمين باتوا يستنكرون ويتظاهرون.

الكافرين، ومُمتَحنون في الخوفِ من البشرِ أو من ربِّ البشر، ألا فثِقُوا بالله ونَصْرِه وأَحسِنوا الظنَّ وعلِّقوا الرجاءَ بالله، ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون.

اللهم انصُرْ دينَك وعبادَك الصالحين، اللهم انتقِمْ للمظلومينَ من الظالمين «اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين يصُدُّون عن سبيلِك ويُكذِّبون رسلَك، واجعلْ عليهم رِجزَك وعذابَك، اللهم قاتل الكفرةَ الذين أُوتوا الكتابَ إلهَ الحقِّ»[1]، وصلُّوا وسلِّموا على نبيِّ الهدى والرحمةِ.



(١) صحيح الأدب المفرد/ للبخاري، ص٢٦٠.

# الرمادةُ بين الماضي والحاضر(١)

## الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِه الكتابَ ولم يجعلْ له عوجًا، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أغنى وأَقْنى وأماتَ وأحيا.. وإليه يُرجَع الأمرُ كلُّه في الآخرة والأولى، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أوصى بالفقراءِ واليتامى والمحتاجين خيرًا، بل نزلَ عليه في القرآنِ إطعامُ الأسارى من غير المسلمين ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(٢) اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ النبيين والمرسلين وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

اتقوا اللهَ معاشرَ المسلمين، ومن يتّقِ الله يجعلْ له مخرَجًا ويرزُقْه من حيثُ لا يحتسب، ومن يتَّقِ الله يكفِّرْ عنه سيئاته ويُعظِمْ له أجرًا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٣).

أيها المسلمون: لا غرابةَ ولا عجبَ أن تصيبَ المسلمين أو طائفةً منهم مِحنٌ وكوارثُ، ولكن الأمرَ المهمَّ كيف يتعاملُ المسلمون مع هذه المحنةِ أو تلك الكارثةِ.. وسواءٌ في ذلك مَن وقعتْ عليهم أو من لم تَقَعْ وهم مسلمون يشعرون

(١) أُلقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٨/ ٧/ ١٤٢٢هـ.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٨.
(٣) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

بحقوقِ أُخوّة الإسلام وواجبِ النُّصرةِ للمسلمين.

وإذا كنا -معاشرَ المسلمين- أُمةً لها تاريخُها ولها تجاربُها وهذا التاريخُ محلُّ فخرٍ واعتزاز، وهذه التجارِبُ رصيدٌ يمكن أن يتأمَّلَه اللاحقون فيستفيدون من تَجرِبةِ السابقين.

إذا كنا كذلك فدعونا نقفْ عند صفحةٍ مشرقةٍ من تاريخِنا تحوَّلَتْ فيه المِحنُ إلى منِحَ، والبلايا إلى إحسانٍ وعطايا، استيقظ فيها الشعورُ الإسلامي، وهبَّ المسلمون في مشرِقِ الأرض ومغرِبها يُغِيثون الملهوفين ويُطعِمون الجائعين.. وخليفةُ المسلمين يتقدَّمُ الصفوفَ ويُلهِب مشاعرَ المسلمين، بل يُنفِق ويعملُ بنفسِه.

أجل، لقد كان العامُ السابع أو الثامنُ عشرة للهجرة موعدًا لقدرٍ ربانيٍّ لحصول مجاعةٍ وقحطٍ شديدٍ أصاب المسلمين في المدينةِ النبويةِ وما حولها.. وسُمِّي ذلك العامُ بعامِ الرمادة، ويُعرِّفُ الإمام الطَّبَريُّ ﵀ الرمادةَ بقوله: «كانت الرمادةُ جوعًا أصابَ الناسَ بالمدينة ومَنْ حولَها، فأهلكهم حتى جعلتِ الوحوشُ تأوي إلى الإنس، وحتى جعلَ الرجلُ يذبحُ الشاةَ فيعَافُها من قُبحِها وإنه لمُقفِرٌ»(١).

إخوةَ الإسلام: بل تجاوزتِ المجاعةُ في عهدِ الفاروقِ عمرَ ﵁ المدينةَ وما حولَها إلى أرضِ اليمن، فقد روى ابنُ سعدٍ: أن رجلًا من اليمنِ جاء إلى عمرَ وهو نائمٌ في المسجد، فنادى: واعُمَراهُ! فاستيقظ عمرُ مذعورًا وركضَ إلى الصوت، وإذا بأعرابيٍّ ممسِكٍ بخِطَام بعيره، والناسُ من حولِه، فلما نظرَ إلى عمرَ قال الناسُ: هذا أميرُ المؤمنين، فقال عمرُ: مَن آذاك؟ وظنَّ أنه مظلومٌ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٩٨.

فقال أبياتًا من الشِّعر ذكرَ فيها الجَدْبَ، فوضعَ عمرُ يدَه على رأسِه، ثم صاح: تدرونَ ما يقول؟ يذكرُ جَدْبًا وأستاتًا -يعني ضِيقًا وجوعًا- وأن عمرَ يشبعُ ويَرْوَى والمسلمون في ضيقٍ! ثم دعا الصحابةَ وقال: من يُوصِلُ إليهم المِيرةَ والتمرَ وما يحتاجون إليه؟ فوجَّهَ رجلين من الأنصار ومعهم إبلٌ كثيرةٌ عليها المِيرةُ والتمرُ، فدخلا اليمنَ وقسَّما ما كان معهما[١].

هكذا إخوةَ الإسلام كان عمرُ والمسلمون معه يتعاملون مع الكوارِثِ الواقعةِ على إخوانِهم المسلمين -ولو كانوا بعيدينَ عن مركزِ الخلافةِ- أما تعاملُ عمرَ والمسلمين معه في مَجاعةِ الرَّمادةِ في المدينة وما حولها فالأمرُ أعجبُ.

لقد كشفتِ المجاعةُ الواقعةُ في عهدِ عمر عن قوَّةِ عمرَ وعدلِه، وعن نظرتِه للمسلمين وإنصافِه من نفسِه.. كيف لا والخليفةُ عمرُ يُقسِمُ أن لا يأكلَ سمنًا ولا لحمًا حتى يحيا الناسُ[٢].

ولقد كتبَ عمرُ ﷺ إلى أمرائِه على الأمصارِ مستصرِخًا مستغيثًا ويقول: «مِن عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى فلانِ بن فلان، أما بعدُ: فإنَّ العربَ قد دفَّت إلينا ولم تَحمِلْهم بلادُهم، ولا بدَّ لهم من الغَوْثِ، الغوثَ، الغوثَ.. حتى ملأَ الصحيفةَ، فربما كان في الصحيفةِ مائتا مرةٍ[٣].

وكان أمراؤُه عندَ حسنِ الظنِّ بهم وعند حدودِ المسؤوليةِ المُناطةِ بأعناقِهم، وهذا يزيدُ بنُ أبي سفيان -وهو أحدُ الأمراءِ في الشام- يَردُّ على الخليفةِ بقوله:

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٣٢٩.
(٢) الطبقات ٣/ ٣١٢.
(٣) عمر بن شبة: تاريخ المدينة ٢/ ٧٤٤.

لُبِّيت لُبِّيت، يا أميرَ المؤمنين، أتاك الغوثُ، بعثتُ إليك عِيرًا أولُها بالمدينةِ وآخرُها بالشام(١).

وما كان لعمرَ ﷺ أن يستصرخَ الناسَ ويقعدَ بنفسِه عن العمل، وهذا أبو هريرة ﷺ شاهدُ عِيانٍ لمشاركةِ عمرَ في الإغاثة إذ يقول: لقد رأيتُه -عامَ المجاعةِ- وإنَّه ليحمِلُ على ظهرِه جِرابينَ وعُكَّةَ زيتٍ في يدِه.

بل زاد الفاروقُ من اهتمامِه بالمحتاجين فلم يكتفِ بحملِ الطعامِ وصُنعِه لهم، بل رأى من واجبِه أن يرى الفَرْحةَ تَغمُرُ أطفالَهم بعد أن خيَّمَ الحزنُ عليهم وأقَضَّ البكاءُ مضاجعَهم.

ودونكم هذه الروايةَ -عند الطبريِّ- يرويها زيدُ بن أسلمَ عن أبيه ويقول: خرجتُ مع عمرَ بنِ الخطاب ﷺ إلى حَرَّةِ واقمٍ، حتى إذا كنا بِصِرَار، إذا نارٌ تُؤرَى. فقال: يا أسلمُ، إني أرى هؤلاءِ ركبًا قَصَّر بهم الليلُ والبردُ، انطلِقْ بنا، فخرجْنا نهروِلُ حتى دنونا منهم، فإذا امرأةٌ معها صِبيانٌ لها، وقِدْرٌ منصوبةٌ على النار، وصبيانُها يتضاغَوْنَ، فسلَّمَ واستأذن وسأل: ما بالُكم؟ قالت: قَصَّر بنا الليلُ والبرد، قال: فما بالُ هؤلاءِ الصبيةِ يتضاغَوْنَ؟ قالت: الجوع، قال: وأيُّ شيءٍ في هذه القِدْر؟ قالت: ماءٌ أُسكِّتهم به حتى يناموا، اللهُ بيننَا وبينَ عمر، قال: أيْ رحمَكِ اللهُ، ما يُدرى عمرُ بكم؟! قالت: يتولَّى أمرَنا ويَغفُلُ عنا، قال أسلمُ: فأقبل عليَّ عمرُ وقال: انطلقْ بنا، فخرجنا نهرولُ حتى أتينا دارَ الدَّقيقِ، فأخرج منه طعامًا وقال: احمِلْه عليَّ، فقال أسلمُ: أنا أحملُه عنك، فردَّ عمرُ: بل احمِلْه عليَّ، فلما كرَّر عليه أسلمُ القولَ غضب عمرُ وقال: أنت تحملُ عني وِزْري يومَ القيامة لا أمَّ لك، فحمله عليه، ثم انطلقا حتى وصلا المرأةَ

(١) السابق ٢/ ٢٤٣، د. عبد العزيز العمري: تأمين الأقوات في عصر الخلافة الراشدة/ ٣٦.

وأطفالَها، فبدأ عمرُ يصنعُ لهم الطعامَ حتى رُئي الدخانُ يخرجُ من خَلَلِ لحيتِه الكثيفةِ، ولم يزلْ كذلك حتى نَضِجَ الطعامُ وأفرغَ للمرأةِ وصبيانها فأكلوا حتى شَبِعوا حتى شكرتْ له المرأةُ صنيعَه -وهي لا تعرفه- وقالت: أنت أَولى بهذا الأمرِ من أميرِ المؤمنين، فردَّ عليها عمرُ: قولي خيرًا وإنك إذا جئتِ أميرِ المؤمنين وجَدْتِني هناك. يقول أسلمُ: ثم تنحَّى عنهم ورَبَضَ مربِضَ السَّبُع، فجعلتُ أقول له: إن لك شأنًا غيرَ هذا؟ وهو لا يكلِّمني، حتى رأيتُ الصبيةَ يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدؤوا، فقام عمرُ وهو يَحمَدُ الله، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أسلمُ، إن الجوعَ أسهرَهم وأبكاهم، فأحببتُ أن لا أنصرفَ حتى أرى ما رأيتُ منهم»[١].

عجبًا لك يا ابنَ الخطابِ، فلقد كنتَ في الجاهلية نموذجًا للغِلْظةِ والشدة حتى تدفنَ ابنتَك وهي حية وهي تنفُض الترابَ عن لحيتك، ثم أنت في الإسلامِ يُقلقُ مضجَعَك بكاءُ الجوعى لا من بيتِك وعائلِتك، بل من أبناءِ المسلمين وخارج المدينة، ولا تكتفي بحملِ الطعام وصُنعِه بل تنتظرُ حتى تتبدَّلَ مشاعرُ الأسى بالفرحةِ والأُنس، إنه الإسلامُ جعل منكَ عظيمًا في كل شيءٍ، وليس إغاثةُ الملهوفِينَ إلا جزءًا من هذه العَظَمة، حتى أشفقَ الصحابةُ على عمرَ من شدَّةِ اهتمامِه بالمسلمين، ويقول الصحابةُ المعاصرون له: لو لم يرفعِ اللهُ المَحْلَ عامَ الرمادة لظنَنّا أنَّ عمرَ يموتُ همًّا بأمرِ المسلمين[٢]. بل تتجاوزُ العَظَمةُ في شخصيتِك، وتصلُ بك نُبْلُ المشاعرِ وبواعثُ الرحمةِ، على أن تتجاوزَ بني الإنسان إلى الرأفةِ بالحيوان، ويؤثَرُ عنك القول: «واللهِ لو أنَّ بغلةً سقطتْ في العراقِ لكان عمرُ مسئولًا عنها: لِمَ لمْ تمهِّدْ لها الطريقَ يا عمرُ!».

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٢٠، ٢١.
(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ٣١٥.

الله أكبرُ، إنها نماذجُ للرحمةِ والإيثارِ والعطفِ على الحيوانِ فضلًا عن بني الإنسانِ، يحثُّ عليها الإسلامُ ويتمثلها المسلمون كلَّما استيقظَ واعظُ القرآنِ في النفوس ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

وإذا شَمِلَ الإطعامُ غيرَ المسلمين، فالأَسرى حين نزولُ الآياتِ من غيرِ المسلمين -كما أكَّد على ذلك العلماء-[1] فالمسلمون من باب أَوْلى.

وأين المسلمون من هَدْيِهِ عليه الصلاةُ والسلام وقد سُئِلَ: أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ فأجاب: «**تُطعِمُ الطعامَ وتقرأُ السلام على مَن عرفتَ ومَن لم تَعرِفْ**» رواه البخاريّ.



(١) القاسم بن سلام: الأموال/ ٧٢٩.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين مالكِ يومِ الدين، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وليُّ الصالحين، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه إمامُ المتقين، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ النبيين.

أيها المؤمنون: ومن مجاعةِ القرنِ الأول الهجريِّ وكيف تجاوزَ المسلمون مِحنةَ الرمادةِ.. أتحدَّثُ إليكم عن مجاعةِ القرنِ الخامسَ عشرَ الهجريِّ.. والكارثةِ الواقعةِ والمتوقَّعة في بلادِ الأفغان، وليس يخفى أنَّ البلاد -وطوالَ ما يقرُبُ من ربعِ قرنٍ تعيش حربًا متواصلة.. فَقَدَ فيها عددٌ من الأُسرِ عائلَها، وهاجرتْ أعدادٌ أخرى من مساكنِها، وأصبح عددٌ ثالثٌ لا يملكُ من الحياةِ إلا خيمةً لا تكادُ تتوفَّرُ فيها عددٌ من ضَرُورياتِ الحياة فضلًا عن كماليّاتِها.. وأصبح مع الأسفِ عددٌ من هذه الأُسَر فريسةً لمنظَّماتٍ تنصيرية جاءتْ إلى أفغانستانَ تحت عباءةِ الإغاثةِ الإنسانية؟

لقد عانى الشعبُ الأفغانيُّ كثيرًا في جهادِه ضدَّ المحتلِّين الرُّوس، ولكن انتصارَه في النهايةِ على الروس -وبدعمٍ من العالم الإسلامي- أنساه بعضَ معاناتِه، لكنه عادَ من جديدٍ يتحمَّلُ ويلاتِ الحرب ويتجرَّعُ بكلِّ مرارةِ الصراعَ بين الفصائلِ الأفغانية بعد طردِ الروس.

ولم يكدْ يَذُقْ طعمَ الاستقرار بعد إزاحةِ هذه الفصائلِ وتوحيدِ معظم البلاد على يدِ (طالبان) حتى قُرِعَت طبولُ الحربِ الأمريكية ومعها الحلفاءُ ضدَّ هذا البلدِ المسلم؟

أجلْ، لقد أكلتِ الحروبُ السابقةُ الأخضرَ واليابس، ثم جاء الجفافُ ليضربَ كلَّ ما تبقَّى، ويتركَ الأسرةَ الأفغانية مجرَّدةً من معظمِ أسباب الحياة..

إلا إيمانَها وتوكُّلَها وتقشُّفَها وصبرَها.

ولا يعلم إلا اللهُ ما مصيرُها وما حالُ هذه الأُسر في حال نشوبِ حربٍ جديدةٍ تُستخدَمُ فيها الآلاتُ الحربيةُ المدمِّرةُ من قِبَل الحلفاءِ!!

إن المراقبين يتوقَّعون نزوحَ ملايينِ اللاجئينَ على حدودِ أفغانستانَ.. بل إنهم استبَقُوا الأحداثَ.. وشاهد الناسُ نماذجَ لهؤلاء اللاجئين المهاجرين وهم يتدفَّقونَ بحثًا عن الملجَأ والغذاءِ، وكم هي مأساةٌ حين تَعجِزُ دولُ الحدودِ عن استيعابِ هؤلاءِ المهاجرين فتمنعُهم من الدخول إلى أراضيها.. وهم لا يَجِدُون ما يأكلون أو يستظلُّون به في بلادِهم.. فيكون الموتُ الجماعيُّ وحَتْفُ الأنفسِ مصيرًا بائسًا لعددٍ من هؤلاءِ المهاجرين اللاجئين المسلمين.

والمأساةُ أعظمُ حين تَنشَطُ المؤسَّساتُ الإغاثيةُ التنصيرية لاستقبالِ هؤلاء فتُؤوِيهم وتدعمُهم باليدِ وتُنصِّرُهم أو على الأقل تُفسِدُ عليهم إسلامَهم باليد الأخرى -وقد سمع العالَمُ عن عددٍ من هذه الهيئاتِ بدأتْ تستعدُّ للإغاثة في أعقابِ الحرب.. وعجبًا لهذا التناقضِ، فالذي يضربُ ويُحدِثُ الأذى وينشئ الفقراءَ هو الذي يطعمُ ويُؤْوِي ويَظهرُ في أعين البسطاء وكأنه المنقذُ من المأزق.. والمتقدِّمُ حين تأخَّرَ الآخرون.

إن المسلمين أَوْلى بإخوانِهم المسلمين في حالِ السِّلْم أو في حالِ الحرب إذا ما وُجِدَت الحاجةُ عند أحدٍ من إخوانِهم المسلمين بشكلٍ عامّ، فكيف إذا اشتدَّتِ الحاجةُ للمساعدة.

إنَّ التقاريرَ تقولُ: إنَّ أعلى معدَّلٍ لوفياتِ الأطفال في أفغانستانَ وسيراليون وموزمبيق.. ووَفْقًا لتوقُّعات مسئولين بمكاتبِ الأممِ المتحدةِ في إسلام آباد فإن ما بين خمسةِ إلى ستةِ ملايين أفغانيٍّ معرَّضين لخطرِ المجاعة، ونِسَبُ الأطفالِ

فيهم عالية، بل إن ثُلثَ الأطفال دون سنِّ الخامسة.

وتشيرُ التقارير كذلك إلى أن مخزونَ الغذاء والدواء في حالِ حدوثِ ضربةٍ لأفغانستان لن يكفيَ الشعبَ الأفغاني إلا لأسبوعٍ فقط، وسواءٌ صحَّت هذه التقاريرُ أو لم تصحَّ فنحن على ثقةٍ بأن الله هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتينُ وأنه المُحْيي والمميتُ.. لكن يا أُمةَ القرآن ماذا نقولُ لرِّبنا إذا سألَنا عن موتِ هؤلاء الأطفالِ المسلمين ونحن قادرونَ على إغاثتِهم؟ هذا في الآخرة.. أمَّا في الدنيا فماذا سيقولُ العالَم عنا -معاشرَ المسلمين- ونحن نتركُ هؤلاءِ الأطفالَ يموتون حتفَ أنفهم.. ولربما سبقتْ إلى استبقاءِ حياة بعضِهم مؤسَّساتٌ لا تَمُتُّ للإسلامِ ولا للمسلمين بأدنى صِلَة.

إن أمريكا أرادت أن تُحرِجَ العالمَ بضربتِها العسكرية، وذلك حين بدأتْ تجمعُ التأييدَ من دولِ العالم -بما في ذلك العالَم الإسلاميّ- لضربِ أفغانستان، وهي تُصِرُّ بل ترضى اشتراكَهم بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وهي اليومَ تُحرِجُهم في التقدم لإغاثةِ اللاجئين والمهاجرين الأفغان، إذ تُعلِنُ الأُممُ المتحدة عن توجُّهِها لجمع ٥٨٤ مليونَ دولارٍ من المساعداتِ لمنعِ وقوع كارثةٍ إنسانيةٍ في أفغانستان، وقد وعدَتْ أمريكا بتقديمِ حصَّتِها من هذه المساعدات، وأعلَنتِ اليابانُ عن تحمُّلِها عشرين بالمائة ٢٠٪ من المبلغ المعلَن من قِبَل الأمم المتحدة.

وكأنَّ أمريكا أرادت أن تُشرِكَ العالمَ كلَّه بمُصابِها، وباسمِ محاربةِ الإرهاب وتحقيقِ العدالة؟ وأين جِدِّيتُها في هذه الدعوى في منعِ الإرهاب اليهوديِّ في فلسطين، وأين عدالتُها في التعاملِ مع قضايا المسلمين، وهي التي صنعتْ ما صنعت في (تيمورا الشرقية) في أندونيسيا، وما نسيَ العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ ضربَها لمصنعِ الأدويةِ في السودان، وما نسوا مواقفَها المُشينةَ مع الصِّرب

النصارى في (البوسنةِ والهرسك) حين أقامتْ لهم دولةً مستقلةً رغمَ وحشيَّتِهم، بينما تركتِ المسلمين يُحكَمون بالمندوبِ السامي. وما نسيَ العالمُ مأساةَ (هيروشيما ونجازاكي) ولا الضربَ الأمريكيَّ لـ(فيتنام) إلى غير ذلك من حوادثَ ووقائعَ تقومُ بها أمريكا بنفسِها أو تقيمُ غيرَها بالوكالة.. ولذا فثَمَّةَ أصواتٌ عاقلةٌ في أمريكا بدأتْ تدعو لمراجعة النظرِ في السياسةِ الأمريكيةِ في الخارج.. ويقولون: إن هذه الضربةَ الأخيرةَ رَجْعٌ للصَّدى، وإعادةٌ للبضاعةِ المُزْجاةِ على أصحابها؟ ومع ذلك فنصيحتي للمسلمين عمومًا كِبارًا أو شبابًا بضَبْط النفسِ والتعاملِ مع الأحداث بهدوء ورويَّةٍ ووَفْقَ توجيهاتِ الكتاب والسُّنة.. حتى لا يتصرفَ أحدٌ اليومَ تصرفًا يندَمُ عليه غدًا، وأن تظلَّ أحكامُنا مرتبطةً بميزانِ القرآن من مثلِ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾(١).

معاشرَ المسلمين: إننا في صددِ الحديثِ عن إغاثةِ الشعبِ الأفغانيِّ نذكرُ دعمَ المملكة بمبلغِ عشرةِ ملايين دولار.. ونأملُ أن يكونَ لهذا الدعمِ ما بعدَه، وأن يتحرَّك المسلمون حكوماتٍ وشعوبًا لدعم إخوانِهم في أفغانستان، بل وفي كلِّ مكان يحتاجُ فيه المسلمون إلى دعمٍ ومساندة -وإذ سمعتم أن الفاروقَ رضي الله عنه يعتبرُ نفسَه مسئولًا عن الدابةِ تموتُ في أرضِ العراق: لِمَ لَمْ يُمهِّد لها الطريق؟ فكيف بموتِ آلافٍ بل ملايين من البشرِ المسلمين لا تصلُ إليهم حاجتُهم من الطعامِ أو الكساء؟ أو تصلُ إليهم بجهودِ اليهود والنصارى والمشركين فيُسِدُّون جَوْعَة بطونهم وتظلُّ قلوبُهم من الإيمانِ والإسلام جَوْعى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

إنكم معاشرَ المسلمين تُدعَوْنَ اليومَ للإنفاق، وتُمتحَنون في أموالكم، وكما تُسألون: من أين اكتسبتُموها؟ فتسألون: وفيمَ أنفقتُموها؟

وهنا أَلِفتَ النظرَ إلى حكمٍ شرعيٍّ يقضي بتقديمِ الزكاة عند وجودِ المُوجِبِ لذلك، قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ رَحِمَهُ اللهُ(١): «وأما تعجيلُ الزكاةِ قبل وجوبِها بعد سببِ الوجوبِ فيجوزُ عند جمهورِ العلماءِ كأبي حنيفةَ والشافعيِّ وأحمدَ..».

وليس يخفى حاجةُ المسلمين الأفغانِ من قبلِ الحصارِ ومن بعدِه وسواءٌ وقعتِ الضربةُ أم لم تقعْ.. فأَرُوا اللهَ من أنفسِكم خيرًا، وانصُروا إخوانكم.. ولا يَسبِقنَّكم غيرُ المسلمين -اللهمَّ أغْنِ فقراءَ المسلمين وسُدَّ حوائجَهم، وثبِّتْ على الحقِّ أقدامَهم، وانصُرهُم على القومِ الكافرين.

اللهمَّ صلِّ على محمدٍ..



---

(١) الفتاوى ٢٥/ ٨٥.

# مفهومُ النصر وتوظيفُ الحدث(١)

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: ما حقيقةُ النصر؟ وما مفهومُ الهزيمة؟

يظنُّ بعضُ الناس أن التفوقَ في القوة، وكثرةَ القتلى والجَرْحى، وانتشارَ الدمارِ هنا وهناك، والغلبةَ على الخصمِ مؤشِّرٌ للنصر لمن حصلَ له، ومؤشِّرٌ لهزيمةِ من وقع عليه.

وكلنا حين نعودُ لنصوصِ القرآن والسنة نجدُ مفهومًا آخرَ للنصر، ومعنًى آخرَ للهزيمة.

فالثباتُ على المبدأ الحقِّ نصرٌ وإن أُهلِكَ أصحابُه في سبيله.

والموتُ على الإيمانِ بالله وحدَه نصرٌ - مهما تفنَّن القاتلون في نوعِ القتل، كيف لا وعددٌ من أنبياءِ الله قُتِلوا.. وهم بلا شكٍّ غالبون منتصرون في ميزانِ الحقّ، وفي المقابلِ تعلَّمْنا من نصوصِ الكتابِ والسُّنة أن الاستكبارَ والطغيانَ والتجرُّدَ من القِيَم والأخلاقِ العادلةِ والظُّلم والاستبدادِ هزيمةٌ ماحقةٌ وإن خُيِّلَ لأصحابها أنهم يتربَّعون على موائدِ النصر ويتسلَّوْنَ بمشاهدِ القتلى، ويتشفَّوْن

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣/٨/١٤٢٢هـ.

ويتفاخرون بالانتصارِ على الضعفاء؟

وفي القرآنِ الكريم من مثلِ قِصَّة إحراقِ الخليل ﷺ، وتقطيعِ الأيدي والأرجلِ من خلافٍ والصَّلْب في جُذوعِ النخل حتى الممات لسحرة فرعون.. وإحراقِ أصحابِ الأخدود.. في مثلِ هذه القصصِ نماذجُ لمفهوم النصرِ وحقيقةِ الهزيمة.

كيف لا وقد جاءَ في سياقِ هذه القصص: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1].

وعن سَحَرةِ فرعونَ خلَّدَ القرآنُ ثباتَهم وتحدِّيَهم لفرعونَ وصراحتَهم بالإيمان وكشفَهم لمفهوم الحياة الحقَّةِ حين قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2].

وهكذا انقلب السحرُ على الساحر، وأصبح فرعونُ لا يواجهُ موسى والمؤمنين معه بل يُبتلَى بثُلَّةٍ من أصحابه، ويُصاب بنفورٍ وانشقاقٍ من أقربِ الناس إليه، وكانت تلك بدايةَ النهايةِ لفرعونَ وجنودِه!

أما أصحابُ الأخدودِ فيكفيهم فخرًا وحسبُهم نصرًا أنهم يُساقَوْن إلى الموتِ وتُخَدّ لهم الأخاديدُ وهم ثَابتون على الإيمانِ بالله متحدُّون للجَبَروت والكبرياء، وحين تقاعست امرأةٌ تحملُ صبيًا لها وتردَّدتْ في دخولِ النار.. أنطقَ اللهُ الغلامَ بالحقِّ وليكونَ شاهدًا على مفهومِ النصر: «يا أمَّهْ اصبِري فإنكِ على الحقِّ»[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٨-٧٠.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

(٣) رواه مسلم، الزهد .. قصة أصحاب الأخدود/ ح٢٠٩٣.

وتأمَّلوا كيف جاء التعليقُ في القرآن على أصحابِ الأُخدودِ ومَن فتنَهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(١) هذا عن الفئةِ الأولى - ثم قال عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾(٢).

فهذا مفهومُ الفوزِ في القرآن .. وتلك حقيقةُ النصرِ والهزيمةِ عندَ أهل الإسلامِ والقرآن.

عبادَ الله: إن الابتلاءَ للناس سُنَّةٌ ربانية ماضيةٌ متجدِّدة، والحكمةُ منها كما قال ربُّنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٣).

إنَّ من الناس من يَفزَعُ للأحداثِ الكبيرة فزعًا يُفقِدُه صوابَه، وربما أحبطَ نفسَه وأَساء الظنَّ بربِّه ودينِه، فظنَّ أنَّ في تكالُبِ الأعداء على المسلمين وتهديدِهم لبعضِهم وقتلِهم للبعضِ الآخر نهايةً للإسلام وتصفيةً للمسلمين، فينزوي على نفسِه، وأنَّى لمثلِ هذا أن يقومَ بدعوةٍ أو يأمرَ بمعروفٍ أو ينهى عن منكر .. وهو أحوجُ إلى أن يُدعَى ويُؤمرَ ويُنهَى.

ومن الناس من هو على الضدِّ إذ قد يبلُغُ به الحماسُ غيرُ المنضبطِ إلى التسرُّعِ والتصرُّف فيما لا يَسُوغ ولا يجوز سواءٌ بالقول أم بالفعل، وسواءٌ كان حماسُه لهذا العمل أو ذاك، وخسارةٌ فادحة حين ترتدُّ السهامُ على النحورِ، وفتنةٌ عظمى حين يقعُ القتالُ بين فئاتِ المسلمين فتتمزَّقُ أوصالُ الأُمة ويذهبُ ريحُ

(١) سورة البروج، الآية: ١٠.
(٢) سورة البروج، الآية: ١١.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣.

المسلمين؛ فلنحذَرْ ولنحذِّر من هذا الصنيع.

ولاشكَّ أن أُمةَ الإسلام اليومَ تُمتحَنُ بتكالُبِ الأعداء عليها، وهي أمامَ تحدٍّ كبيرٍ تمارسه القُوى الكافرةُ ضدَّها، وهذه القوى حريصةٌ على إحداثِ الشِّقاق داخلَ الأمةِ المسلمةِ بين شعبٍ وشعب، بل داخلَ الشعب الواحدِ بين فئاتِه وأطيافِه ومؤسَّساتِه .. فهل يدركُ المسلمون هذا التحدِّي ويؤجِّلوا خلافاتِهم -ولو على الأقلَّ إلى حينٍ- ما دام العدوُّ المشترَكُ شاهرًا سلاحَه، إن تمزيقَ الأُمةِ المسلمة باللسانِ أو بالسِّنان لَمِن أعظمِ المخاطر التي يتحمَّلُ الغيورون المدرِكون للعواقبِ مسؤوليةَ دفعِها في ظلِّ هذا التوتُّرِ في المشاعرِ والعواطف.

ولا يَسُوغ بحالٍ أن نُخدعَ وننقلَ المعركةَ إلى داخل بلادِ المسلمين، فإنَّ ذلك يُسَرُّ له الأعداءُ، بل هو نجاحٌ نصنعُه لهم دون ثمن.

أيها المؤمنون: إنَّ التوظيفَ الصحيح للأحداثِ الواقعةِ اليومَ والمتوقَّعةِ غدًا يكون بعدَّة وسائلَ وبرامجَ وخططٍ مدروسةٍ، ومن ذلك:

١- إصلاحُ الذات، والنظرُ في العيوب، والتوبةُ من الذنوب، وإخلاصُ العمل وتجريدُ التوحيدِ لله ربِّ العالمين .. فكم غَفَلْنا وكم أسرفْنا على أنفُسِنا بالمعاصي، وهذه الأحداثُ والفتنُ النازلة مؤشراتٌ لأخطائِنا وذنوبِنا، وهي امتحانٌ لتوبتِنا ويَقَظتِنا، واللهُ تعالى في كتابِه الكريم يربطُ بين الذنوبِ والمصائبِ ويقول جلّ ذِكرُه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾(١).

وعن علي رضي الله عنه: «**ما نزل بلاءٌ إلا بذنْبٍ، ولا رُفعَ إلا بتوبةٍ**» فيا تُرى مَنْ منّا راجع نفسَه وتاب إلى ربه: «**وكلُّ ابنِ آدم خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائين التوَّابون**» أم أن

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأكثريةَ منا مشغولةٌ بغيرِها ومتناسيةٌ لنفسها؟ ومَنْ منَّا زاد في عبادتِه لربِّه والرسولُ ﷺ يقول: «**العبادةُ في الهَرْج** - يعني القتل والفِتَن - **كهِجْرة إليّ**»، ودَعُونا نطرحُ السؤالَ التالي وعليه يُقاسُ غيرُه على كلِّ واحدٍ منا: هل ما قرأتَ من كتابِ الله - في هذه الأيام - أكثرُ، أم ما قرأتَ من الصُّحف وتابعتَ من القَنَوات؟ وهل شكَوْنا إلى ربِّنا وتضرَّعْنا أم نسينا وقسَتْ قلوبُنا؟

وأنا هنا لا أَدعو إلى قلَّةِ الوعي . . ولكني أُشيرُ إلى خلَلٍ في التوازن بين الواجباتِ والمستحبَّات . . وإلى الاستجابةِ للعواطفِ أكثرَ من عملِ الصالحاتِ الباقيات - والتي بها تُدفَعُ الفتنُ وتُكشفَ النوازلُ والكُرُبات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

ومما يلفت النظرَ أنه برَغمِ التشويهِ الذي حصل للعربِ والمسلمين إلا أن الإسلام بات ينتشرُ في أوساطِ غير المسلمين، ونقرأُ ونسمعُ هذه الأيامَ أن الغربيين أقبلوا على نَسْخِ المصاحفِ يطالعون في القرآنِ ونَفِدَت -أو كادت- الكتبُ التي تتحدَّث عن الإسلام، ومن يدري فقد تكون هذه الأحداثُ بدايةَ انطلاقةٍ كبرى للإسلامِ والمسلمين، فهل يستثمرُ المسلمون ذلك لصالحِ إسلامِهم ودعوتِهم.

٢- السعيُ لإصلاحِ الآخرين وذلك بالدعوةِ إلى الله بكلِّ وسيلةٍ ممكنةٍ ومع كل طبقةٍ: الصغارِ والكبارِ، الرجالِ والنساءِ، الأغنياءِ والفقراء، المُثقَّفينَ والأُميِّين، داخلَ الحدودِ وخارجَها، وبالعربيةِ أو بغيرِها، وفي هذا الصددِ لا بدَّ من إشعارِ المسلمين جميعًا أن قضيةَ الإسلام مسؤوليةٌ مشترَكةٌ لا يُعفَى أحدٌ من

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

المساهمةِ في دفعِها ودَرْءِ المخاطر عن المسلمين إذا وقعتْ بهم نازلةٌ في أي مكان.

إننا نخطئُ حين نَحصُر الاهتمامَ بالدِّين والدعوةِ على فئةٍ معيَّنة نسمِّيها بـ(الملتزمين) فالأُمة كلُّها -وفي ظلِّ هذه الظروف- مطالبةٌ بنُصْرة الدين، وكلُّ مسلمٍ لا يخلُو من خيرٍ، والإيمانُ شُعَبٌ منها الظاهرُ ومنها الباطن، ورُبَّ ذي مَظهرٍ إيمانيٍّ وقلبُه خاوٍ أو غافلٍ، ورُبَّ ذي مَظْهرٍ لا يدلُّ على ما في قلبِه من خيرٍ، وما في عقلِه من حكمةٍ ورشد . . فهل نخسرُ هذه الطاقةَ، وهل يَسُوغُ لنا أن نحيِّدَ هذه الفئةَ عن الدعوة أو تُحيِّدَ هي نفسُها عن المشاركةِ في الدعوة بحُجَّة أن لديها تقصيرًا؟ لقد أعلنَها رسولُ الله ﷺ صريحةً عامةً حين قال: «**مَن رأى منكم مُنكَرًا فليغيِّرْه بيدِه، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبقلبِه**» وأعلَنها كذلك بالبلاغ عنه ولو بآيةٍ: «**بلِّغوا عنّي ولو آيةً**»، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2].



(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٥.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، يحكُمُ ما يشاءُ ويفعل ما يريدُ، لا رادَّ لفضلِه ولا يكشفُ السوءَ إلا هو، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه وخِيرتُه من خلقِه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: ويلزمُنا في ظلِّ هذه الأحداثِ والمتغيِّرات:

٣- أن نُحسِنَ الظنَّ بالله تعالى، وأنه لا يقع شيءٌ إلا بإذنِه وتقديره وقضائِه؛ وقضاؤُه خيرٌ، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾(١)، وألا نضخِّمَ دَوْرَ الأعداءِ ونُرجِفَ بأنفسِنا ومَن حولَنا، بل نتفاءَلُ، وقد مرَّتْ بالمسلمين في الماضي أزماتٌ وتكالُباتٌ للأعداء فما زادهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وفَرْقٌ كبيرٌ بين من قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾(٢) وبين من قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(٣)، وأولئك قيلَ لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾(٤).

أما المؤمنونَ الصادقون الذين قيلَ لهم: إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشَوْهم فزادَهم إيمانًا وقالوا: حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل .. فكانت عاقبتُهم ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآيتين: ١٦، ١٧.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

٤- إخوةَ الإيمان: ومع حُسنِ الظنِّ لابدَّ من العملِ ولابدَّ من تحقيقِ الإيمانِ في واقع الحياة، ومن لطائفِ القرآنِ - لمن تأملَ - أن الوعدَ بالنصرِ والعزةِ والنجاةِ لم تُعلَّقْ بمن اتَّصفَ بالإسلام فقط، بل خُصَّ ذلك بأهل الإيمان - والإيمانُ درجةٌ فوقَ الإسلام - وتَجِدُون مِصداقَ ذلك في مثلِ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[3] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5].

أيها المسلمون: إن أمةً تعيشُ حالةَ الحربِ الشاملةِ يجب أن تكونَ أبعدَ الناسِ عن اللهوِ واللعب.. وأنَّى لأمةٍ أن تواجهَ أعداءَها وهي بعدُ لم تنتصرْ على أنفُسِها ولم تتغلَّبْ على شهواتِها، هل يتحقَّقُ النصرُ لمن لا يأتون الصلاةَ إلا وهم كُسَالى، أو يَزعُمون أنهم يؤمنون بالكتابِ والسُّنة.. وإذا قيل لهم: تعالَوْا إلى ما أَنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ رأيتَ الصدودَ والإعراض؟

هل يتحققُ النصرُ لمن يَدَّعي الإسلامَ وهو يُضمِرُ العداوةَ للمسلمين أو يَسخَرُ بشيءٍ من أوامرِ الدين؟ وهل يتحققُ النصرُ لمن لا يهتمُّ بأمرِ المسلمين ولا يُقدِّمُ النُّصرةَ والمَشُورةَ والدعوةَ والدعاءَ للمسلمين؟ وباختصارٍ فإذا تأخَّر النصرُ؛ فلأنَّ الأُمةَ بعدُ لم تصلْ إلى مستوى النصرِ..

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٨.

(٤) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

٥- ومن توظيفِ الأحداثِ الواقعة تعميقُ الوعي في نفوسِ المسلمين وذلك بتحديدِ طبيعةِ المعركةِ وهويَّتِها، وطبيعةِ الأعداءِ وَمكْرِهم وأهدافهم والشعورِ بمُصابِ المسلمين ومآسيهم ومواساتِهم ونُصْرتهم، والموازنةِ بين المكاسبِ والخسائر، وتَجْليةِ حقيقة النصر ومفهومِ الهزيمة، إنَّ من الموازناتِ التي ينبغي أن لا تغيبَ عن المسلمين أنَّ مسلمًا يُقتَلُ بغير حقٍّ بل ظلمًا وعدوانًا - رجلًا كان أو امرأةً، طفلًا أو كبيرًا. شيءٌ عظيمٌ وخسارةٌ فادحةٌ في حقِّ المسلمين، كيف لا وحُرْمةُ المسلم عندَ الله أعظمُ من حُرمةِ الكعبة، ولكنَّ فردًا من المسلمين يُقتَلُ لتَحيا به أُمةٌ من الناس نصرٌ عظيم، ومكسبٌ للإسلام والمسلمين، وفي صحيح مسلم: أن الغلامَ المؤمنَ قُتِلَ باسمِ الله ربِّ الغلام فآمن الناسُ قائلين: آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام .. وإن خُدَّت لهم الأخاديدُ وأُحرِقوا[١].

وإن قطرةَ دمٍ تنزفُ من جريحٍ مسلم أمرٌ مزعجٌ لنا معشرَ المسلمين، وهي خسارةٌ ونقصٌ في مخزونِ الدماءِ المسلِمة.. ولكنْ سَرَيانُ دمِ العِزّة والكرامةِ والرحمةِ والنُّصرة في عروقِ آخرين من المسلمين وربما غيرَ المسلمين فذاك نصرٌ كبير، وتعويضٌ عظيم.

٦- عبادَ اللهِ والأحداثُ الواقعةُ فرصةٌ لتوحيدِ الصفِّ الإسلاميِّ العربيِّ والأعجميِّ، الأسودِ والأبيض .. ذلكم أنَّ الهجمةَ على الإسلام والمسلمين مستنكَرةٌ من قِبَلِ الجميع .. وإنِ اختلفوا في أساليبِ التعبير أو أسرَّ بعضُهم وجهرَ آخرون .. وهذا الاستنكارُ فرصةٌ لمزيدِ جمعِ الكلمة وتوحيدِ القُوى - وهي الأمرُ المهمُّ الذي يَغيبُ في واقعِ المسلمين- حيث الفُرْقةُ والخصومةُ

(١) مسلم/ كتاب الزهد.

والشَّتاتُ واختلافُ الأفهامِ والاهتماماتِ، وحين يُفلحُ المسلمون في توظيفِ هذه الأحداثِ للتقارُبِ والأُلفةِ وتحقيقِ الأخوَّة الإسلامية والتعاونِ على البرِّ والتقوى فذاك مكسبٌ عظيمٌ للأمة .. إنه ليس من حقِّ الإسلام ولا من حقِّ المعركة أن ينشغلَ المسلمون بعضُهم ببعضٍ باللسان ولا بالسِّنان، وأخطرُ من ذلك أن يتأوَّل أحدٌ في قتلِ أخيه المسلمِ بتأويلٍ أو غيرِه، وفي الحديث: «**إذا الْتقَى المسلمانِ بسَيفَيهِما فالقاتلُ والمقتولُ في النار**»، «**لا تَرجِعوا بعدي كفارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ**».

٧- إخوةَ الإيمان: أيها العلماءُ والدعاةُ والخيِّرون والعقلاءُ، إن عليكم كِفْلًا كبيرًا في تطمينِ الناس وتهدأتِهم في أزمانِ الفتنِ والشدائدِ وفَتْحِ مجالاتِ العمل النافعةِ لهم ولأمَّتِهم، ونقلِهم من العواطفِ والطيش غيرَ المثمرِ إلى سلوكياتٍ نافعةٍ في العبادةِ والدعوةِ والعلمِ والعمل والتخطيطِ والابتكارِ والتربيةِ وتحمُّلِ المسؤولية .. فهذه وتلك طريقُ أمَّتِنا للنهوض .. وهي التي قادتْ أسلافَنا إلى التفوُّقِ والتميُّزِ على الآخرين.

٨- عبادَ الله: ومع اهتمامِنا بكلِّ قضيةٍ للإسلامِ والمسلمين فلا ينبغي أن تُنسِينَا الأحداثُ الواقعةُ قضيتَنا الكبرى في فلسطين، لاسيما والصهاينةُ المعتدون حاولوا استثمارَ الأحداثِ لصالحهم فباتوا يقتلون ويخرِّبون ويُفسِدون .. وحين يكون حديثُ العالَم عن الإرهاب فينبغي أن يرتفعَ صوتُنا بإرهابِ اليهود والنصارى والوقوفِ مع إخوانِنا الفلسطينيين المظلومين، وحين تَذكُر إحدى المجلاتُ الأمريكيةُ أن (٥٨%) من الأمريكانِ يعتبرون تعاملَ أمريكا مع اليهودِ هو السبب فيما جرى لهم، فتلك فرصةٌ على المسلمين أن يستثمروها لصالحِهم لمزيدِ فَضْح اللُّوبي الصهيوني.



# الشدائد محن ومنح ومحاذير ومبشرات[١]

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يَهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلام: وفي أزْمانِ الشدائدِ والفتن تُمتحَنُ القلوبُ، وتُمتحَن الألسنُ وتُمتحَن العواطفُ والمشاعر، تتمايزُ الصفوفُ، ويَميزُ اللهُ الخبيثَ من الطيِّب، ويعلمُ اللهُ - وهو أعلم - الصادقينَ من الكاذبين، وأهلَ الإيمان وأهلَ النفاق، نعم تُمتحَن القلوبُ في الولاءِ والبَرَاء، وفي الخَشْيةِ والإنابة، والتوكُّلِ والاستعانةِ، والثقةِ واليأس، والألمِ والأمل، والحبِّ والبُغْض، والخوفِ والرجاء، وحسنِ الظنِّ أو سوئِه.. وتُمتحَن الألسنُ - في أزمان الفتن أكثرَ - على الصدقِ والكذب، والتثبُّتِ مما يُنقَل ويُقال، أو الإسراعِ بالقِيلِ والقال، ولو كان القولُ بظُلمٍ، ولو كان الحديثُ بهوى، ولو كان الناقلُ للحديثِ فاسقًا.. فكيف إذا كان كافرًا، والله يقول: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[٢].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/٨/١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.

تُمتحَن الألسنُ والأقلامُ في نُطْق الحقِّ والسكوتِ عن الباطل - وربما زلّ اللسانُ قال فُحشًا . . أو توارى عن كشفِ الباطلِ فكان شيطانًا ناطِقًا أو صامتًا، وربما كتب الغيورُ ناقدًا متأوِّلًا فزاد الجُرحَ عمقًا، وعكَّرَ صفوَ الاجتماع والأُلْفة، ويا ليتَ قومي يعلمون أنَّ ميدانَ المعركةِ مع عدوِّنا أرحبُ، ومجالاتِها لا تُحَدّ، وهم يُراهنون على إشعالِ الفتيل بين المسلمين، ومن نوادرِ الذهبيِّ رَحِمَهُ اللهُ قوله: «ربما آلَ الأمرُ بالبمعروف بصاحبِه إلى الغضبِ والحِدَّة، فيقعُ في الهِجْران المحرَّم، وربما أفضى إلى التكفيرِ والسعيِ في الدم»(١).

نعم إنَّ الخطأ واردٌ، ولا عِصمةَ لأحدٍ إلا للأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، ولكن لنترفَّقْ في النقدِ ولنُحسنِ الظنَّ بمن هم أهلٌ لذلك.

وفي أزمانِ الفتن كذلك تُمتحَن المشاعرُ والعواطفُ أكثرَ، فهذا باردُ الإحساسِ عديمُ المشاعر، وذاك تتوهَّجُ عاطفتُه وتَغْلي حتى تغلبَ عقلَه، وفئةٌ ثالثة لديها مشاعرُ وأحاسيسُ حيةٌ، لكنها توظِّفُها في خدمة الحقِّ دون تهوُّرٍ، وفي فضحِ الباطل دون تشنُّجٍ.

أيها المؤمنون: إن أيامَ الفتنِ شديدةٌ على النفوسِ لما فيها من الهَرْج والقتل، والخوفِ والقلق، واختلاطِ الحقّ بالباطل، ومن حقِّ المؤمن أن يتخَوَّفَ على نفسِه وعلى إخوانه من ملابساتِ الفتن، ولكنَّ الفتنَ والنوازل كذلك فيها تجديدٌ للإيمان، وفيها إحياءٌ لمعالمَ في الدين - من ولاءٍ وبراءٍ، وخَشيةٍ وتوكل، وصبرٍ ومصابرة، ونُصرةٍ أو مظاهرة. . ومن هنا تتحوَّلُ المِحنُ إلى مِنَحٍ ربانيةٍ لمن وفَّقهم اللهُ للحقِّ وهداهم للصراطِ المستقيم.

وفي أواخرِ القرنِ السابعِ للهجرة هجمَ التترُ على بلادِ المسلمين فكانت الفتنةُ

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤١، فقه الائتلاف ص٣٢٩.

وكان القتلُ، وكان الخوفُ والقلقُ.. ولكنَّ العلماءَ الصادقين المجاهدين اعتبروا هذه المحنةَ مِنحةً ربانيةً تستوجبُ الشكرَ لله عليها.

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيميّة رحمه الله مخاطبًا جمهورَ المسلمين: «واعلموا - أصلحكم الله - أن من أعظمِ النعمِ على من أراد اللهُ به خيرًا أن أحياه إلى هذا الوقتِ الذي يُجدِّدُ اللهُ فيه الدينَ، ويُحيي فيه شعارَ المسلمين، وأحوالَ المؤمنين والمجاهدين، حتى يكونَ شبيهًا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصارِ، فمَن قام في هذا الوقتِ بذلك كان من التابعين لهم بإحسانٍ، الذين رضي الله عنهم ورَضُوا عنه، وأعدَّ لهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ذلك الفوزُ العظيم، فينبغي للمؤمنين أن يشكروا اللهَ تعالى على هذه المحنةِ التي حقيقتُها مِنحةٌ كريمةٌ من الله، وهذه الفتنةِ التي في باطنها نعمةٌ جسيمةٌ..»[١].

وتحدَّث شيخُ الإسلام رحمه الله عن أصنافٍ من الناس في فتنةِ التتار وهجومِهم على العالم الإسلامي - حتى بلغوا الشامَ - فقال:

«فهذه الفتنةُ قد تفرَّقَ الناسُ فيها ثلاثَ فرقٍ: الطائفة المنصورة وهم المجاهدون لهؤلاءِ القومِ المُفسِدين، والطائفة المخالفة وهم هؤلاء القومُ (يعني التترَ) ومَن تحيّزَ إليهم من حُثالةِ المنتسبين إلى الإسلام، والطائفة المُخذِّلة وهم القاعدون عن جهادِهم، وإن كانوا صحيحي الإسلامِ، فلينظر الرجلُ أيكونُ من الطائفة المنصورة أم من الخاذلة أم من المخالفة، فما بقيَ قسمٌ رابع»[٢].

يا أخا الإيمان: وإذا وقعتِ الفتنُ وأنت حيٌّ فانظُرْ موقعَك فيها، وجرِّدْ نفسَك من الهوى ومن حبِّ الدنيا، وامتحِنْ خَشْيتَك وخوفَك أتكونُ لله وحدَه أم يدخلُ في ذلك الشركاءُ؟

(١) الفتاوى ٢٨/ ٤٢٠، ٤٢١.

(٢) الفتاوى ٢٨/٤١٦، ٤١٧.

إن من الناس من تمرُّ الفتنُ والنوازلُ بإخوانِه المسلمين ولا تحرِّكُ فيه ساكنًا، بل وكأنها لا تعنيهِ بشيء.. إنه باردُ الإحساس مُعطَّل القُوى، لا يُسخِطُه ما يُسخِطُ اللهَ، إن ذلك نوعٌ من الغفلةِ والإعراض عن الله كما قال أبو عبد الرحمن العمري: «إنَّ من غفلتِك وإعراضِك عن الله أن ترى ما يُسخِطُه فتجاوِزُه، ولا تأمرُ ولا تنهى خوفًا ممن لا يملِكُ ضُرًّا ولا نفعًا»(١).

وكم هي بليةٌ في الدِّين حين يرى المسلمُ مُنكَرًا ظاهرًا ولا يتمعَّرُ وجهُه لوقوعِه، بل يكون سلبيًا في التعاملِ معه، أو يرى معروفًا ثم لا يَفرَحُ به ولا يشاركُ في وجودِه ونشرِه.. وأولئك الصنفُ من الناسِ قال عنهم ابنُ القيم رحمه الله: «وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يَرَى محارمَ اللهِ تُنتهَكُ وحدودَه تُضيَّع، ودينُه يُترَك، وسُنةُ رسولِه ﷺ يُرغَبُ عنها، وهو باردُ القلبِ ساكتُ اللسن، شيطانٌ أخرسُ، كما أن المتكلمَ بالباطل شيطانٌ ناطق، وهل بليةُ الدينِ إلا من هؤلاءِ الذين إذا سَلِمَت لهم مآكلُهم ورياستُهم فلا مبالاةَ بما جَرَى على الدِّين، وخيارُهُم المتحزِّنُ المُتلمِّظ، ولو نُوزِعَ في بعضِ ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهِه أو مالِه لبذلَ وتبذَّلَ وجَدّ واجتهد، واستعمل مراتبَ الإنكارِ الثلاثةَ بحسب وُسْعِه، وهؤلاء مع سقوطِهم من عينِ الله ومَقْتِه لهم قد بُلُوا في الدنيا بأعظمِ بلِيّةٍ تكون وهم لا يشعرون، وهو موتُ القلب، فإنَّ القلبَ كلما كانت حياتُه أتمَّ كان غضبُه للهِ ورسولِه أقوى، وانتصارُه للدِّين أكملَ»(٢).

يا أخا الإسلام: ومن الإمام ابنِ القيِّم رحمه الله إلى الإمام محمدِ بن عبد الوهاب رحمه الله.. حيث يُجمِعُ هؤلاءِ على ضرورةِ الانتصارِ للدين وحمايةِ الحُرُماتِ والقيامِ بواجب الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكَر، ويقول الشيخ حمدُ بن عتيق رحمه الله:

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٨١.

(٢) أعلام الموقعين ٢/ ١٧٦.

فَلو قُدِّر أن رجلًا يصومُ النهارَ ويقومُ الليلَ ويزهدُ في الدنيا كلِّها، وهو مع ذلك لا يغضبُ ولا يتمعَّرُ وجهُه ولا يحمرُّ لله، فلا يأمرُ بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ، فهذا الرجلُ من أبغضِ الناسِ عند اللهِ وأقلِّهم دِينًا.. إلى قوله: وقد حدَّثني من لا أتَّهِمُ عن الشيخ محمدِ بنِ عبدِ الوهاب - رحمه الله تعالى - أنه قال مرةً: أرى أُناسًا يجلسون في المسجدِ على مصاحفِهم يقرؤون ويَبكُون، فإذا رأوا المعروفَ لم يأمُروا به، وإذا رأوا المنكرَ لم يَنهَوْا عنه، وأرى أناسًا يَعكُفون عندهم يقولون: هؤلاء لِحى غوانمُ، وأنا أقول: إنهم لِحى فواين، فقال السامع: أنا لا أقدرُ أقول: إنهم لِحى فواينُ، فقال الشيخ: إنهم من العُمْي البكْم[1].

معاشرَ المسلمين: إنها خيريّةُ هذه الأُمةِ في قائمةِ شروطِها الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَر.. والغضبُ لله والانتصارُ لدينهِ.. تُرى أتكفي العُزلةُ والتعبُّدُ بعيدًا عن المجاهدةِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر؟ إليكم هديَ واحدٍ من صحابةِ رسول الله ﷺ لقومٍ اعتزلوا يتعبَّدون، فقد أخرج البغويُّ في (شرح السُّنة ١٠/ ٥٤، ٥٥) عن الشَّعْبي قال: «خرج ناسٌ من أهلِ الكوفة إلى الجَبَّانةِ[2] يتعبَّدون، واتَّخَذُوا مسجدًا وبنَوْا بنيانًا، فأتاهم عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ فقالوا: مرحبًا بكَ يا أبا عبد الرحمن، لقد سرَّنا أن تزورَنا، قال: ما أتيتُكم زائرًا، ولستُ بالذي أَتركُ حتى يُهدَمَ مسجدُ الجَبَّان، إنكم لأهدى من أصحابِ رسول الله ﷺ؟! أرأيتُم لو أن الناسَ صنعوا كما صنعتُم، مَن كان يُجاهدُ العدوَّ، ومَن كان يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكرِ، ومن كان يُقيم الحدودَ؟ ارجِعُوا فتعلَّموا ممَّن هو

(١) الدرر السنية ٨/ ٧٨.

(٢) الجبّانة: الصحراء.

أعلمُ منكم، وعلِّموا من أنتم أعلمُ منهم، قال: واسترجَعَ، فما بَرِحَ حتى قَلَعَ أبنيتَهم وردَّهم».

أعوذ بالله من الشيطانِ الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1].



(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

## الخطبة الثانية:

إخوةَ الإسلام: وحين نُورِدُ هذه النصوصَ وتلك الرُّؤَى لعلماءَ ربانيين.. لَنؤكِّدُ من خلالِها على قيمةِ الأمر بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر والدعوةِ لدين الله.. وإذا كان ذلك مطلَبًا في كلِّ الأحوال والظروف فالأمرُ يتأكَّدُ في أزمانِ الفتن، وعلى حينِ غفلةِ الناس وانشغالِهم عن الأمرِ والنهي والدعوةِ وبذْلِ الخير.

ونؤكِّد ذلك كذلك لأن أزمانَ الشدائدِ والنوازِل فرصةٌ لأصحاب الرِّيبِ وأهلِ الأهواء، وأصحابِ الشهوات.. لينطلقوا بباطِلِهم وخُبْثِهم مُستغلِّين غفلةَ الناسِ عنهم بأحداثٍ نازلةٍ بهم، ومن هنا فلا بدَّ من التنبهِ والعمل والدعوةِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاصرةِ المُبْطِلين.. وكلُّ مسلم على قَدْرِ طاقتهِ وجهدِه، ويكفيه أن يستشعرَ أنه على ثغرةٍ من ثغراتِ الإسلام، فاللهَ اللهَ أن يُؤتَى الإسلامُ من قِبَلِه، وليحذرْ أن يتسللَ الأعداءُ من ثغرِه.

عبادَ الله: ومَن قرأَ التاريخَ بعنايةٍ وتمعَّن بالذاتِ في السيرةِ النبوية وجدَ أن المنافقين وأهلَ الريب يتربَّصون بالمسلمين الدوائرَ في كلِّ حين، ولكنهم يَنشَطُون أكثرَ في الأوقاتِ العصيبةِ على المسلمين، يُرجِفون ويتَّهمون، ويَسخَرُون ويتشَفَّوْن.. ومواقفُهم في غزوة (أُحدٍ) و(الأحزاب) و(المُريسِيع) و(تبوكَ) خيرُ شاهدٍ على ما نقول.

أجل، لقد فَضَحهم القرآنُ في (أُحد) بقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

وكشفَهم في (الأحزاب) بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(١)، وبقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾(٢).

وفي غزوة المُريسِيع و(بني المُصطلِق) أخبر اللهُ عن لُؤْمِ المنافقين وسوءِ تعاملِهم مع النبيِّ ﷺ والمؤمنين بقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

أما في غزوةِ تبوكَ فجاءتْ سورةُ براءةَ (التوبة) فاضحةً للمنافقين؛ ومما قال اللهُ عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٤).

إنَّ القرآنَ الكريمَ يُذكِّرُنا بمواقفِ المنافقين في الماضي لنَحذرَهُم في الحاضرِ والمستقبل، ومن الخطأ أنْ ينصرفَ الناسُ كلُّهم لحدثٍ طارئٍ ويتركوا الساحةَ للمُبْطِلين وأهلِ الريبِ يتقوَّلون بألسنتهم ويسخرون بكتاباتِهم، ويُشِيعون المنكرَ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

(٣) سورة المنافقون، الآيتان: ٧، ٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٩-٥١.

بسلوكياتهم، ويُرتِّبون لباطِلهم في حين غفلةِ الناسِ عنهم. . إن الأمرَ من الأهميةِ والخطورةِ بحيثُ يستدعي اهتمامَنا جميعًا بهؤلاء المتسلِّلين، وذلك على مستوى الفردِ والدولةِ حتى لا نفاجَأ بعدَ حين بعملٍ مُشين لأصحاب السوءِ أُحكِمَتْ خيوطُه على حينِ غفلةٍ؟

أيها المسلمون: ومع التحوُّط والحذرِ في كلِّ ما يهدِمُ المعتقدَ أو يُخِلُّ بالأمن -وتلك مسؤوليتُنا جميعًا- فَثَمَّةَ مبشِّراتٌ في أزمانِ الشدائد تؤكِّدُ قولَه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(١).

فكم من شابٍّ غافلٍ سادرٍ في لهوِه لكنه استيقظَ على مطارقِ الأعداءِ يتَّهمون الإسلامَ ويُهدِّدون المسلمين، فتحرَّكتْ عاطفتُه وأقبلَ إلى ربِّه تائبًا مُنيبًا واضعًا لنفسِه رقمًا صحيحًا في أعدادِ المسلمين.

وكم من فتاةٍ كانت تركُضُ وراءَ الموضةِ وتغرَقُ في تقليدِ المرأة الأجنبيةِ الكافرة فجاءتِ الأزمةُ موقِظةً لضميرِها، محرِّكةً لأصالتِها، باحثةً عن هويتِها المسلمةِ، مدرِكةً لخطإِ مسيرتِها ومعاهدةً ربَّها على بُغضِ الكافراتِ وحبِّ المؤمنات، فعاد الحياءُ خُلُقَها، والحجابُ عزَّتَها وفخرَها.

وكم من غنيٍّ أوجعتْهُ صيحاتُ الجَوْعى من المسلمين تملأُ الآفاقَ، وآلَمَهُ الموتُ الجماعيُّ للأطفالِ والشيوخ والنساءِ مرضًا أو جوعًا أو قتلًا فأنفق من مالِه لهؤلاءِ وأولئك بسخاءٍ.

أيها المسلمون: وحين تَنشَطُ الكنيسةُ الغربيةُ في هذه الأزمةِ، ويسافر البابا - رغمَ المخاطر - بحثًا عن نصيبِه في الغنيمة. . يأبى اللهُ إلا أن يُتِمَّ نورَه ويُظهِرَ دينَه الحقَّ - ولو في حين ضعفِ المسلمين - فتنفَدُ المصاحفُ في عددٍ من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الدُّولِ الغربية، ويُقبِلُ الغربيون بشكلٍ عجيب على الكتبِ الإسلامية والتعرُّفِ من خلالِها على الإسلام.. وفي إحدى الصحفِ المحليةِ جاء العنوانُ التالي: رُبَّ ضارَّةٍ نافعة [نفادُ المطبوعاتِ التعريفيةِ بالإسلام في أمريكا] وتحت الخبرِ وردَ: إنَّ جميعَ المطبوعاتِ والنَّشَراتِ التعريفيةِ الخاصةِ بالمفاهيم الأساسية للدِّينِ الإسلاميِّ قد نَفِدَت كلُّها، وقد بعثَ المُشرِفُ على مكتبِ النَّدوةِ العالميةِ للشبابِ الإسلاميِّ في الولايات المتحدةِ مُفيدًا أن الحاجةَ ماسَّةٌ لإعادة طباعةِ أكثرَ من ستِّمائة ألفِ نشرةٍ تعريفيّةٍ عن الإسلام في الوقتِ الراهن، وتطلبُ الندوةُ المشاركةُ في دعمِ هذا المشروعِ الدَّعويِّ[1].

ولعلَّ ذلك يقودُ أعدادًا كثيرةً للإسلام: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].



(١) الرياض، الجمعة ١٠/٨/١٤٢٢هـ.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

# المسلمون بين فكّي الكمّاشة[1]

## الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين شرَّفنَا بالإسلامِ وهَدَانا بالقرآن، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له جعلَنا خيرَ الأمم، وجعلَ كتابَنا مصدِّقًا للكتبِ السماوية السابقةِ ومُهَيمِنًا عليها، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه خاتَمُ المرسلين وأفضلُهم، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسَلين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3].

إخوةَ الإسلام: المتأمِّلُ في كتابِ الله يجِدُ فيه شعورًا كاذبًا عند اليهودِ والنصارى بالتميُّزِ على غيرِهم، وفضلًا مزيَّفًا لا يتَّسعُ لغيرِهم من الشعوب والأمم، وقد كذَّب اللهُ هذه الدعاوَى كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[4].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٤/٨/١٤٢٢هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٨.

وإذا وَقَعَ هذا الشعورُ الخاطئُ في زمنِ النبوة، وتطاوَلَ اليهودُ على محمدٍ ﷺ حينما كلَّمَ نفرًا من اليهود ودعاهم إلى اللهِ ﷻ وحذَّرهم نقمتَه، فقالوا: ما تُخوِّفنا يا محمدُ؟ نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤُه!

فكذلك النصارى نَكَصُوا عن الحقّ واستكبروا عن إتِّباعِ المرسلين وإن أيقنوا بصِدْقِ محمدٍ ﷺ، ومعرفتِهم بمبعثِه، بل قال هِرقلُ -عظيمُ الروم-: وقد كنتُ أعلمُ أنه -يعني النبيَّ ﷺ- خارجٌ، لم أكن أظنُّ أنه منكم، فلو أني أعلمُ أني أَخلُصُ إليه لتجشَّمتُ لقاءَه، ولو كنتُ عنده لغَسَلْتُ عن قدمِه .. بل قال هرقلُ -وقد جمع الرومَ في دَسْكَرَةٍ له بحمصَ-: يا معشرَ الروم: هل لكم في الفلاحِ والرُّشدِ وأن يَثْبُتَ مُلْكُكُم؟ فتبايعوا هذا النبيَّ[١].

ومع ذلك استكبرَ الخبيثُ وضنَّ بمُلكِه، وقاتلَ المسلمين في معركةِ مُؤْتة[٢].

أيها المسلمون: إذا وقعَ هذا الشعورُ الخاطئُ والاستكبارُ عن الحقِّ من اليهود والنصارى في زمنِ البعثةِ؛ والرسولُ ﷺ هو الداعي، والمسلمون حينها أعزّةٌ - فمِن بابِ أَوْلى أن تتكررَ هذه المشاعرُ في زمنِ ضعفِ المسلمين وبُعدِهم عن زمنِ النبوة، وتكاثُرِ اليهود والنصارى وغلبتِهم.

بل نجدُ في تقاريرِ اليهود اليومَ أكبرَ من هذا، ويقولون في أحدِ هذه التقارير: «حينما نمكِّنُ لأنفسِنا فنكون سادةَ الأرض لن نُبيحَ قيامَ أيِّ دينٍ غيرِ دينِنا ..»[٣].

وجاء في تلمودِهم: «إن الإسرائيليَّ معتبَرٌ عندَ الله أكثرَ من الملائكة، فإذا ضرب أُمِّيٌّ إسرائيليًا فكأنه ضربَ العزّةَ الإلهية، وإن اليهوديَّ جزءٌ من الله، كما

---

(١) صحيح البخاري، بدء الوحي، الفتح ١/ ٣٢، ٣٣.

(٢) الفتح ١/ ٣٧.

(٣) العنصرية اليهودية؛ الزغيبي ١/ ١٣٠.

أن الابنَ جزءٌ من أبيه»[١]. تعالى اللهُ عما يقولُ الظالمون علوًا كبيرًا».

وهذا كلُّه لا يعني إغفالَ دعوتِهم لكنه بيانٌ لحقيقةٍ كامنةٍ عندهم، وتوجيهٌ لأسلوبِ التعامل معهم.

أيها المؤمنون: إن القرآن مَورِدٌ لا يَنضَب، وقد كشفَ اللهُ للمؤمنين بالوحي خصائصَ وطبائعَ الأجدادِ ليُعلِّمَ المسلمين كيف يتعاملون مع الأحفادِ من اليهود، وهنا يمكنُ القولُ بأنَّ القرآنَ خاطبَ يهودَ البعثةِ بجرائمِ آبائِهم وأجدادِهم، وعَرَضَ لممارساتِهم مع النبوةِ، ونكولِهم عن العهدِ، وتحريفِهم للكَلِم، وكَنزِهم للذهبِ والفضة، وإشاعتِهم للربا، والإيمانِ ببعضِ الكتاب والكفرِ ببعضِه، وادِّعائِهم بأنهم أبناءُ اللهِ وأحبّاؤُه -إلى آخر صفاتِهم- مع أنَّ المسؤوليةَ في الإسلامِ فرديةٌ، فلا يُحمَّلُ الأبناءُ تَبِعَةَ وأوزارَ الآباء ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢] ولكنَّ الحكمَ -والله أعلم- في إيراد هذه النماذجِ والانحرافاتِ السابقةِ لليهود . . للتأكيدِ على أنَّ هذه الصفاتِ والخصائصَ متأصِّلةٌ ومتوارثةٌ من الآباءِ إلى الأبناء، إلى درجةٍ أصبحتْ وكأنها جِبلَّةٌ لا ينفكُّ عنها يهودُ، وستَصدقُ على الأحفادِ كما مارسها الأجدادُ، بل سوف تستمرُّ وتبقى هذه الخصائصُ منحدرةً في نسلِ اليهود، خالدةً مع الزمن، متجدِّدةً عبرَ الأحداثِ والصراعات . . ما بقي اليهودُ. ونحن اليومَ نشهدُ على استمرارِ هذه الخصائصِ عند يهودَ[٣].

عبادَ الله: وإذا كان أهلُ القرآنِ لا يشكُّون في عداوةِ اليهودِ والنصارى

---

(١) السابق ١/١٣٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٨.

(٣) اليهود والتحالف مع الأقوياء/ نعمان السامرائي ص١٧.

للمسلمين، والله يقولُ في مُحكَم التنزيل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

فينبغي أن لا نشكَّ في تقارُبِ الديانتينِ والجنسينِ - رَغْمَ ما بينَهم من خلافٍ - وتعاونِهما في ضربِ المسلمين.

وتقولُ الدراساتُ والبحوثُ: إن اليهود ساهموا في صياغةِ عقائدِ النصارى عبرَ القرون، وإنَّ عددًا من قادةِ النصارى يَرجِعون إلى أصولٍ يهودية، أو أصدقاءُ لليهود، من أمثالِ (كالفين) و(مارتن لوثر) وهما من زعماءِ حركاتِ الإصلاحِ الدِّيني في أوروبا - كما يزعمون -[2].

بل يقال: إذا كان ستون بالمائةِ من الأمريكيين ٦٠% هم بروتستانت فإن خمسةَ عشرَ بالمائة -تقريبًا- من قُسُسِ البروتستانت الذين يُمارِسون الوعظَ يومَ الأحدِ في الكنائسِ النصرانية من اليهود! وأن البروتستانت يستعملون في صلواتِهم التوراةَ (العهد القديم) وأنهم -يعني النصارى- يؤمِنون بفكرةِ أرضِ الميعاد، وإعادةِ بناءِ الهيكل والوعدِ الإلهي لإسرائيل[3].

أيها المسلمون: ونحنُ على أرض الواقع اليومَ نشهدُ التحالفَ والتآزُرَ بينَ اليهودِ والنصارى . . بل نشهدُ ما هو أسوأُ من ذلك في حصارِ المسلمين من قِبَلِ اليهودِ والنصارى . . ففي الأراضي المقدَّسةِ وعلى مَرْأى العالمِ كلِّه يُمارس اليهودُ الصَّلف والانتقامَ بأبشع صُوَرِهِ، مستغلِّين الأوضاعَ العالمية الراهنةَ، وتَدخُل الجرافاتُ المدنَ الفلسطينية لتهدمَ البيوتَ على مَن فيها مِن النساءِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٢) اليهود والتحالف مع الأقوياء، د. السامرائي/ المقدمة ص١٩، ٢٠.

(٣) اليهود والتحالف مع الأقوياء/ ١٩، ٢٠.

والصِّبْية .. وتُصوِّبُ الأعيرةُ الناريةُ إلى صدورِ الرجالِ والشباب .. وفي كل يومٍ مذبحةٌ، وهناك يشاعُ الرعبُ عبرَ الطائراتِ والقنابلِ والمدفعيات، ولا تسألْ عن الإفسادِ في المقدَّسات وممارسةِ الحفرياتِ لبناء الهيكلِ المزعومِ.

وعلى أرضِ أفغانستانَ يتنادى النصارى من كلِّ صَوْبٍ إلى هذا البلدِ الفقيرِ والشعبِ المسكين .. وعلى مدى ما يزيدُ على شهرٍ والطائراتُ تقصفُ تُشِيعُ الرعبَ وتقتلُ الآمنين، وتتقصَّدُ البُنَى لتجعلَها أنقاضًا حتى لا يُستفادَ منها مستقبلًا .. بل تجاوزتْ إلى المساجدِ المعمورة بالمصلِّين فهدَّمتْها وربما قتلتْ مَن فيها من المصلِّين - وإلى المساكنِ الآمنةِ حيث لم تَسلَم من قصفِ المجرمين .. وفي كل مرةٍ يقعُ مثلُ هذه الاعتداءاتِ الصارخة يُعتذَرُ بالخطأ، وعدمِ تحديد الهدفِ بدقَّةٍ أو تُضرَبُ الفنادقُ بحجةِ أن فيها مُحتمِين .. وهدفُ التدمير واضحٌ والظلمُ وإفسادُ الحرثِ والنسلِ قديمٌ يتجدَّد؟

تُرى أيهنَأُ للمسلمين عيشٌ وإخوانُهم المسلمون يتساقطون ضحايا بينَ فكَّيْ كمّاشةِ اليهودِ والنصارى؟!

أيُّ قلبٍ يعتصرُه الأسى؟ وأيُّ عينٍ تبخلُ بالبكاء، وأيُّ يدٍ تَتردَّدُ في البذلِ والعطاء؟ أيُّ مشاعرَ لا تتحرَّكُ وسطَ بِرَكِ الدماء، وعلى أشْلاءِ القتلى والجرحى؟! والعالَمُ كلُّه يشهدُ أنّ البيِّنَةَ غائبةٌ والتهمةَ كافيةٌ!

يا أبناءَ فلسطينَ وشعبَ الأفغان في سبيلِ أن تحيا المشاعرُ الإسلاميةُ لأمةِ المِلْيار!!

ولتستمرَّ قنابلُ الغربِ التي بلغ وزنُ الواحدةِ منها مؤخَّرًا رقمًا خياليًا وهذه القنبلةُ (٨٢) تستخدمُ اليومَ في حربِ أفغانستان، وقد اعترضتْ جماعةُ حقوقِ الإنسان على استخدامها، فالاتفاقياتُ الدوليةُ تَحظُر استخدامَها في المناطقِ

المأهولةِ بالسكان[١]، ومن المضحِكِ المُبْكي أن إحدى شعاراتِ هذه الحربِ في أفغانستان (العدالةُ)! ولكن مَن يضعُ هذه القوانينَ ومن يحميها؟ ومَن له حقُّ الاعتراضِ أو المناقشةِ فيها.

تتفجر في أرضِ الأفغان ليتفجَّر معها كُرْهُ الشعوبِ المسلمة لرائدةِ السلامِ المزعوم، وينكشفَ القناعُ والخداع عن المصطلحاتِ الكاذبة من الحريةِ والعدل وحقوقِ الإنسان، ويعودَ المسلمون إلى هَدْيِ القرآن في معرفةِ الأصدقاء من الأعداء.

إن من الخطأ أن يعتقد مسلمٌ أو غيرُ مسلمٍ أن جذورَ الإسلام تُجتَثُّ بهذه الممارساتِ البَشِعة .. بل إن هذا العدوانَ من اليهودِ والنصارى على المسلمين يُمثِّلُ أرضيةً تُنبِتُ العزةَ والكرامةَ للمسلمين، تُوقِظُ النائمين وتنبِّه الغافلين وتردُّ الشاردين، وتُحسِّس المسلمين أجمعَ بقيمةِ إسلامهم الذي أضحى خطرًا يهدِّد الآخرين، ويتحالفون من أجلِه لضربِ المسلمين، وصدقَ الله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[٣].

❁ ❁ ❁

(١) جريدة الوطن ٢٤/٨.

(٢) سورة الصف، الآية: ٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين يجعلُ بعدَ العُسرِ يسرًا، وبعدَ الكَرْبِ والشِّدةِ فَرَجًا ونصرًا، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[1]، وحكمَ بأن جندَه هم الغالبون، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه جاهدَ في الله حقَّ جهادِه حتى أتاه اليقينُ . . بعد أن رسمَ الطريقَ للسالكين . . اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ النبيين والمرسَلين.

إخوةَ الإسلام: وفي هذه الأيامِ يترقَّبُ المسلمون شهرَ الصيامِ وهم بينَ الألمِ والأمل . . لكنهم بكلِّ حالٍ فَرِحون إذ يحلُّ شهرُ رمضانَ ضيفًا عزيزًا، ومَرْتعًا خِصْبًا لعملِ الصالحات.

إنَّ شهرَ رمضانَ شهرُ القرآن ففيه أُنزِلَ . . وفيه كان جبريلُ عليه السلام يُدارِسُ محمدًا عليه الصلاةُ والسلامُ القرآنَ. ورمضانُ فرصةٌ لمدارسةِ القرآنِ ومعرفةِ أحكامِه والاهتداءِ بهَدْيِه . . وكم في القرآنِ من هدايةٍ ودليلٍ طالما غابتْ عن المسلمين! وكم في القرآنِ من أحكامٍ ومفاهيمَ طالما هُجِرَت من نفرٍ من المسلمين!

إنَّ في القرآنِ هدًى وشفاءً، فهل نهتدي ونتداوَى بالقرآن؟ ألا ويحَ من اتخذَ هذا القرآنَ مهجورًا؛ وهجرُ القرآنِ سواء كان بهجرِ تلاوتِه أم بهجرِ العمل به.

ويَفرَحُ المسلمون بشهرِ الصيام، لأن الصائمين يتزوَّدونَ بالصبرِ والتقوى، وهذانِ من أعظمِ الأسلحةِ الواقيةِ من الأعداء ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[2].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

ويفرحُ المسلمون بشهرِ رمضان حيثُ للدعاءِ فيه سهمٌ ومكانةٌ لا تخفى، كيف لا وآيةُ الدعاءِ في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]. جاءتْ على إثرِ آياتِ الصيام وشهرِ رمضانَ.

وإذا كان بعضُ المسلمينَ يجهلُ قيمةَ الدعاء، أو لا يقدِّرُ الدعاءَ حقَّ قدرِه.. فَثمَّة طوائفُ من أعداءِ هذا الدِّينِ -قديمًا وحديثًا- يُخِيفُهم الدعاءُ، ويتحاشَوْنَ دعاءَ المسلمين.. فهل يستثمرُ المسلمون شهرَ الصيام للدعاءِ لهم ولإخوانِهم المسلمين وعلى أعدائِهم من اليهودِ والنصارى والمشركين والمنافقين؟

هل يُلِحُّ الصائمُ على ربِّه في إصلاح قلبِه وفي حفظِ دينِه وأمانتِه في وقتٍ باتَتِ الفتنُ تَتْرَى على المسلمين، وبات التحدي العَقَدي يمثِّلُ منعطفًا واضحًا في حياة الأمم والشعوب، نعم إنَّ أحداثَ اليوم تقولُ للمسلم بلسانِ حالها ومقالِها: إن اليهوديَّ يتحمَّسُ لديانتِه، ويناضلُ من أجلِها، بل ويقتلُ ظلمًا وعدوانًا من يخالفُه عليها، وإن النصرانيَّ والبُوذيَّ وأضرابَهم كذلك، فأين يكون موقعُ المسلمِ صاحبُ الدِّينِ الحقِّ، وصاحبُ القِسْطاسِ المستقيم؟

أيظلُّ المسلمون في لَهْوِهم وغفلتِهم سادرون، والأعداءُ يَنهَشُون في أطرافِهم، وكلما أجهزوا على فئةٍ اتجهوا للأخرى.. وهكذا؟

إنَّ أخشى ما يخشاه أعداؤنا أن تحيا فينا مشاعرُ الإسلام الصادقةِ والمنضبطةِ والمُلْجَمة بلجامِ الشرع.. والمنبثقةِ من هَدْيِ القرآن وتعاليمِ محمدٍ ﷺ.

ولذا تردَّدَ الحديثُ عن إيقافِ الحَمَلاتِ العسكريةِ في شهر رمضان أَترونَ ذلك احترامًا لمشاعرِ المسلمين وتقديرًا لقُدْسيةِ شهرِ رمضان؟ فأين تقديرُ الحُرْمةِ للدماءِ المسلمة، وأين المشاعرُ النبيلةُ وأطفالُ المسلمين يموتون جوعًا أو قَصْفًا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

بحصارِهم وسلاحِهم .. إنها تحوُّط وتخوُّفٌ لأنْ ينفجرَ البركانُ ويتحرَّكَ الإعصارُ .. لا سيما ومخزونُ الأمةِ المسلمة من الأسى والحسرة والكُرْه للمجرمين قد بلغ الزُّبَى .. واستفزازاتُ اليهودِ والنصارى للمسلمين في كلِّ مكان لا مَزِيدَ عليها.

إن المسلمين حين يَرصُّون صفوفَهم ويوحِّدون كلمتَهم وينصرونَ إخوانَهم ينكشفُ عَوَرُ أعدائهم أكثرَ .. لا سيما وقد بدأ العَوَرُ يُكشَف وبدأتِ الصحفُ الغربية - غيرُ المسلمة - تُبرِزُ في عناوينها ما يكشفُ عن فشلِ الحملةِ العسكرية.. وخطأ القادةِ في خوض المعركة وبدؤوا يلومون غيرَهم ممن زوَّدهم بمعلوماتٍ مغلوطةٍ عن الأفغان كما يقولون.

إن الغربَ يخسرُ بهذه المعركة غيرِ المتكافئة؛ يخسرُ سياسيًا واقتصاديًا - ويقال: إن تكلِفةَ الحربِ يوميًا خمسُمائة مليونِ دولار، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[(١)]، ويخسرون اجتماعيًا وإعلاميًا، ونقرأُ في الأخبارِ أن الرأيَ العامَّ الغربيَّ بدأ يتململُ من الحرب ويصفُها بأنها لم تَعُدْ حربًا على الإرهابِ قدَرَ ما هي حربٌ على الأفغان، ويصفون هذه المغالطةَ بالظلم المُجحِف[(٢)].

وبدأَ الإعلامُ الغربيُّ يتخبَّطُ في التُّهمِ، فمرةً يشنُّ حربًا على كلِّ جمعيةٍ خيريَّةٍ - حتى ولو كانت إغاثيةً - ومرةً يشنِّعُ على الدولِ الإسلاميةِ، ثم يعودُ القادةُ يعتذرون .. وهكذا يَسُود التخبُّطُ والتناقضُ.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

(٢) جريدة الوطن، الجمعة ٢٤/ ٨/ ١٤٢٢هـ.

وتلك الخسائرُ كلُّها مؤشّراتٌ للهزيمةِ، وفاضحاتٌ للرمزِ الوهميِّ، والعملاقِ المصطنع!

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2].



(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٨.

# مشاريع رمضانية[1]

## الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ تفضّلَ على عبادِه بمواسمِ الطاعةِ ليتميزَ أُولو العزمِ والهمةِ.. ولينكشفَ على الحقيقة أصحابُ التراخي والمهانة، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، أثنى على نفسِه خيرًا، وثنَّى بالتحيةِ على عبادِه الذين اصطفى، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[2]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خيرُ البريةِ وأزكاها، صلى اللهُ عليه وعلى إخوانِه وآله، ورضيَ اللهُ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ ومَن تَبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

معاشرَ المسلمينَ: بُشراكم جميعًا بشهرِ الصيامِ، أهلَّهُ اللهُ علينا بالأمنِ والإيمانِ والسلامةِ والإسلامِ، وجعله اللهُ علينا وعلى المسلمينَ شهرَ بركةٍ وخيرٍ ومغفرةٍ للذنوبِ ورفعةٍ للدرجاتِ.

عبادَ الله: يحقُّ لنا أن نفرحَ بهذا الضيفِ العزيزِ بعدَ طولِ عناءٍ، وبعدَ رحلةٍ شاقةٍ في دروبِ الحياةِ الدنيا، تُملأُ بالصدودِ والإعراضِ، والإسرافِ في الذنوبِ، والظلمِ للنفسِ أو للآخرينَ، يشهدُ الكونُ فيها على الجِراحِ النازفة، والبلايا والخطوبِ النازلة، والفتنِ والملاحمِ المتتابعةِ، والضعفِ والفُرقةِ والتخاذُلِ بين المسلمينَ -إلا من رحمَ ربُّكَ وقليلٌ ما همْ- كيفَ لا نفرحُ فيكَ يا شهرَ الصيامِ ونفرٌ من المسلمينَ لا يُحِسُّون بآلامِ الجوعِ إلا حينَ يصومونَ!! ومِنْ إخوانهمْ مَنْ يتضوَّرونَ جوعًا وهمْ مفطرونَ!!

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١/ ٩/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٩.

وكيف لا نفرحُ فيك يا شهرَ رمضانَ ونفرٌ من المسلمين تكادُ صِلتُهم بالقرآنِ مقطوعةً إلا في شهرِ رمضان!!

أجل لقد جَفّت مَآقِينا عن البكاء، فهل نجدُ فيك يا شهرَ الصيامِ باعثًا للبكاءِ من خَشْية الله؟

وطال سُباتُ نومِنا! فهل يكون شهرُ الصيام مُوقِظًا لقلوبِنا بالقيام، واختلط اللغوُ وكادت أصواتُ الخَنَا والغِناء أن تُصِمَّ الآذان، فهل تكونُ يا شهرَ الصيام سببًا لسلامةِ أسماعِنا؟ وتفنَّنَ الأعداءُ وأصحابُ الأهواء في إخراج الصُّورِ الفاضحةِ ليصدُّوا الناسَ ويَفتِنوهم - فهل يكون شهرُ رمضان سببًا في حفظِ أبصارِنا ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

معاشرَ الصائمين: إننا قبلَ الصيام وبعدَ الصيام مدعوُّون لأمرٍ عظيم هو غايةُ الصيام وحِكمتُه -وهو وصيةُ الله وكلمتُه- وسوقُه تَرُوج في الصيام أكثرَ من غيرِه، كيف لا وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

إن التقوى وصيةُ الله للأوَّلين والآخِرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[3].

وهي وصيتُه سبحانه لمحمدٍ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٣١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١.

تَقْوى الله وصيتُه سبحانه للمؤمنينَ خاصةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[1].

وهي وصيتُه للناس كافةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2].

وبالتقوى أَوصى محمدٌ ﷺ على الدوامِ حيثما كان الزمانُ والمكانُ: «**اتقِ اللهَ حيثُما كنتَ**».

إنَّ تقوى اللهِ نورٌ في القلوب تظهرُ آثارُه على الجوارح.. إنها سببٌ للفلاح والنجاح ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، ومنبعٌ للصلاح والإصلاح ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[4]، التقوى عِمادٌ للمؤمن في الدنيا وأَنيسُه في القبر، ودليلُه إلى جناتٍ ونَهَر.

تقوى الله حِصنٌ حَصِين في الأزمات، وذخيرةٌ عند الشدائدِ والمُلِمّات، وتثبِّتُ الأقدامَ في المزالق، وتربطُ القلوبَ في الفتن.. إنها أعظمُ كنزٍ يملكُه ويحملُه الإنسانُ في الدنيا، وأعظمُ زادٍ يَرِدُ به على اللهِ يومَ المَعادِ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[5].

أفلا تستحقُّ بضاعةٌ تلك بعضُ صفاتِها وآثارِها أن يُسعَى لها؟ فهذا أوانُها وذلك الشهرُ خيرُ مُعينٍ على تحقيقِها، كم يدخلُ علينا من رمضان ولم نمتحِنْ أنفسَنا على اكتسابِ التقوى، فهل يكونُ العامَ -بآلامِهِ وآمالِه- فرصةً أكبرَ للتفطُّنِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

لها ومَلءِ القلوبِ بها، وتسييرِ الجوارحِ على مقتضاها -إنه كسبٌ عظيمٌ وتجارةٌ رابحة- نسألُ الله أن يُعِينَنا على تحقيقِ التقوى؛ ومساكينُ مَنْ دخل عليهم رمضانُ وخرج ورصيدُ التقوى جامدٌ لا يتحرَّك، أو يتحرَّكُ ببطءٍ لا يكاد يُرى، إنني أدعو نفسي وإياكم إلى تحقيقِ التقوى، وأفتحُ لنفسي ولكم مشاريعَ تُسهِمُ في تحقيق التقوى، ومَن عمل صالحًا فلنفسِه ومَن أساءَ فعليها.

أيها المسلمون: وأولُ هذه المشاريعِ الجالبةِ للتقوى التوبةُ النَّصُوحُ، فالتوبةُ هي بدايةُ الطريقِ ونهايتُه، وهي وظيفةُ العمر، وبدايةُ العبدِ ونهايتُه، ودليلُه إلى الخيرِ وسائقُه. وهي المنزلةُ التي يفتقرُ إليها السائرون إلى اللهِ في جميعِ مراحلِ سفرِهم، وحيث حلُّوا أو ارتحلوا.

إنَّ التوبةَ ليست من منازلِ العُصاةِ والمُخلِّطين فحسبُ كما يظنُّ كثيرٌ من الناس -وإن كان هؤلاء العصاةُ أَحْوجَ من غيرِهم إليها- بل هي عامَّةٌ للطائعين والعابدين، وهذا سيدُ الطائعين وإمامُ العابدين محمدٌ ﷺ يخاطبُ الناسَ كافةً ويقول: «**يا أيُّها الناسُ تُوبُوا إلى اللهِ، فإني أتوبُ إلى الله في اليوم مائةَ مرةٍ**» رواه مسلم.

وأهلُ الإيمان يُدعَوْنَ للتوبةِ ويقول سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

إنه نداءُ الرحمن، أفلا تستجيبُ للديَّان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾(٢).

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

نعم يا عبادَ الله، كلُّنا محتاجٌ إلى التوبةِ النَّصُوح - فكلُّنا مخطِئون، وكلُّنا مُقصِّرون، وما أعظمَ ربَّنا وأرحمَه، وهو يَدعُونا إلى التوبةِ ليغفرَ لنا ذنوبَنا ويكفِّرَ سيئاتِنا وبها يدخلُنا ويُعِيذُنا من النار!

إنها -أعني التوبةَ- تبدأُ بالهمةِ الصادقةِ وتستمرُّ بالعزيمةِ القوية، لتتحوَّلَ الشهواتُ المحرَّمة إلى طاعاتٍ وقُرُبات نأنَسُ بها في الدنيا، ونجدُ أجرَها يوم نرِدُ على الله.

يا مَنْ غَلَبَتْهم شهواتُهم وأهواؤُهم في رجبَ وشعبانَ - أفلا تَغلِبونها في رمضانَ ومِن بعدِ رمضان؟ ويا من سوَّفتَ في التوبة وأرجأتَ الإقلاعَ عن المعصية. . ها هو شهرُ رمضان حلَّ وما تدري أتدركُه عامًا آخرَ أم لا، بل ولستَ تدري أتُتِمُّ شهرَ الصيام حَيًّا. . أم تكونُ في عِدادِ الموتى وشهرُ الصيام لا يزال حيًّا؟

إنني أَدْعو نفسي وإياكَ للتوبةِ دائمًا. . وفي شهرِ الصيام فابدأْ وتوكَّلْ على الله، واعلمْ بأنك تَرِدُ على كريمٍ غفَّار يَبسُط يدَه بالليل ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسُط يدَه بالنهار ليتوبَ مسيءُ الليل - فلا تستكثرْ معاصِيَك عن التوبة. . وفتِّش وأنت أدري بنفسِك وبمعاصيك واعقِدِ العزمَ على التوبة، واحمَدْ ربَّك على أن بلَّغَك شهرَ رمضان، وستجدُ له طعمًا آخرَ حين تبدؤُه بالتوبةِ وتختمُه بالشكرِ والحمدِ لله، فما بكم من نعمةٍ فمِنَ الله. . ومَن شَكَر فإنما يشكُر لنفسه.

أيها الراغبُ في التوبة، فإن قُلتَ: فما الطريقُ إلى التوبة، وهل من أمورٍ تُعِينُ على التوبة؟ فإليك عشرين طريقًا وسببًا للتوبة وهي: الإخلاصُ لله، وامتلاءُ القلبِ من محبَّتِه، المجاهدةُ، قِصَرُ الأمل، العلمُ، الاشتغالُ بما ينفعُ، البُعْدُ عن المُثِيراتِ ودواعي المعصية، غضُّ البصر، مصاحبةُ الأخيار، مجانبةُ الأشرار، النظرُ في العواقبِ، هجرُ العوائدِ، هجرُ العلائقِ - من دونِ الله -

إصلاحُ الخواطر، استحضارُ فوائدِ تَرْك المعاصي، استحضارُ أنَّ الصبرَ على الشهوةِ أسهلُ من الصبرِ على ما تُوجِبُه الشهوةُ، الدعاءُ، الحياءُ، شرفُ النفسِ وزكاؤها، عرضُ الحالِ على من يُعِين ويُشِير بالخير[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].



(١) محمد الحمد: التوبة وظيفة العمر/ الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، يَهدِي من يشاءُ ويُضِلُّ مَن يشاء، ومن يَهدي اللهُ فهو المهتدي، ومن يُضلِلْ فلن تجدَ له وليًا مرشدًا، والصلاةُ والسلام على المبعوثِ رحمةً للعالَمين، والسراجِ المنير، وعلى إخوانِه من النبيِّين.

أيها الصائمُ: وثَمَّةَ مشاريعُ تؤكدُ حقيقةَ التقوى، ويُدلَّلُ بها على التوبةِ النَّصُوح - هذه المشاريعُ ساريةُ المفعولِ في كل حينٍ، ولكنها تَزكُو ويَعظُمُ أجرُها في شهرِ الصيام ومنها:

مشروع الذِّكر والدعاء.. وكم نُفرِّط في الذِّكر وهو من أيسرِ العباداتِ وأزكاها، وخيرٌ من إنفاقِ الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تَلقَوْا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم.. وما أروعَ المسلمَ والمسلمةَ إذا ظلَّ لسانُهما رطبًا بذِكْر الله، وما أجملَ الصائمَ يُمضي شطرًا من ليلِه ونهارِه ذاكرًا لله.. يسجدُ ويَحمَدُ ويكبِّرُ ويهلِّلُ، يستغفرُ لنفسِه ولوالديهِ والمؤمنين، ويدعو بما شاءَ من خَيرَي الدنيا والآخرةِ، ولا يخصُّ بالدعوةِ نفسَه بل يشملُ غيرَه، ففضلُ الله واسعٌ والمَلَكُ الموكَّلُ بالدعاءِ للآخرين بظَهر الغيب يقول للداعي: ولكَ بمِثْلِ ما دعوتَ به. أيها الداعون ولا تنسَوْا أمواتكم بالدعاء، وتعلَّموا آدابَ وسننَ الدعاء. يا عبدَ الله، كم في الذِّكرِ من فائدةٍ -وقد أوصلَها بعضُهم إلى المائة أو تزيدُ- وكم نُخطئُ بالليلِ والنهارِ وفي الاستغفار تُحرَقُ الخطايا وتذوبُ؟ وكم لنا من حاجةٍ؟ وكم بإخوانِنا المسلمين من بَأْساءَ؟ فهل نتضرَّعُ إلى اللهِ بالدعاء لرفعِها، والكريمُ يقولُ لنا: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وللصائم دعوةٌ لا تُرَدُّ، لا سيما عندَ فِطْرِه، وفي الأسحارِ وبينَ الأذانِ والإقامة، وفي السُّجود،

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

وحين تَلِينُ القلوبُ، ونحوِها من مواطنِ إجابة الدعاء - فهل نَستثمرُ فرصةَ الذِّكر والدعاء في رمضان؟

٢- مشاريعُ الإنفاقِ والصدقة، أيها الصائم: شعاراتُنا وأدلتُنا في القرآن والسُّنة تقول لنا في كل حين: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[1] «**اللهمَّ أعطِ منفِقًا خَلَفًا، وأعطِ ممسِكًا تلَفًا**».

وفي شهرِ رمضانَ للنفقةِ والصدقة مزيَّةٌ؛ فرسولُنا وقُدْوتُنا محمدٌ ﷺ كان أجودَ الناسِ بالخير.. وأجْودُ ما يكون في رمضانَ، فهل نقتدي، وهل تتضاعفُ صدَقتُنا في شهرِ مضاعفةِ الحسنات؟ فهذا مُعسِرٌ تفُكُّ من إعسارِه، وهذا محتاجٌ تسدُّ حاجتَه، وثالثُ مَدِين تقضي ديْنَه، ورابع جائعٌ فتطعمُه وهكذا.. وفي الحديث: «**أفضلُ الأعمال أن تُدخِلَ على أخيك المؤمنِ سرورًا، أو تقضيَ عنه دَينًا، أو تطعمَه خبزًا**».

إن فُرصَ النفقة والإحسان كثيرةٌ للأيامَى واليتامى والمساكين، وللشبابِ الراغبين في الزواج، وللمسلمين المتضرِّرين والمجاهدين الصادقين، وتفطيرِ الصائمين إن في داخلِ بلادِنا أو في عالمِنا الإسلامي، زكاةً وصدقةً، وهديةً وصِلةً.. إلخ مشاريعِ النفقةَ.

عوِّد نفسَك -أخي المسلمَ- على الصدقةِ في كلِّ يومٍ من أيام رمضانَ قلَّ ذلك أم كثُرَ، ودرِّب أهلَك وأولادَك على الصدقةِ والإحسان، فهذا شهرُ الإحسان..

٣- مشاريعُ الدعوة إلى الله.. وكم للدعوةِ من آثارٍ إيجابيةٍ على الداعي والمدعوِّ، وعلى الفردِ والمجتمع، وبالدعوةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ كُنا خيرَ الأُمم والدعاة، والآمرون بالمعروفِ والناهون عن المنكرِ هم

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

المفلِحون بشهادة القرآن: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١) وهل أحسنُ قولًا من الدعوةِ والدعاة؟ والله يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وفي رمضان تُفتَحُ القلوبُ للدعوة ويسمعُ الصائمون للدعاةِ، كيف لا وأبوابُ الجنة تُفتَح وأبوابُ النار تُغلَق، ومَرَدَةُ الشياطين تُصفَّد، إن روحانيةَ الصيام تشجِّع على الدعوة، وأنت أيها المسلمُ حريٌّ بك أن تمارسَ الدعوةَ وتتحيَّنَ الفرصَ المواتية لقَبُولِها - مع ابنِك وأخيك، وزَوْجِكَ وابنتِك، ومع جيرانِك، وزملائِك في العمل، ومع العاملِ والسائق والخادمة.. أيها المعلِّمُ هل جربتَ الدعوةَ مع طلابِك في رمضان؟ أيها البائعُ والمشتري هل مارستُما الدعوةَ حالَ البيعِ والشراءِ - إنَّ الدعوةَ قد تكون بكلمةٍ طيبة أو ابتسامةٍ لطيفة أو معاملةٍ حسنة.. فكيف بما هو فوقَ ذلك؟

معاشرَ الرجالِ والنساءِ، والشيوخِ والشباب والمتعلمين والأُميِّين: هل نجعلُ من رمضان فرصةً للدعوة بكلِّ وسيلة، وفي أيِّ مناسبة، ومع الناطقين بالعربيةِ أو غيرهم؟ بتوزيع الكتابِ المفيد والشريطِ النافع، بالهديةِ ومع الصدقة، ولا ينبغي لأحدٍ أن يَحقِرَ نفسَه عن هذه المهمّةِ الشريفة، والرسولُ محمد ﷺ يقول: «**بلِّغوا عنِّي ولو آيةً**».

٤- مشاريعُ القيامِ وتلاوةِ القرآن.. إنَّ رمضان شهرُ القيام وشهرُ القرآن، وهل يُعجِزُك أخي المسلم أن تقومَ مع الإمامِ حتى ينصرفَ.. وهل تعلمُ أنه يُكتَب لك

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

بهذا قيامُ ليلةٍ كاملةٍ. . أم يراودُك الشيطانُ ثم يخرجُك من المسجد لتذهبَ إلى القِيلِ والقالِ، أو مشاهدةِ ما هبطَ من الأفلامِ في البيوت الوهميةِ أو في البيوت الحقيقية؟

تذكَّرْ أخي المسلمَ أنَّ مَنْ قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِه، فوطِّنْ نفسَك على القيامِ من أولِ الشهرِ إلى آخره.

ولئن قصَّرتَ في قيامِ الليل أو تلاوةِ القرآن فيما مضى من أيام فحنانَيْكَ أن تُضيِّعَ ذلك في شهرِ رمضان! إنني حين أنصحُك ونفسيَ بالإكثارِ من تلاوةِ كتاب الله أنصحُ لك بالتدبُّرِ في آياتِه والوقوفِ عند عجائبِه، وكم في القرآن من كنوزْ تحتاج إلى تدبُّر، وربُّنا يقول لنا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]، ويقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

أُمّةَ القرآن: إن أهلَ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصتُه، وكيف يكونُ من أهل القرآنِ من اتخذَه مهجورًا؟ ونحن أُمةٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلام وعلى قدْرنا بالقرآن، فهل نجعلُ للقرآنِ من أوقاتِنا وعقولِنا وقلوبِنا ما يستحقّ؟ إن رمضان فرصةٌ لصلةٍ تبدأ ولا تنتهي مع القرآن، وعلى قدْرِ محبَّتِك لمن أنزلَ القرآنَ فاقرأ القرآنَ! وكفى.

٥- مشاريعُ اقتصاديةٌ: من مشكلاتِنا -بشكل عامٍّ- الإسرافُ وعدمُ الاقتصادِ، وفي رمضان دروسٌ عامةٌ ودرسٌ خاصٌّ بالاقتصاد. . فالصائمُ ممسِكٌ عن الطعام من طلوعِ الفجر إلى غروبِ الشمس، وهذا مشجِّعٌ على القضاءِ على التُّخمة ومروِّضٌ للنفس على الصبر، ومهذِّبٌ للأرواح، ومُريحٌ

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٢) سورة ص ، الآية: ٢٩.

لوظائف الجسم.. مذكِّرٌ للصائم بمن يحتاجونَ للطعام فلا يَجِدُونه (صاموا أم أفطَروا) ولكن هذه المعاني وأمثالُها من اقتصادياتِ الصوم تَضِيع بل تُفهَمُ فهمًا خاطئًا عند قومٍ ما إن يتسامعوا بشهرِ رمضان حتى تمتلئَ بهم الأسواقُ فيشترون ما يحتاجون وما لا يحتاجون، ويجمعون ما لا يأكلون، ومن خلالِ الدراساتِ والتحقيقاتِ تبيَّن أن الإعلاناتِ التجاريةَ تمارِسُ دورًا كبيرًا في خِداع المستهلِك ودفعِه إلى المزيد من الشراءِ لأشياءَ كثيرةٍ لا حاجةَ له بها، بل يتجاوزُ الأمرُ مجرَّدَ الدعايةِ إلى التسهيلاتِ في عمليات الشراءِ، وحملِ السِّلَع إلى المستهلِك في قعرِ بيتِه، ثم يأتي أسلوبُ الدفعِ بالبطاقاتِ أو الأقساطِ أو مكافأةِ المشتري -كلما زاد من نسبةِ الشراء- وسيلةً ثالثةً تُسهِم في الإسراف ومَزيدِ الاستهلاك، فهل نتنبَّه لهذه المخاطرِ الاقتصاديةِ ونجعلُ من شهرِ الصيام فرصةً للاقتصاد غيرِ المُقتِّرِ لتسلمَ بطونُنا من التخمة، وجيوبُنا من النفقةِ المسرفة.. إنها ملاحظةٌ تستدعي النظرَ والعمل. وإذا شاع عند أبناءِ العالم الآخر مصطلَح (ولد ليشتري) فعندنا - معاشرَ المسلمين - المصطلحُ يقول: (ولد ليعبدَ الله) والشراءُ ليس هدفًا بذاتِه بل وسيلةً للعبوديةِ وعمارةِ الكون.. وبئسَ القومُ قومًا لا يتجاوزُ همُّهم البطونَ والفروج.. أولئك كالأنعامِ بل أضلُّ سبيلًا.

ألا فلنستفِدْ من مدرسةِ الصيام في تحقيقِ الاقتصاد المشروع والبُعدِ عن الإسرافِ الممنوع، حتى لا يتحوَّلَ رمضانُ إلى أنواعٍ من المآكل والمشاربِ على حسابِ المشاريعِ العباديةِ والدَّعَوية والصدقة.



# حالُنا وأسلافُنا مع القرآن(١)

## الخطبة الأولى:

الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبدِه الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجًا، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له نَزَّلَ الفرقانَ على عبدِه ليكونَ للعالَمين نذيرًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أوحى إليه ربُّه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾(٢)، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ النبيِّين والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعين ومَن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(٣).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

أُمةَ القرآنِ: في شهرِ القرآنِ، كيف حالُنا مع القرآنِ، وكيف كان حالُ أسلافِنا مع القرآنِ؟ هل اختلفتْ حقائقُ القرآنِ، أم اختلَّتْ قناعاتُنا -نحن- مع القرآن؟

كيف السبيلُ للإصلاحِ، وكيف نتَّخذُ من رمضانَ مَعبَرًا للفَلاحِ؟

أيها المسلمون: نسمعُ فنستغربُ أن الإمامَ الشافعيَّ رحمه الله كان يختمُ القرآنَ في كلِّ ليلةٍ خِتمةً، فإذا كان في شهرِ رمضان ختمَ في كلِّ ليلة ختمةً، وفي كلِّ يومٍ ختمةً، فكان يختم في شهرِ رمضانَ ستين ختمةً(٤).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٨/ ٩/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وأغربُ من ذلك ما ذكره الذهبيُّ في «الكاشفِ» في ترجمةِ زُهَير بن محمدِ بنِ قُمَيْرٍ المَرْوَزي أنه كان يختمُ القرآنَ في رمضان تسعين ختمةً[١].

ولم تكن هذه العنايةُ بالقرآنِ على مستوى العلماءِ والعامَّةِ، بل ذكرَ الخطيبُ في ترجمةِ الخليفةِ العباسيِّ المأمونِ عن ذي الرِّياستَينِ قال: ختمَ المأمونُ في شهرِ رمضان ثلاثًا وثلاثين خِتمةً حتى بُحّ صوتُه، لأنه كان يأخذ القرآنَ على محمدِ بن أبي محمدٍ اليَزيدي وكان في أذنِه صممٌ، فكان المأمونُ يرفع صوتَه ليسمعَ[٢].

نعم إننا نستغربُ من هذه الحوادثِ وأمثالِها، ويقول قائلُنا: أيمكنُ أن يقعَ هذا؟ وهل يمكنُ لمن قرأَ هذا الكمَّ أن يتدبَّرَ القرآنَ؟

وكلُّنا في المقابلِ لا نستغربُ زهدَنا في القرآن، وقِلَّةَ المقروء عندنا للقرآن، وضآلَةَ الوقتِ المخصَّصِ عندنا لتلاوةِ القرآن حتى في شهرِ رمضانَ!!

ولنا أن نتساءلَ: وهل هذه القِلَّةُ المقروءةُ مع تدبُّرٍ للقرآن؟ وهل بسبب التدبُّرِ والوقوفِ عند مواعظِ القرآن كان قلَّةُ مقروئِنا للقرآن، أم أننا أُصِبْنا بقلةِ القراءة للقرآن مع قلَّةِ التدبُّرِ والانتفاعِ بالقرآن!!

إن أسلافَنا كما تفوَّقوا علينا في كثرةِ المقروءِ للقرآن تفوَّقُوا كذلك في الخشوع للقرآن والتأثرِ بالقرآن، فهذا الإمامُ التابعيُّ الثقةُ العابدُ وقاضي البصرةِ زُرارةُ بن أوفَى العامريُّ الحَرَشي العَصَري أمَّ المسلمين في مسجدِ بني قُشَيرٍ الفجرَ فقرأ سورةَ المدَّثِّر حتى إذا بلغ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾[٣] خرَّ ميتًا، يقول بَهْزُ بنُ حَكِيم -راوي الخبرِ-: فكنتُ فيمن حَمَلَه»[٤].

---

(١) انظر: عبد الحميد السجياني: أخبار وحوادث في رمضان/ ٨.

(٢) المرجع السابق/ ٢٧.

(٣) سورة المدثر، الآيتان: ٨، ٩.

(٤) رواه ابن سعد: الطبقات ٧/ ١٥٠، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٨، والمزي في تهذيب الكمال ٩/ ٣٤١.

معاشرَ المسلمين: إلى اللهِ نَشكُو ضعفَ صِلَتِنا بكتابِ ربِّنا، فنحن في النهارِ -إلا من رَحِمَ اللهُ- مستغرقون في العملِ أو غائبون نائمون تحت الفُرُش، ولربما أضاع بعضُنا الصلواتِ المكتوبةَ مع الجماعة، أو لم يُصلِّ الصلاةَ حتى فاتَ وقتُها .. وأنَّى لهذا الصِّنف من المسلمين أن يُسابِقَ في تلاوةِ القرآنِ أو ينافسَ على فعلِ الخيراتِ بشكلٍ عامّ؟

ونحنُ في الليل -إلا من رحِمَ اللهُ- نتجوّلُ هنا وهناك وكأننا نبحثُ عمّا نُزجي به الفراغَ، فإنْ صادَفْنا قومًا مجتمعين على القِيل والقالِ وإضاعةِ الأوقات دون فائدةٍ شارَكْنا معهم في الاجتماع، وأسوأُ من ذلك حين نُمضِي شطرًا من الليل في النظرِ للمسلسَلاتِ الهابطة، والاستماعِ للأصواتِ الماجنة.. وكأنَّ لسانَ حالِنا ومقامِنا يقول: حتى شهرُ رمضان لم يَردَعْنا عن اقترافِ الحرام، وما بنا هِمّةٌ لطُولِ القيام مع المصلِّين ولو كان ذلك في العَشرِ الأخيرِ من رمضان.

إنَّ هِممًا لا تتحرَّك للطاعةِ في شهرٍ تُضاعَفُ فيه الحسناتُ حَرِيّةٌ بالمحاسبةِ والمراجعةِ، وإن أقوامًا لا تُؤثِّر فيهم موعظةُ رسولِ الله ﷺ حين قال: «**مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذَنْبِه**»، حريةٌ بأن تُراجِعَ رصيدَ إيمانِها، وتعالجَ مرضَ قلوبِها.

آهٍ على صحةٍ لا تُشكَرُ، وفراغٍ لا يُستثمَرُ، وقوةٍ لا تُوجَّه، وطاقةٍ تُهدَر، أين نحن من هِمَم السابقين، وقد نقل المِزّيُّ في «تهذيب الكمال» أن سُوَيد ابن غَفَلَة كان يؤمُّ الناسَ في رمضان في القيامِ وقد بلغ مائةً وعشرين عامًا؟

ودونكم هذا النموذجَ من أعلامِ التابعين وكيف كانوا يَحْيَون بالقرآن، رغمَ المتاعبِ والمصاعب، فهذا أبو العاليَةِ الرِّياحيُّ رُفَيْعُ بن مِهْران عَلَمٌ من أعلامِ التابعين، إمامٌ مقرئ، حافظٌ مفسِّر، أدركَ زمنَ النبوّة وأسلمَ في خلافةِ أبي بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه .. ولْنَدَعْ له الحديثَ ليرويَ لنا كيف أسلمَ، وكيف كان يتعاملُ مع

القرآن -بعدما أسلمَ- يقول: «وقعتُ أنا ونفرٌ من قومي أُسارَى في أيدي المجاهدين -يعني قبل أن يسلمَ وكان مشركًا من أهلِ فارسَ- ثم ما لَبِثْنا أن غَدَوْنا مملوكِين لطائفةٍ من المسلمين في البصرةِ، فلم يَمْضِ علينا وقتٌ طويلٌ حتى آمنَّا بالله وتعلَّقْنا بحفظِ كتابِ الله..»، ثم يُفسِّر لنا هذا التابعيُّ الأسيرُ المسلمُ طبيعةَ هذا التعلُّقِ بكتابِ الله ويقول: «وكان مِنّا مَن يؤدِّي الضرائبَ لمالِكِيه، ومنَّا من يقومُ على خدمتِهم -وكنتُ واحدًا من هؤلاء- فكنَّا نختمُ القرآنَ كلَّ ليلةٍ مرةً، فشقَّ ذلك علينا، فجعلنا نختمُه مرةً كل ليلتين، فشقَّ ذلك علينا، فجعلنا نختِمه كلَّ ثلاثٍ، فشقَّ ذلك علينا، لِما كُنَّا نُعانِيه من جُهدٍ في النهارِ وسهرٍ في الليل، فلَقِينا بعضُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ وشَكَوْنا لهم ما نكابُده من السهرِ وقراءةِ كتابِ الله، مع قيامِنا بخِدْمةِ موالينا، فقالوا لنا: اختموه كلَّ جمعةٍ مرةً، فأخذْنا بما أرشَدُونا إليه، فجَعَلْنا نقرأُ القرآنَ طَرَفًا من الليلِ وننامُ طرفًا، فلم يَشُقَّ ذلك علينا»[1].

إذا كان هذا حالَ المَوالِي مع القرآن، وفي غيرِ شهرِ رمضان - فكيف حالُهم أو حالُ غيرِهم في شهرِ القرآن؟

أيها المسلمون: إن اللهَ يرفعُ بهذا القرآنِ أقوامًا ويَضَعُ آخرين، ولقد كان أبو العاليةِ الرِّيَاحيُّ ممن رَفَعَهم اللهُ بالقرآن، فقد دخل يومًا على ابن عباسٍ رضي الله عنهما -وهو أميرٌ على البصرة- فرحَّبَ به ورفع منزلتَه وأجلسَه على سريرِه، وكان في المجلس طائفةٌ من سُدَّة قريشٍ، فتغامَزُوا وتهامسوا بينهم وقال بعضُهم لبعضٍ: أَرأيتُم كيف رفعَ ابنُ عباسٍ هذا العبدَ على سريرِه؟ فأدرك ابنُ عباس ذلك والْتفتَ إليهم قائلًا: إن العلمَ يزيدُ الشريفَ شرفًا، ويرفعُ قَدْرَ أهلِه عندَ الناس، ويُجلِسُ

(١) الطبقات لابن سعد ٧/ ١١٣، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٩.

المماليكَ على الأسرَّةِ. وقد رفع اللهُ أبا العاليةِ بالقرآن حتى قيل: ليس أحدٌ بعدَ الصحابة أعلمَ بالقرآنِ من أبي العالية[١].

وكما كان لأبي العاليةِ هِمّةٌ في تعلُّمِ القرآنِ وقراءتِه، فقد كانت له همَّةٌ في تعليمِ القرآن وكَشْفِ حقائقِه للمتعلِّمين، وهو الذي كان يقول: إن اللهَ قَضَى على نفسِه أنَّ مَن آمنَ به هداه، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[٢]، ومَن توكَّلَ عليه كَفَاه، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣]، ومن أقرضَه جازاه، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٤]، ومن دعاهُ أجابَه، وتصديقُ ذلك في كتابِ الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٥].

وكم نحنُ بحاجةٍ إلى تعلُّمِ حقائقِ القرآن، وإلى الإيمانِ بوَعْدِ القرآن، والخوفِ من وعيدِه، وكم هو مؤلمٌ أن نَهجُرَ تلاوةَ القرآن، أو نهجُرَ العملَ بالقرآن، فنظلَّ نردِّدُ القرآنَ ولكنه لا يكادُ يجاوزُ حناجرَنا.

ودونكم -معاشرَ المسلمين- مَقُولَة واحدٍ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ يحكي واقعَهم وغيرَهم مع القرآنِ والإيمان، يقول عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنهما: «لقد عِشْنا دهرًا طويلًا، وأحدُنا يُؤتَى الإيمانَ قبلَ القرآنِ، فتنزلِ السورةُ على محمدٍ ﷺ يتعلّمُ حلالَها وحرامَها، وآمرَها وزاجرَها، وما ينبغي أن يقفَ عندَه

(١) السير للذهبي ٤/٢٠٨، خطب الشيخ عبد الرحمن المحمود ص٥٥٨، ٥٥٩.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/٢١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

منها، ثم لقد رأيتُ رجالًا يُؤتَى أحدُهم القرآنَ قبلَ الإيمانِ، فيقرأُ ما بين فاتحتِه إلى خاتمتِه لا يدري ما آمرُه ولا زاجرُه، وما ينبغي أن يقفَ عندَه، يَنثرُه نَثْرَ الدَّقَل.

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].



(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٩، ١٠.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين حكَمَ بإعجازِ القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه، لا شريكَ له، أبَانَ عن شفاءِ القرآن ورحمتهِ فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢).

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه كان جبريلُ عليه السلام يدارسُه القرآنَ في رمضان، وحين يدارسُه القرآنَ يكونُ ﷺ أجودَ بالخيرِ من الريحِ المرسَلَةِ - اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: إنَّ القرآنَ الكريمَ كتابُ هدايةٍ لمن أراد السيرَ على الصراطِ المستقيم: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

وكم ضَلَّت الأمّةُ المسلمةُ حين تنكَّبَتْ عن هَدْيِ القرآن، وكم ضاعَ المسلمون حين أضاعوا تعاليمَ القرآنَ؟

وفي القرآنِ أمانٌ واطمئنان، وراحةٌ وأنسٌ بالمَلِكِ الديّان، قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنَّ هذا القرآنَ مأدُبَةُ اللهِ، فمن دخل فيه فهو آمنٌ(٤).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٧٨٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨٤.

ولقد كانَ المسلمون في أزمانِ العِزَّة يعيشون هذا الأمنَ بالقرآن، روى ابنُ المبارَكِ ووكيعٌ في «الزهد» بإسنادٍ صحيح عن أبي الأحوصِ الجُشَميِّ قال: إنْ كان الرجلُ ليَطرُقُ الفُسْطاطَ طُروقًا - أي: يأتيه ليلًا -، فيسمعُ لأهلِه دويًّا كدَوِيِّ النحل - أي: بالقرآن - قال: فما بالُ هؤلاء يَأمَنُون، ما كان أولئك يخافون[1].

وهذا رسولُ الهُدى ﷺ يَشهَدُ للأشعريِّين بتميُّزِ أصواتِهم في القرآن، ويشهدُ لهم بالتلاوة، ويَعرِفُ بها منازلَهم من غيرِهم إذ يقول: «إني لأعرفُ أصواتَ رُفْقةِ الأشعريِّين بالليلِ حين يدخلون، وأعرفُ منازلَهم من أصواتِهم بالقرآنِ بالليل وإن كنتُ لم أرَ منازلَهم حين نزلوا بالنهار» رواه البخاري ومسلم[2].

فأين الذين يُحْيُونَ الليلَ بالقرآنِ في رمضانَ أو غيرِ رمضان؟ أينَ الذين يُعطِّرون بيوتَهم بآياتِ القرآن، وهذا أبو هريرةِ ﷺ يقول: «البيتُ الذي يُتلَى فيه كتابُ الله كَثُرَ خيرُه، وحضَرتْه الملائكةُ، وخرجتْ منه الشياطينُ، والبيتُ الذي لا يُتلَى فيه كتابُ الله ضاقَ بأهلِه، وقلَّ خيرُه، وحضرتْه الشياطينُ، وخرجت منه الملائكةُ»[3].

آهٍ على بيوتِ المسلمين حين تَعُجُّ بالأصواتِ المُنكَرة، والصُّوَرِ الفاضحةِ، وتَرى فيها كلَّ شيءٍ إلا بالقرآنَ . . أو ترى القرآنَ ولكن لا ترى عليه أثرًا للقراءةِ وكأنَّ البَرَكةَ تكفي لوجودِه ولو اتُّخِذَ مهجورًا.

يا أُمةَ القرآنِ: كتابُ الله تتسعُ له الصدورُ، وهو لها نورٌ وشفاءٌ، فكم في

---

(١) الزهد لابن المبارك ٩٨، وكيع/ ٥٢.

(٢) البخاري ح(٤٢٣٢)، مسلم ح(٢٤٩٩).

(٣) المحمود: خطب جمعة، ص٥٥٦.

أجوافِنا من القرآن؟ ولن يُعذِّبَ اللهُ قلبًا وَعَى القرآنَ، ومَن كان معه القرآنُ فلا أحدَ أكثرُ منه اغتِباطًا وعطاءً.

قال عبدُ الله بنُ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما: مَن قرأَ القرآنَ فقد أُدرِجَتِ النبوةُ بين جنبيهِ إلا أنه لا يُوحَى إليه، ومَن قرأَ القرآنَ فرأى أحدًا من خَلْق اللهِ أُعطِيَ أفضلَ مما أُعطِيَ فقد حَضَرَ ما عظّمَ اللهُ وعظَّمَ ما حَضَرَ اللهَ، وليس ينبغي لحاملِ القرآن أن يَجهَلَ فيمن يجهَلُ، ولا يَحِدُّ فيمن يَحِدّ، ولكن يَعفُو ويصفحُ[1].

ألا فاعرِفوا قَدْرَكم يا أهلَ القرآن - والبابُ مفتوحٌ من الهِمّةِ والصِّدق والإخلاص لمن أرادَ أن يكونَ من أهلِ القرآن. ومساكينُ من يُمْضُون في قراءةِ الجرائدِ ونحوِها -كلَّ يوم- أضعافَ ما يُمضُونَه لقراءةِ القرآن.

ومساكينُ من يقفون على أقدامِهم أو يَجلِسون على الأرائِكِ الساعاتِ الطوالَ - بأحاديثَ أقلُّ ما يقالُ عنها: إنها ليست ذاتَ فائدةٍ كبيرةٍ، ثم هؤلاء تراهم يتضايقون حين يَجلِسون دقائقَ معدودةً لقراءةِ القرآن؟

كم هو مؤلمٌ حين يُفرِّطُ الدعاةُ وطلبةُ العلم في وِرْدِهم اليوميِّ من كتابِ الله لأدنى الأسباب!

وكم هو مؤلمٌ حين تتقلَّصُ صِلةُ أقوامٍ بالقرآنِ من رمضانَ إلى رمضانَ أو من الجمعةِ إلى الجمعةِ؟ أو في المناسباتِ والاحتفالات؟ وكم هو مؤلمٌ حين تسمعُ لقراءةِ طالبٍ أو طالبةٍ في الجامعة . . وكأنه أعجميٌّ إذ يقرأُ القرآنَ، وأشدُّ من ذلك إيلامًا حين يقعُ اللَّحنُ في القرآنِ من المعلِّمين والمعلِّمات . . وكيف يَفقَهُ القرآنَ ويتدبَّرُه من لا يقيمُ حروفَه ويستقيمُ له نُطْقُه؟

إننا بحاجةٍ جميعًا إلى أن نراجعَ صِلَتَنا بالقرآنِ رجالًا ونساءً مُعلِّمين

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٧٥).

ومتعلِّمين، دعاةً ومُربِّين، وعلماءَ وعامَّةً .. ألا فلنجعلْ من رمضان نقطةَ الانطلاق، ولنأخُذْ على أنفسِنا أن يكونَ لنا وِرْدٌ يوميٌّ في القرآنِ .. أولئك يَحفظُهم اللهُ بالقرآن، وتستنيرُ قلوبُهم - كلَّ يومٍ - بالقرآن.

عبادَ الله: وحين نَغبِطُ الذين يُعلِّمون القرآنَ والرسولُ ﷺ يشهدُ لهم بالخيريّةِ ويقول: «**خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَه**» نشدُّ على أيديهم بعدمِ المللِ واليأسِ، ونذكِّرُهم بأمثالِ أبي عبد الرحمنِ السُّلَميِّ التابعيِّ رحمه الله حيث جلس يُعلِّمُ الناسَ القرآنَ سبعين سنةً.

ونُذكِّر أهلَ القرآن عامةً بوصيَّةِ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه حين جمع ثلاثَمائةٍ من قُرّاءِ البصرة وقال لهم: أنتم خيارُ أهلِ البصرة وقرَّاؤُهم فاتْلُوه، ولا يَطُولَنَّ عليكم الأمدُ فتَقسُو قلوبُكم كما قستْ قلوبُ مَن قبلَكم. ونذكِّرُهم أن يهتَدُوا بهَدْيِ القرآن، وأن يَدْعُوا غيرَهم لهَدْيِ القرآن.

يا عبدَ الله: فإنْ لم تستطعْ أن تكونَ من مُعلِّمي القرآنِ بنفسِك وعلمِك، فلتكن معلِّمًا للقرآن بدَعْمِك ومالِك، فالدالُّ على الخيرِ كفاعلِه، ومَن جهَّزَ غازيًا فقد غزا، والله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

يا أُمةَ القرآن .. هذا هو شهرُ القرآنِ فهل تُستنهَضُ الهِممُ في رمضان .. وهل نأخذُ على أنفسِنا العهدَ بالاهتداءِ بالقرآن، وتلاوةِ القرآن، وتعليمِ القرآن، والدعوةِ للقرآن .. ذاك كسبٌ عظيمٌ، وتلك نفحةٌ مباركَةٌ من نَفَحاتِ شهرِ الصيام، ومَن تَزكَّى فإنما يتزكَّى لنفسِه .. ومن أبصرَ فلنفسِه، ومن عميَ فعليها.



# معالم ووقفات في الأزمة المعاصرة[١]

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين، والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلام: وليس يخفى أنَّ المواجهةَ بين المسلمينَ وأعدائِهم لم تتوقَّفْ منذُ فجرِ الإسلام، والرسولُ ﷺ حيٌّ، والقرآنُ غضٌّ طريٌّ، واستمرَّ العدوانُ في عهودِ الراشدين، وفي دولِ الإسلام عبرَ التاريخ، وستستمرُّ المواجهةُ ما بقيَ الحقُّ والباطل، وفي مُحكَم التنزيل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[٢].

فالمعركةُ مستمرةٌ وإن تعددتْ ساحاتُها وتبدلتْ أسلحتُها، لأن الشرَّ من لوازمِ الخير، وإذا كان للأنبياءِ ﷺ أعداءٌ -وهم أتقى الأمةِ وخيارُها- فالعداوةُ لغيرِهم من المسلمين والمؤمنين من باب أَوْلى.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٣].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ١٠/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

عبادَ الله: وهناك عِدةُ معالمَ لا بدَّ أن أنعتَها في معركتنا مع عدوِّنا، ومنها:

أولًا: المسلمون مستهدَفون - بالعداوة - بأصلِ إيمانهم وليس بسبب كسبِهم أو فعلتِهم في كثيرٍ من الأحيان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(١).

والأعداءُ يتحيَّنون كلَّ فرصةٍ، ويتصيَّدون كلَّ غفلةٍ يَغفلُ فيها المسلمون عن تعاليمِ دينِهم، ليَهجمُوا عليهم ويستأصلوا شأْفتَهم ومع واعظِ القرآنِ للمسلمين إلا أنهم قد يَغفُلون فيمكِّنون للأعداءِ من حيثُ يشعرونَ أو لا يشعرون، ومن تنبيهاتِ القرآنِ للمسلمينَ قولُه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾(٢).

ثانيًا: مِن فَضْلِ الله ورحمتِه بهذه الأُمةِ أن تسليطَ العدوِّ على المسلمين ليس تسليطَ استئصالٍ وإبادةٍ -لأن المسلمين أمةُ الخيرِ، وأمةُ النبوةِ الخاتمةِ، والشهداءُ على الناسِ، وفيهم الطائفةُ المنصورةُ حتى يأتيَ وعدُ الله- وإنما تسليطُ الأعداءِ عليهم تسليطُ إيذاءً وعقوبةٍ على المعاصي الفكريةِ والأخلاقيةِ والسياسيةِ ونحوِها من الأخطاء، ليتوبوا ويكفِّرَ اللهُ عن سيئاتِهم، ولينكشفَ فيهم الخبيثُ والطيبُ ويعلمُ اللهُ -وهو أعلمُ- الصادقينَ مع الكافرين.

إنه الأذى الذي قال اللهُ عنه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾(٣).

قال القرطُبيُّ رحمه الله: فالآيةُ وعدٌ من اللهِ لرسولِه ﷺ وللمؤمنين أن أهلَ الكتابِ لا يَغلِبُونَهم وأنهم منصورونَ عليهم، لا ينالُهم منهم اصطِلامٌ -يعني استئصال-

(١) سورة البروج، الآية: ٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١١.

إلا إيذاءٌ بالبُهْتِ والتحريف، وأما العاقبةُ فتكونُ للمؤمنين». أهـ[١]

وقد يُقال: إن هذا وعدٌ من اللهِ لرسولِه ﷺ والمؤمنين معه، وفي الآية معجزةٌ للنبيِّ ﷺ، لأن مَن قاتَلَه من اليهودِ ولّى دُبُرَه[٢].

ولكنَّ النصرَ للمؤمنين والعاقبةَ للتقوى، والغلبةَ لجُندِ الله جاءت مؤكَّدةً في آياتٍ أُخَر.. والعبرةُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، ولكن بشرطِ توفُّرِ الإيمان، ووجودِ المؤمنين.

وينبغي أن يُعلَمَ أنَّ هذا الأذى الواقعَ على المسلمين من عدوِّهم ليس هو شرًّا دائمًا، بل هو في كثير من الأحيانِ خيرٌ كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣]، وكما قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٤].

ثالثًا: هزيمةُ الأعداءِ للمسلمين عسكريًا ليست هي المشكلةَ، وتفوُّقُهم عليهم في السلاحِ والعَتادِ ليست وسيلةً لتخاذُلِهم ولا مبرِّرًا لقعودِهم.. وما فَتِئَ المسلمون -عبرَ العصور- يَغلِبون ويُغلَبون، ولكن الهزيمةَ المرَّةَ حين يُهزَمون من داخلِ نفوسِهم، فيضعفُ الإسلامُ في نفوسِهم، وتُحِيط بهم الشكوكُ، وتستحوِذُ عليم الشبهاتُ والخواطرُ السيئة.. هزيمةُ المسلمين حين يتشكَّكون في باطلِ الأعداء وأنَّ مصيرَهم إلى النار، أو أنهم يُعجِزون اللهَ، واللهُ يقول ويحكم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[٥] ويقول: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٧٣، ١٧٤.

(٢) السابق ٤/ ١٧٤.

(٣) سورة النور، الآية: ١١.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.

مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

لا بدَّ للمسلمين أن يستحضِروا هذه المعانيَ القرآنيةَ التي وصفَ اللهُ بها الكافرين وكيدَهم ومكرَهم، وألا يغترُّوا بتقلُّبِهم في البلادِ واللهُ يقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(٢).

وألا يرتابوا في أن اللهَ مطَّلِعٌ وغيرُ غافلٍ عن ظُلمِهم وإفسادِهم في الأرض ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾(٣).

رابعًا: وعلى المسلمين أن يُدرِكوا ثمنَ النصرِ وقيمتَه، وإذ لم يحصلْ للنبيِّ ﷺ حتى أُوذيَ وطُورِدَ، واتُّهِم وهاجر، وشُجَّ وجهُه وكُسِرت رَباعيَتُه، ووُضِعَ له السحرُ والسمُّ، وحاول قتلَه اليهودُ، وجهَّزت دولةُ النصارى معركةً ضاريةً للمسلمين والرسولُ ﷺ حيٌّ، وأَرجفَ به المنافقون -في أكثرَ من غزوةْ- بل اتهموه في عِرضِه ونسبوا (الإفكَ) إلى أهلِه.. إلى غيرِ ذلك من ضروبِ الجهادِ والمجاهدةِ وألوانِ العداوة وتعدُّدِ الأعداءِ وكثرةِ أساليبهم - إذا لم يتحققِ النصرُ للنبي ﷺ والمؤمنين معه إلا بعدَ ذلك وبعدَ أن زُلزِلَ المسلمون زِلزالًا شديدًا، فأنَّى لغيرِهم أن يحصُلوا على النصرِ وهم على الأرائكِ متَّكِئون، أو في لهوِهم يلعبون، أو وهم يحبُّون الإسلامَ ويكرهون الكفارَ لكنهم يُؤْثِرون السلامةَ ويرغبون في الدَّعَةِ ويَضِنُّون بتقديم الأنفسِ رخيصةً في سبيل الله.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

أجل أيها المسلمون، ودُعوني أنقُلْكم إلى واحدةٍ من معاركِ المسلمين في عصرِ الراشدين كان ميدانُها البحرَ ليس البرَّ. لتروْا كيف قدّم المسلمون من شهداءَ حتى جاء النصرُ.

قال المؤرِّخون عن معركةِ (ذات الصَّواري): كانت معَ الرومِ النصارى، وحين الْتَقْوا مع المسلمين قال لهم المسلمون: إنْ شئتُم كانت المعركةُ في الساحل حتى يموتَ الأعجلُ مِنا ومنكم، وإن شئتم فالبحرَ، فنَخَرَ الرومُ نخرةً واحدةً وقالوا: الماءَ، فدنى منهم المسلمون وربَطُوا السُّفنَ بعضَها ببعض حتى كانوا يضربون بعضُهم بعضًا على سفنِ المسلمين والنصارى، ووَثَبَ الرجالُ على الرجال يضطربونَ بالسيوف، ويتواجَؤُون بالخناجرِ حتى رجعتِ الدماءُ إلى الساحل تضربُها الأمواجُ، وطرحتِ الأمواجُ جثثَ الرجال رُكامًا، ولقد قُتِل من المسلمين يومئذٍ بشرٌ كثير، وقُتِل من الكفارِ ما لا يُحصى، وصَبَروا يومئذٍ صبرًا لم يصبِروا مثلَه في موطنٍ قطُّ، حتى أنزلَ اللهُ نصرَه على أهلِ الإسلام وولَّى النصارى الأدبارَ منهزمين(١).

إنَّ ثمنَ النصرِ كبيرٌ، وإن سلعةَ الله غاليةٌ، وصدَقَ اللهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٢).

ولا بدَّ من قراءةِ التاريخ لمعرفةِ أسبابِ النصرِ وعواملِ الهزيمةِ، وفي تاريخ الأُمةِ المسلمةِ وصراعِها مع الأعداءِ لم تُهزَمْ من قلةِ عددِها أو ضعفِ عُدَّتِها، بل يُثبِتُ التاريخُ أنهم حقَّقوا النصرَ -في أكثرَ من معركةٍ- وعددُهم قليلٌ، وعَتادُ

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٠، ٢٩١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

غيرِهم أقوى من عتادِهم.. لكنهم دخلوا بالإيمانِ ساحةَ المعركةِ فخرجوا منتصرين، وحين يضعُفُ إيمانُهم أو تتفرَّقُ كلمتُهم تكون الغلبةُ لعدوِّهم، ودعونا نُطِلّ على أحوالِ المسلمين حين اجتاحَهُم الصليبيون - وما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ - لقد دبَّ الخلافُ والفُرْقةُ بين أمراءِ المسلمين، بل منهم من كاتبَ النصارى ودلَّهم على عوراتِ المسلمين، بل وصلَ الحالُ إلى أن قَتَلَ عساكرُ المسلمين بعضُهم بعضًا - فواتتِ الفرصةُ النصارى وأغارُوا على المسلمين واستولَوْا على مقدَّساتِهم، يقول ابنُ الأثير في حوادث سنة ٤٩٧هـ: «لمَّا استطالَ - خَذَلَهُم اللهُ تعالى - بما مَلَكُوه من بلادِ الإسلام، واتَّفق لهم اشتغالُ عساكرِ الإسلام وملوكِه بقتالِ بعضهم بعضًا فتفرَّقت حينئذٍ بالمسلمين الآراءُ، واختلفتِ الأهواءُ، وتمزَّقتِ الأموالُ».

بل ذكرَ ابنُ الأثيرِ أن بعضَ القِلاعِ حين امتنعتْ على النصارى راسَلَهم بعضُ سلاطينِ المسلمين وصالحهم عليها.. كما وقع ذلك في (مَعَرَّةِ النعمان) و(حمص) في (حوادث سنة ٤٩١).

أيها المسلمون: ولم تقفِ الخِلافاتُ - زمنَ الصليبيين - على الأمراءِ والسلاطينِ، بل شَمِلت العلماءَ الذين يُفترضُ فيهم جمعُ كلمةِ المسلمين، وإصلاحُ شأنهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة (٤٤٧هـ) وقعتِ الفتنةُ بين الفقهاءِ الشافعية والحنابلةِ ببغدادَ، وأنكر الحنابلةُ على الشافعيةِ الجهرَ ببسمِ الله الرحمن الرحيم، ومَنَعوا من التَّرجيعِ في الأذان، والقنوتِ في الفجر، ووصلوا إلى ديوانِ الخليفة، ولم تهدأ الأحوالُ، بل أتى الحنابلةُ إلى مسجدِ باب الشعير فنهَوْا إمامَه عن الجهرِ بالبسملة، فأخرجَ مُصحفًا وقال: أزِيلوها من المصحفِ حتى لا أتلوَها.

وقال ابنُ كثير في حوادث ٤٤٧هـ: وفيها وقعتِ الفتنةُ بين الأشاعرةِ

والحنابلةِ، فقويَ جانبُ الحنابلةِ قوةً عظيمةً بحيثُ إنه كان ليس لأحدٍ من الأشاعرة أن يشهدَ الجُمعةَ ولا الجماعاتِ.. اهـ

حقًا إنها مأساةٌ عظيمة أن يكون الشِّقاقُ والخِلافُ والتناحرُ بين العلماء في مسائلَ يَسَعُ الخلافُ فيها، وأن تصلَ الحالُ بهم إلى تركِ ما هو أعظمُ من تلك المسائلِ الخلافية.. مثل تركِ الجمعةِ والجماعة(١).

وكم يجدُ الأعداءُ فرصتَهم حين تقعُ الأمةُ في شيءٍ من التنازعِ فيضربوا بعضَهم ببعض، ويستفيدوا من ضعفاءِ النفوس لتحقيق أغراضِهم ومآربِهم حتى إذا انتهَوْا منهم رَكَلُوهم بأقدامِهم، وربما أتبَعُوهم بأصحابِهم!

فهل يا تُرى يقرأ المسلمون - عامةً - التاريخَ، وهل يستفيدُ الأمراءُ والحكامُ والعلماءُ والدعاةُ من تجاربِ الماضي.. حتى لا تتكررَ المآسي وحتى لا يظلَّ الأعداءُ يسخرونَ بالمسلمين، ويضربوا المسلمين ببعضِهم.

إنَّ الأزْمَة الراهنةَ - مع الأسف - تؤكِّدُ عدمَ استفادةِ المسلمين من تجاربِ إخوانِهم السابقين.. ولذا تتكرَّرُ المآسي.. ويتكررُ معه مكرُ الأعداءِ وغلَبتُهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) د. أحمد الزهراني، مقال في جريدة البيان عدد ١٦٩ رمضان ١٤٢٢هـ بعنوان: ما أشبه الليلة بالبارحة.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله القويِّ العزيزِ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيتِه وألوهيتِه وأسمائِه وصفاتِه، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه وخِيرتُه من خَلْقه..

إخوةَ الإسلام: المَعْلَمُ السادسُ في معركتِنا مع عدوِّنا - أن تستثمرَ كلّ طاقةٍ مع الأمةِ رجلًا كان أو امرأةً، صغيرًا أم كبيرًا، مُلتزمًا أو غيرَ ذلك.

فالمواجهةُ -اليومَ- مع المسلمين، عالميةٌ، ومن الخطأ اليومَ أن نقتصرَ في خطابِنا الدعويِّ على فئةٍ دونَ أخرى من المسلمين، بل لا بدَّ أن نشملَ بخطابِنا الدعويِّ غيرَ المسلمين - معذرةً إلى ربِّكم، وعسى أن يصلَ الحقُّ إلى آذانٍ غافلةٍ أو مُلبَّسٍ عليها.. فتصحُوا على قوارعِ الحقِّ وحُجَجِ الإيمان.. لكن من المهمِّ أن تكون الخِطاباتُ الموجَّهةُ مناسبةً ومقنِعةً لمن وُجِّهت له.

إن الدفاعَ عن حِياضِ الإسلام - اليومَ وغدًا - لا يتحمَّسُ له الأخيارُ والدعاةُ والعلماءُ وحدَهم، بل بات عوامُّ المسلمين ومَن قَصَّروا في الالتزام.. بات هؤلاءِ جميعًا تتحرَّكُ عواطفُهم وتتفطَّرُ أكبادُهم لما يصنعُه اليهودُ والنصارى ومَن حالفهم بالإسلامِ والمسلمين، وعدمُ إشراكِ هؤلاء وجمهورِ المسلمين في الدعوة وصدِّ هجماتِ الأعداءِ خسارةٌ في ميدانِ المعركة الواقعةِ والمستقبلية.. وفي هذا الصددِ على العلماءِ والدعاة والقادةِ أن يُوجِّهوا السفينةَ وأن يفتِّحوا من الفرصِ النافعةِ للدعوة ما يُمكِّنُ للجميع أن يساهمَ في تحمُّل المسؤولية، ومقارعةِ الأعداء.

إن الأَزْمةَ الراهنةَ ينبغي أن تجمعَ الأُمةَ المسلمةَ على كلمةٍ سواء.. وعالميَّتُنا قبل عولمتِهم، وولاؤُنا لبعضٍ خيرٌ وأزكى من تحالُفِهم، وأهدافُنا أسمى من أهدافِهم.

سابعًا: ولا بدَّ هنا - وحين يكون الحديثُ عن الولاءِ للمؤمنين والبراءةِ من الكافرين - من تصحيحِ مفهومٍ قد لا يتفطَّنُ له بعضُ المسلمين، وهم يظنُّون أن تحقيقَ الولاءِ والبراءِ قد يؤدِّي إلى نفورِ الكفَّار عن الإسلام؟ وليسَ الأمرُ كذلك، فإن اللهَ هو الذي شرعَ عقيدةَ الولاءِ والبراءِ وأمرَ المسلمين بها - وهو العليمُ الخبيرُ. . بل إنَّ الالتزامَ بهذه الشعيرةِ - وسائرِ شعائرِ الإسلام - سببٌ في ظهورِ الإسلام وغلبةِ المسلمين، ولربما دخل غيرُ المسلمين - بسببه - في الإسلام، وفي «سيرةِ ابنِ هشام» أنَّ رسول الله ﷺ قال بعد قتلِ كعبِ بن الأشرفِ: «**مَنْ ظَفِرتُم به من رجالِ يهودَ فاقتُلُوه**، فوَثَبَ مُحَيِّصةُ بنُ مسعودٍ على ابن سُنينةَ - رجلٍ من تُجارِ اليهود يُبايِعهُم - فقتله، وكان حُويِّصةُ بنُ مسعودٍ (أخوه) إذ ذاكَ لم يُسلِم، وكان أسنَّ من مُحيِّصةَ، فلما قتله جعلَ حويِّصةُ يضربُه ويقول: أيْ عدوَّ اللهِ أقتلتَه؟ أمَا واللهِ لرُبَّ شحمٍ في بطنِك من ماله! قال مُحيِّصةُ: واللهِ لقد أمرني بقتلِه مَن لو أمرني بقتلِكَ لضربتُ عُنقَكَ، قال: فواللهِ إن كان لأولَ إسلامِ حُويِّصةَ، قال: آللهِ لو أمركَ محمدٌ بقَتْلي لَقتلْتَني؟ قال: نعم، واللهِ لو أمرَني بضربِ عُنقِك لضربتُها، قال (حويِّصةُ): واللهِ إنَّ دينًا بلغَ بك هذا لَعَجَبٌ! فأسلَمَ حويصةُ[1].

بل يُثبِتُ الواقعُ أن المسلمين كانوا كلَّما ذلُّوا أمامَ أعدائِهم، زاد العدوُّ في ذِلَّتِهم، وكلما ارتمَى المسلمون في أحضانِ اليهودِ والنصارى - أو سواهم من مِلَلِ الكفر - صَغُروا في أعينِهم واستحوَذوا على خيراتِهم وزادوا في التدخُّلِ بشؤونهم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[2].

(١) السيرة لابن هشام، الإصابة لابن حجر في ترجمة حويصة ٢/ ٣٠٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٨.

ومن جانبٍ آخر يُقرِّر ابنُ القيِّم رحمه الله[(١)] أن علماءَ السوءِ كلَّما عَمَدُوا إلى تحليلِ ما حرَّمَ اللهُ تعالى بأدنى الحِيَلِ كان ذلك سببًا في الصدِّ عن دينِ الله تعالى وامتناعِ الكثيرِ من الدخولِ فيه.

وفي مقابلة يُقرر شيخُه شيخُ الإسلام أن الإصرارَ والأغلالَ التي على أهلِ الكتاب، وإذلالَ المسلمين لهم، وأَخْذَ الجزيةِ منهم، قد يكون داعيًا لهم أن يَنظُروا في اعتقادِهم، هل هو حقٌّ أم باطل، حتى يتبينَ لهم الحقُّ، وقد يكون مُرغِّبًا لهم في الخروجِ من هذا البلاءِ، وقد يكون أَسْرُهم - من قِبَلِ المسلمين - داعيًا لهم للنظرِ في محاسنِ الإسلام[(٢)].

إخوةَ الإسلام: وهنا لا بدَّ من التنبيهِ إلى أنه ليسَ من لوازمِ الولاءِ والبراءِ سوءُ المعاملةِ إنْ بالقولِ أو بالفعل، ولا التسلطُ والإيذاءُ - دون هدفٍ - بل إن حُسنَ التعامُلِ - دون تنازلٍ -، والعزةَ - دون استكبارٍ - والمداراةَ - دون المداهنةِ - والدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنة، والمجادلةَ بالتي هي أحسنُ - كلُّ ذلك يدعو غيرَ المسلمين للنظرِ في الإسلام، وكم من شعوبٍ دخلتِ الإسلامَ لإعجابِهم بأخلاقِ المسلمين وحُسْنِ تعاملِهم؛ وفي قصة ثُمامةَ بن أُثَالٍ رضي الله عنه - في السيرة - أو غيرِه ممن أَسلمَ من الأُممِ والشعوبِ عبرَ التاريخ عِبرةٌ لمن تأمَّلَ، ومعالمُ تُضيءُ الطريقَ لك.

ثامنًا: وفي سبيلِ المواجهةِ مع أعدائِنا علينا أن نُفكِّرَ ونختارَ سُبُلَ المواجهةِ التي أعدَدْنا العُدَّةَ لها، وألا نَدَعَ الفرصةَ للعدوِّ ليختارَ نوعَ المعركةِ وزمانَها التي يريدُ، وقد لا نكونُ على استعدادٍ لخوضِها - لسببٍ أو لآخرَ -، لكن إذا فَرَضَ

---

(١) في إعلام الموقعين ٣/ ٤١.

(٢) جامع الرسائل ٣/ ٢٣٨ بتصرف. وانظر مقال د. عبد العزيز العبد اللطيف في جريدة البيان، رمضان ١٤٢٢هـ.

العدوُّ علينا المعركةَ - دون استعجالٍ منا - فعلينا ألا نتخاذلَ ونتلاومَ، بل نُسارعُ لجمعِ القُوى واستنهاضِ الهِمَم، واستثمارِ الطاقات. . وعلينا كذلك - حينُ تُفرَضُ المعركةُ علينا - أن نُكثِّرَ جَمْعَنا بالإيمانِ واليقين، وأن نزيدَ من فاعليتِنا بالمَشُورة وتأليفِ القلوب، وجمعِ الكلمة، وألا تكونَ أفعالُنا وخطواتُنا ردودَ أفعالٍ بل خطواتٍ مدروسةً وبرامجَ وخِططًا - طويلةَ المدى، وساريةَ المفعولِ ولا يمنعُ ذلك من استخدامِ مسكِّناتٍ عاجلةِ المفعول حين تتصاعدُ الأزْمةُ.

إن المعركةَ بيننا وبينَ أعداءنا طويلةُ الأجل، ولا ينبغي أن نستعجلَ النصرَ قبل أن نستعدَّ له، وليس بالضرورةِ -أن يتحققَ النصرُ على أيدينا- بل إنَّ من مسئوليتِنا أن نُسلِّمَ الأجيالَ بعدَنا رصيدًا من البرامجِ المدروسة ليقوموا بتنفيذِها في وقتِها، وعلى هذه الأجيالِ أن تُحسِنَ التعاملَ مع هذه البرامجِ، وأن تستمرَّ في تطويرِها ومتابعةِ رسمِ البرامج بعدها، وأن يجدوا في تاريخِنا نماذجَ وطرائقَ لجهادِ الأعداء بكل وسيلةٍ ممكنة.

إنَّ من الخللِ أن نتَّهمَ دينَنا أو مناهجَنا - كلَّما حلَّتْ بنا مصيبةٌ - ومن الهزيمةِ أن يُوحيَ إلينا أعداؤنا ضرورةَ التغيير في هذه المناهجِ، لا إلى الأحسنِ بل لتفريغِها من محتواها العَقَديِّ والجهادي - مما يتخوَّفُ له الأعداءُ، وكم تُصابُ الأمةُ في مَقْتَلها حين يكونُ من أبنائِها مَن يُروِّجون لدعاوى الأعداءِ ويُحسِّنون للأُمة ما يريدُه الأعداءُ، ونحن في زمنٍ باتتْ هويةُ الأُمةِ جزءًا من كيانِها وسببًا لبقائها، والأعداءُ حين أفلسوا في سَحْقِ المسلمين عسكريًا باتوا يُخطِّطون لسحقِهم معنويًا، وإذا عُنيَ اليهوديُّ والنصرانيُّ والبُوذيُّ والشيوعيُّ وأشباهُهم بدياناتِهم ولغتِهم. . فهل يضعفُ أهلُ الإسلام وأصحابُ لغةِ القرآن عن أصَالتِهم ويستجيبوا لتوصياتِ أعدائِهم وأهوائِهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

عبادَ الله: ومثلُ ذلك يُقال فيما يريدُه الأعداءُ للمرأةِ المسلمةِ، وإيحاءاتُهم للبسطاءِ أنَّ رقيَّ المرأةِ وتطوُّرَها لا يكون إلا بنزعِ الحجابِ والاختلاطِ بالرجال، وهدمِ كيانِ الأسرة، وما يستتبعُ ذلك من خططٍ ماكرةٍ وأساليبَ ملتويةٍ تجعلُ من الأسوَدِ أبيضَ، ومن القبيح حسنًا.. ولكن مما يُفرِحُ أن فِئامًا من المسلمين باتتْ تدركُ سرَّ وأهدافَ مخططاتِ الأعداء.. ويظلُّ المنافقون والعِلْمانيون في العالم الإسلامي معوِّقين للأُمةِ ومُرجِفين بها ورجعًا للصَّدَى في صيحاتِ أسيادهم، ولكنَّ شموليةَ الوعي واتساعَ دائرةِ الخير والأخيار، وتغليبَ صوت الحكمةِ والعقل، وشيوعَ مصطلَح الأصالةِ ونبذَ مصطلحِ التبعيّةِ، وبروزَ الوجهِ الكالح للحضارة الغربيةِ وقيَمِها المادية - لا سيما في هذه الأزْمةِ - كلُّ ذلك مُعِينٌ بإذنِ الله على تجاوزِ الأزمةِ، وثباتِ الأُمة.. لكن مع بذلِ مزيدٍ من الجُهد والدعوةِ وعدمِ الاتكالية، أو الاكتفاءِ بالتلاومِ والتحسُّر، بل شعارُ كلِّ مسلم ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾(١) وبمفهومِ العبادةِ الشامل، ودليلُ كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ «أنتَ على ثَغْرةٍ من ثَغراتِ الإسلام، فاللهَ اللهَ أن يؤتَى الإسلامُ من قِبَلِك..

اللهمَّ اهدِنا وسدِّدْنا وباركْ في أعمالِنا وأعمارِنا وقِنَا شرَّ شِرارِ أعدائِنا.



(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

# الجنائز والقبور مشاهد صامتة[(١)]

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمان: حَكَم اللهُ بالفناءِ على هذه الدنيا بما فيها من الحياةِ والأحياءِ وكتبَ له البقاءَ وحدَه، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[(٢)]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[(٣)].

والعِبرةُ بما بعدَ الموتِ، ومن وصايا أبي عُبيدةَ عامرِ بن الجرَّاح رضي الله عنه حين حضرتْه الوفاةُ بالشام على إثرِ إصابتِه بالطاعون في أرضٍ يُقال لها (عَمَواس) حين جمعَ المسلمين مودِّعًا لهم فقال:

إنِّي مُوصِيكم بوصيةٍ فاقبَلُوها، فإنكم لن تزالوا بخيرٍ ما بقيتُم متمسِّكين بها وبعد موتِكم: أقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ، وصوموا وتصدَّقوا، وحُجُّوا، وتواضَعُوا، وتباذَلُوا، وتواصَوْا، وانصَحُوا أمراءكَم، ولا تغرَّنَّكم الدنيا، فإن أحدَكم لو عُمِّر ألفَ سنةٍ ما كان به بدٌّ من أن يصيرَ إلى مثلِ مَصِيري هذا الذي

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١١/ ١١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

تَرَوْنَ، لأنَّ الله قد كتبَ الموتَ على بني آدم فهمُ مُتَوفَّوْنَ، وأكْيسُهم أطوَعُهم لربِّه وأعملُهم ليومِ معادِه[١].

ثم استخلفَ من بعدِه معاذَ بنَ جبلٍ ﵁ ليُصلِّيَ بالمسلمين وشاء الله - بعد فترةٍ وجيزةٍ من الزمن - أن يلحقَ معاذٌ بأخيه أبي عُبَيدة وأن يصيبَه ما أصاب صاحبَه .. وعلى فراشِ الموتِ، والناسُ يَغْدُون على معاذٍ يزورونَه ويدْعُونَ له بالعافيةِ والسلامة، كان يَعِظُهم ويذكِّرهم، ومما قاله لهم:

أيها الناسُ: اعملوا وأنتم تستطيعون العملَ من قبلِ أن تتمنَّوا العملَ فلا تجدونَ إلى ذلك سبيلًا، أيها الناس: أَنفِقُوا مما عندَكم ليومِ مَعادِكم من قبلِ أن تَهلِكوا وتَذرُوا ذلك كلَّه ميراثًا .. ثم أوصاهم بالعلمِ تَعلُّمًا وتعليمًا وأبان لهم عن شيءٍ من فضلِ العلم، وفضائلِ العلماءِ حين قال: عليكم بطلبِ العلمِ فاطلُبوه وتعلَّموه فإنَّ طلبَه عبادةٌ، وتعلُّمَه لله خَشْيةٌ، ومذاكرتَه تسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتعليمَه لمن لا يعلمُه صَدَقةٌ، وبذْلَه لأهلِه قُربةٌ .. إلى قوله: يرفع اللهُ ﷻ بالعلم أقوامًا فيجعلُهم في الخيرِ قادةً يُقتدَى بهم، وأئمةً في الخير يُقتَصُّ آثارُهم، ويُهتدَى بهدايتِهم وأفعالِهم، ويُنتَهى إلى رأيهم، ترغبُ الملائكةُ في خُلَّتِهم، وبأجنحتِها تمسحُهم، يستغفرُ لهم كلُّ رطبٍ ويابسٍ، وحيتانُ البحرِ وهوامُّه، وسباعُ البرِّ وأنعامُه، لأن العلمَ حياةُ القلوبِ من العَمَى ونورُ الأبصار من الظُّلمة، وقوةُ الأبدانِ من الضعف، يبلغُ العبدُ بالعِلم منازلَ الأبرار، ومنازلَ الملوك، والدَّرجاتِ العُلى في الدنيا والآخرة .. ألا وإن المتقينَ سادةٌ، والفقهاءَ قادةٌ[٢].

(١) الفتوح لابن أعثم الكوفي ١/ ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

أيها المسلمون: كم تَنزِلُ بنا نوازلُ الموتِ من قريبٍ أو بعيدٍ، أو عالِمٍ أو عاميٍّ، ومن ذكرٍ أو أنثى، صغيرٍ أو كبيرٍ .. فهل تُحرِّكُ قلوبَنا للطاعةِ والتوبة، وهل نتذكَّرُ بها مقامَ الصِّدِّيقين والشهداءِ، ومنازلَ الفجارِ ومصيرَ الأشقياء هل نعتبرُ بمن مات فيكونَ الدرسُ بليغًا، والعبرةُ مُوقِظةً، وهل نتذكرُ أن الجنائزَ المحمولةَ يومًا كانت حاملةً.

إن مشاهدَ القبورِ دروسٌ صامتة، وكم في القبورِ من وَحْشةٍ وأُنْس، ونعيمٍ أو عذاب، وإن عَفَى عليها الزمنُ، وتحوَّلتِ العظامُ إلى رميمٍ، واللحمُ الطريُّ إلى مخازنَ للدُّود؟

أجل إن الجنازةَ المحمولةَ موعِظةٌ للحامِلين، وذِكْرى للغافلين، وغدًا أو عن قريبٍ سيكونُ الحاملون للجنازةِ محمولِين.

ولكن السؤالَ المهمَّ: ماذا حَمَلتِ الجنازةُ إلى مَثْواها الأخيرِ؟

إنها لا تحملُ من الدنيا شيئًا ولو كان صاحبُها يملكُ القناطيرَ المقنطرةَ من الذهب والفضةِ والنقودِ والعَقَار والأنعامِ والحَرْثِ، ولا تحملُ من البأسِ شيئًا ولو كان صاحبُها - من قبلُ - من أشجعِ الناسِ وأحكمِ الناس وأصبرِ الناسِ وأكثرِهم دهاءً وحِيلةً، وما أضعفَ موقفَ صاحبِ الجنازةِ حين السؤالِ وليس له من مُجِيرٍ ولو كان في الدنيا يُحاطُ بالبنينِ والحَشَم والخدم، ولو كان صاحبَ جاهٍ وسلطانٍ وصولجانٍ وخِلَّان ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2] وما أعظمَ الهولَ حين يُنفَخُ في الصورِ، وربُّنا تبارك وتعالى يقول:

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٢.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[1]!

عبادَ الله: إن مشاهدَ الموتى وأخبارَ الجنائزِ موقِظةٌ للقلوبِ الحيَّة، فكيف إذا كانت الجنازةُ مشهودةً، والميِّتُ عالِمًا من علماءِ السُّنّة، ومن أهلِ الجهادِ بالكلمة؟

إن موتَ عالِمٍ ثُلْمةٌ في الدِّين، والخَطْبُ أعظمُ حين تكون الأُمةُ المسلمةُ محاطةً بالخُطوب، مهدَّدةً من قِبَلِ الأعداءِ.

إن الأمةَ في ظروفِ محنتِها وفي أحوالِ شدائدِها أحوجُ ما تكون إلى علماءَ صادقين يقوُّون من عزائِمها، ويدافعون عن حِياضِ عقيدتِها، يُنبِّهون إلى مكرِ الأعداء، ويكشِفون للأُمة خُططَ الأدعياء؟

إن حاجةَ الأمةِ ماسَّةٌ إلى كلمةِ حقٍّ يُدافَعُ بها عن غَشومٍ ويُنتصَرُ بها لمظلوم.

أما حين تجتمعُ المِلَلُ الكافرةُ على الإسلامِ وأهلِه، فتلك النازلةُ تحتاج إلى رصِّ الصفوف، وتوحيدِ السِّهام، وجمعِ الكلمةِ واستثمارِ كلِّ طاقةٍ في الأُمة.

كم هو مؤلمٌ حين تُصبحُ البلادُ الإسلاميةُ مَرتَعًا لخُططِ العَلْمنة والتغريب، وهدفًا للعولمةِ وطمسِ الهويةِ المسلمةِ، هنا يلتفتُ الناسُ بحثًا عن منقِذين للسفينةِ قبلَ الغرق، وحفاظًا على الأرواحِ قبل أن تُزهَقَ، وعلى القيمِ والمبادئِ الإسلاميةِ قبل أن تُلوَّثَ أو تُجتَثَّ؟!

وما أَحْرى العلماءَ والدعاةَ وطلبةَ العلمِ بالقيام بهذا الدَّورِ، فهم مصابيحُ

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠١-١٠٤.

الهدى، وعليهم أُخِذَ الميثاقُ بالبيانِ وعدمِ الكِتْمان - ولكن ذلك لا يُعفِي غيرَهم من المسؤوليةِ والبيانِ «**فمنَ رأى منكم مُنكَرًا فليغيِّرْه بيدِه، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبقلبِه وذلك أضعفُ الإيمان**».

إن الناظرَ في واقعِنا اليومَ لَيُدرِكُ أن الأمةَ مستهدَفةٌ في عقيدتِها وقيمِها، بل وفي أصلِ وجودِها، والنائمون إذا لم يستيقِظوا على هذه الضَّرباتِ الموجِعةِ هنا وهناك فمتى يستيقظون؟ لا سيما وأعداءُ المِلَّةِ قد أعلَنُوها وقد رسموا فصولَها وحدَّدوا مراحلَ وأولوياتٍ لضرب العالمِ الإسلاميِّ والدعواتِ الإسلامية؟ وإذا كانت الحركاتُ الجهاديةُ هدفَهم الأولَ، فستكون الحركاتُ والمنظَّماتُ والهيئاتُ الإسلامية هدفَهم الآخِر، ويمكرون ويمكرُ الله واللهُ خيرُ الماكرين، وصدق اللهُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].



(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله العليِّ الأعلى، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الأسماءُ الحُسْنى والصِّفاتُ العُلَى، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه طاب حيًا وميتًا، اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: ما رُزِئَ المسلمون بفَقْدِ أحدٍ كما رُزِئوا بفقدِ محمدْ ﷺ، ومِن فِقْه أبي بكرٍ وحصافةِ رأيِه أنه جاء إلى المسلمين والمصابُ فيهم بلغَ مبلغَه.. فتقدَّمهم خطيبًا وقال: أيها المسلمون، من كان يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد ماتَ، ومن كان يعبدُ اللهَ فإن الله حيٌّ لا يموتُ.. ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

وأبو بكرٍ أقربُ الناسِ إلى محمدٍ ﷺ، وأكثرُهم خُلَّةً له وأعظمُهم إيمانًا به وبما جاء به - لكنه الفِقهُ والثباتُ ومواصلةُ الطريقِ الذي ابتدأه، وفعلًا قام أبو بكرٍ بالمهمَّةِ والدعوةِ إلى الإسلام وحَفَلَتْ خلافتُه القصيرةُ الأمدِ بجلائلِ الأعمالِ، ومن أعظمِها حربُ المرتدِّين وتثبيتُ الدِّين في قلوب المرتابين بعد موتِ محمدٍ ﷺ وجمعُ القرآن، وابتدأَ حركةَ الفتحِ الإسلاميِّ في الشامِ والعراق.

والأمةُ على مرِّ العصور كانت تفقِدُ خِيرةَ رجالاتِها، فلا تهِنُ عزائمُهم ولا يتوقَّفُ مدُّهم .. بل هي أُمةُ أبدالٍ .. أمةٌ وَلُودٌ كلَّما مات سيدٌ منها قامَ آخرُ وهكذا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

وإذا كان من حقِّ الأمواتِ على الأحياءِ المسلمين أن يُذكِّروهم بالخيرِ وأن يترحَّموا عليهم، فلا ينبغي لأحدٍ أن يظنَّ أن الدِّينَ سيَضعُفُ بموت فلانٍ، أو أن الدعوةَ ستتوقَّفُ لرحيلِ فلان . . ذلكم لأنَّ في المسلمين خيرًا والحمدُ لله . . وقد يَنشَطُ جمعٌ من الناسِ لموتِ واحد، بل حصلَ أكثرُ من هذا في تاريخِ وَفياتِ الأعيانِ من المسلمين حين أسلمَ جمعٌ من اليهودِ والنصارى على إثرِ هذه الوفياتِ، فضلًا عن توبةِ مَن تابَ من المسلمين، وانبعاثِ نفرٍ من المسلمين للعِلْم والدعوة.

وفي المقابلِ لا ينبغي للأحياءِ أن يتجنَّوْا على الأموات بعدَ مماتِهم فينسُبوا إليهم ما ليس فيهم، أو يُحمِّلوهم ما لم يتحمَّلوا، وإذا كانت غِيبةُ المسلم لا تجوزُ بنصِّ القرآن والسُّنّة، فالبُهْتان أعظمُ جُرْمًا وأغلظُ تحريمًا.

ومَن دافعَ عن عِرضِ أخيه المسلم كان أجرُه على الله، وفي الحديث: «مَن ذبَّ عن عِرضِ أخيه بالغِيبة كان حقًّا على اللهِ أن يُعتِقَه من النار» رواه أحمدُ وغيره(١).

إنَّ العصمةَ قد انقطعتْ بعدَ الأنبياء، وكلُّ أحدٍ بعدَهم يُؤخَذُ من كلامِه ويُردُّ، وما فتِئَ العلماءُ قديمًا وحديثًا يردُّ بعضُهم على بعضٍ لكن بهدفِ بيان الحقِّ، ومع الأدبِ والتقدير، وإنَّ المحذورَ تقصُّدُ الردِّ للتشفِّي والتجاوزُ في التُّهمَ، وتناسي ما للمردودِ عليه من فضائلَ، فذلك الذي يُثيرُ الأحقادَ ويبعثُ على الضغائن ويُشِيعُ التُّهَمَ بالباطل، واللهُ تعالى حرَّمَ الظلمَ على نفسِه وجعلَه بينَ عبادِه محرَّمًا. وقد أمر سبحانه بالعدلِ مع الأعداء.

عبادَ اللهِ: ثمةَ تنبيهاتٌ وملاحظاتٌ على حضورِ الجنائزِ وتشييعِها؛ ومنها:

---

(١) وهو في صحيح الجامع ٥/ ٢٩٠.

أولًا: أن يكونَ الدافعُ لشهودِ الجنازةِ احتسابَ الأجرِ عندَ الله والناسُ يختلفون في الباعثِ على اتِّباعِ الجنائز، لكنّ الأجرَ المذكورَ فيها خاصٌّ بمن اتَّبعَها إيمانًا بوعدِ الله واحتسابًا للأجرِ، وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن أبي هريرةَ ﷺ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«من اتبع جَنَازةَ مسلمٍ إيمانًا واحتسابًا وكان معه حتى يُصلَّى عليه ويُفرَغَ من دفنِها، فإنه يرجعُ من الأجرِ بقِيراطَينِ كلُّ قيراطٍ مثلَ أُحدٍ، ومَن صلَّى عليها ثم رجعَ قبل أن تُدفنَ، فإنه يرجعُ بقيراطٍ»**[1].

فهل تَستحضرُ هذه النيةَ - أخي المسلمَ - حين تشهدُ جنازةَ مسلمٍ، ليحصلَ لك هذا الأجرُ العظيم؟

ثانيًا: التزاحمُ على النَّعشِ وكثرةُ الحاملينَ للجنازةِ، عن قَتَادةَ قال: شهدتُ جنازةً فازدَحَمُوا على الجنازةِ، وقال أبو السَّوَّار العَدَوي: نرى هؤلاءِ أفضلَ أو أصحابَ محمدٍ ﷺ، كان أحدُهم إذا رأى مَحمَلًا حَمَل، وإلا اعتزلَ ولم يُؤْذِ أحدًا[2].

وقال مباركُ بنُ فَضَالةَ: حضر الحسنُ البصريُّ جنازةَ بكرِ بنِ عبدِ اللهِ - أحدِ الأئمةِ الثِّقاتِ من سادةِ التابعين - وكان على حمارٍ، فرأى الناسَ يزدحمون، فقال الحسنُ: (ما يُوزَرون أكثرُ مما يُؤجَرون، كانوا - لعلَّه يقصدُ الصحابةَ - ينظرونَ فإنْ قَدَرُوا على حَمْلِ الجنازةِ أعقَبُوا إخوانَهم)[3].

وقد عدَّ ابن حَزْمٍ رحمه الله التزاحمَ على الجنازةِ من البِدَعِ[4]، وفي

---

(١) البخاري (٤٧)، أحمد الزومان: من أحكام الجنائز، ٦.

(٢) رواه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٦٧، وإسناده صحيح، أحمد الزومان: من أحكام الجنائز ص٧.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٣٥، وانظر: ابن سعد: الطبقات ٧/ ٢١١.

(٤) المحلى ٥/ ١٧٨.

«حاشيةِ الروض المُربع» لابن قاسم قال: ولو كان ازدحامُ الحاملين مسنونًا لتوفَّرتِ الهِممُ والدواعِي على نقلِه، نقلًا لا يَقبَلُ الاختلافُ، ولكان السلفُ الأوَّل أَوْلى بالمسارعةِ إليه، فعُلِم أنه لم يكن الأمرُ كذلك وأن الازدحامَ الموجبَ للدَّبيبِ بها بدعةٌ، لمخالفةِ الإسراع المأمورِ به(١).

ثالثًا: اللغطُ وارتفاعُ الأصواتِ في المقابرِ ليس من هَدْيِ محمدٍ ﷺ ولا هديِ أصحابِه، بل كان شأنُهم السكونَ والخشوعَ، وفي حديثِ البراءِ ابنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: خرجْنا مع النبيِّ ﷺ في جَنازةِ رجلٍ من الأنصار، فانتهَيْنا إلى القبرِ ولم يُلحَدْ، فجلسَ رسولُ اللهِ ﷺ وجلسْنا حولَه، وكأنَّ على رؤوسِنا الطيرَ.

رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكمُ وصححه ووافقه الذهبي(٢).

وقولُه: «وكأنَّ على رؤوسِهم الطيرَ» وَصَفَهم بالسكونِ والوَقارِ، لأن الطيرَ لا تكاد تقعُ إلا على شيءٍ ساكن، وكان عثمانُ رضي الله عنه إذا وقفَ على القبرِ يبكي حتى يبلَّ لحيتَه.

رواه الترمذي وابنُ ماجه وحسَّنه الحافظ ابن حجر والألباني(٣).



(١) حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، لابن قاسم ٣/ ١٠٩.
(٢) المستدرك ١/ ٣٨.
(٣) انظر: الفتوحات ٤/ ١٩٣، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٢١، أحمد الزومان: من أحكام الجنائز، ص٢٠.

# فقه الجنائز(١)

## الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين جعلَ لكل شيءٍ قَدَرًا، وخَلَق الموتَ والحياةَ ليبلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملًا، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفةً لمن أراد أن يَذَّكَّرَ أو أرادَ شكورًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه توفَّاه ربُّه بعد أن أكملَ به الدينَ ونشر رحمتَه في العالمين - اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلين، وارضَ اللهمَّ عن صحابتِه أجمعين، والتابعينَ ومَن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أيها المسلمون: حين يكونُ الحديثُ عن الموتِ والجنائزِ فذاك حديثٌ إلى كلِّ واحدٍ منا، وتذكيرٌ بمصيرِنا جميعًا، ولا مَفرَّ من الموتِ ولو رَغِبْنا ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾(٢) وإذ كان كأسُ الموتِ مَشربَنا جميعًا، فالسعيدُ منا من زُحزِحَ عن النار وأُدخِل الجنةَ فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور.

إخوةَ الإسلام: ومع ما في ذِكْر الموت من تليين القلوبِ والزهدِ في الدنيا، ولذا كانت وصيةُ رسول الله ﷺ: «**أكثِروا ذِكرَ هاذِمِ اللذاتِ**» يعني الموتَ(٣).

ففي ذكرِ الجنائز تنبيهٌ على أمورٍ يَحسُن التنبُّهُ لها، وتحذيرٌ من أمورٍ ينبغي الحذرُ منها، وقد نَغفُلُ حين تقعُ المصيبةُ عن هذا أو ذاك، وهذه بعضُ الوَقَفاتِ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٨/ ١١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٨.

(٣) صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٦٦، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٩.

والتنبيهاتِ حولَ الموتِ والجنائز:

أولًا: مَنْ أَكْيسُ الناسِ؟ سألَ رجلٌ من الأنصار رسولَ الله ﷺ فقال: أيُّ المؤمنين أفضلُ؟ قال: «**أحسنُهم خُلُقًا**» قال: فأيُّ المؤمنين أَكْيسُ؟ [أي أعقلُ] قال رسولِ الله ﷺ: «**أكثرُهم للموتِ ذِكْرًا، وأحسنُهم لِمَا بعدَه استِعدادًا، أولئك الأكياسُ**» حديث حسن(١).

وهكذا فالكيِّسونَ لا يَكتفُون بذِكْرِ الموت، بل يُحسِنُون الاستعدادَ له.

ثانيًا: لماذا الخوفُ من القبرِ؟ في «صحيحِ سنن التِّرمذيِّ»، و«صحيحِ سنن ابن ماجه»: أن عثمان بن عفَّانَ ﷺ كان إذا وقفَ على قبرٍ بكى، حتى يَبُلَّ لحيتَه، فقيل له: تَذكُرُ الجنةَ والنارَ فلا تبكي وتبكي مِن هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ القبرَ أولُ مَنزِلٍ من منازلِ الآخرةِ، فإنْ نَجَا منه فما بعدَه أَيسرُ منه، وإن لم يَنْجُ منه فما بعدَه أشدُّ منه**» قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيتُ مَنظَرًا قطُّ إلا القبرُ أفظعُ منه**»(٢).

فهل نتذكَّرُ هَوْلَ هذا المنظرِ ونستعدُّ لما بعدَه، وهل ننظرُ للقبورِ حين نزورُ المقابرَ بهذه النظرةِ الواعيةِ العاملة؟

ثالثًا: حُسْنُ الظنِّ بالله دائمًا ولا سيما عند نزولِ الموت، وهذا الخوفُ من القبرِ وما بعدَه لا ينبغي أن يُغيِّبَ عَنَّا حُسنَ الظنِّ بالله ورجاءَ عفوِه ومغفرتِه، مع الخوفِ منه وحُسنِ العملِ له، فقد دخل النبيُّ ﷺ على شابٍّ وهو في الموتِ فقال: «**كيف تَجِدُك؟**» قال: أرجُو اللهَ يا رسول الله، وأخافُ ذُنوبي، فقال رسولُ الله ﷺ: «**لا يَجْتمعانِ في قلبِ عبدٍ - في مثلِ هذا الموطنِ - ألا أعطاه**

(١) صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٩.

(٢) صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٦٧، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٢١.

**اللهُ ما يَرجُو، وآَمَنَه مما يخافُ**»[١]، وفي «صحيح مسلم» قال ﷺ: «**لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ باللهِ**».

رابعًا: حضورُ الميِّت وتلقينُ المحتضَرِ، كم يتهاونُ البعضُ منّا، أو يتخوَّفُ في حضورِ المُحتضَرين! أو نَحضرُ دون أن يستفيدَ الأمواتُ من حضورِنا، وفي صحيح مسلمٍ قال ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوتاكُم لا إله إلا الله**»[٢]، وهذه الساعاتُ لها ما بعدَها.

وفي حديث معاذٍ رضي الله عنه: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن كان آخرُ كلامِه لا إله إلا اللهُ، دَخَلَ الجنةَ**»[٣].

ومِن هنا يتبيَّن أهميةُ حضورِ الموتى وإعانتِهم وتذكيرِهم على النُّطقِ بالشهادة، فذلك من حقوقِ المسلمِ على أخيه، قال القُرْطبيُّ رحمه الله: وفي أمرِه عليه الصلاة والسلام بتلقينِ الموتى ما يدلُّ على تعيُّنِ الحضورِ لتذكيرِه وإغماضِه والقيامِ عليه، وذلك من حقوقِ المسلمِ على المسلمين[٤].

والتلقينُ ينبغي أن يكونَ برِفْقٍ ودونَ إكثارٍ على المحتَضَر، فقد رُوي عن ابن المبارَك رحمه الله أن رجلًا حَضَرَه عند الوفاةِ فجعل يُلقِّنه لا إله إلا الله، وأكثَرَ عليه فقال له عبدُ الله: إذا قلتُ مرةً فأنا على ذلك ما لم أتكلَّم بكلام[٥].

---

(١) حديث حسن: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٢٠، السلسلة الصحيحة ١٠٥١.

(٢) حديث رقم (٩١٦).

(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في المستدرك ١/ ٣٥١.

(٤) المفهم ٢/ ٥٧٠، أحكام الجنائز ، الزومان/ ٤.

(٥) سنن الترمذي ٣/ ٣٠٧، ٣٠٨، الزومان/ ٣. وعلى من حضر عند من به نَزْعُ الموتِ أن يدعوَ له ولا يقولَ في حضوره إلا خيرًا قال ﷺ: «**إذا حضرتم المريضَ أو الميتَ فقولوا خيرًا فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون**» رواه مسلم ٩١٧.

خامسًا: والوصيةُ لا تقرِّبُ الموتَ ولا تبعدُه، ويخطئُ بعضُ الأموات حين يتراخَوْنَ في الوصيةِ حتى يَبغَتَهم الموتُ فجأةً، والرسولُ ﷺ يُذكِّر المسلمين بهذه الوصيةِ ويقول: «**ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يُوصِي فيه يَبِيتُ ليلتينِ إلا ووصيَّتُه مكتوبةٌ عندَه**»(١).

ويَحرُمُ الإضرارُ بالوصيةِ كأن يُوصِيَ لبعضِ الوَرَثةِ أو يُفضِّلَ بعضَهم على بعض، وعلى مَن عَلِمَ من مُوصٍ جَنَفًا أو إضرارًا أن يذكِّرَه ويخوِّفَه بالله، وعلى الموصَى له أن يُصلحَ الوصيةَ لتكونَ وَفْقَ المشروعِ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

قال ابن كثيرٍ: وأحسنُ ما وردَ في النهيِ عن الحَيْفِ في الوصيةِ قولُه ﷺ: «**إنَّ الرجل ليعملُ بعملِ أهلِ الخير سبعينَ سنةً، فإذا أوصَى حافَ في وصيته فيُختَمُ له بشرِّ عمله فيدخلُ النارَ، وإنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الشرِّ سبعينَ سنةً فيعدِلُ في وصيتِهِ فيُختَمُ له بخيرِ عملِه فيدخلُ الجنةَ**» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾(٣).

سادسًا: فإذا مات الميتُ شَخَصَ بصرُه إلى السماء؛ لأنَّ البصرَ يَتبعُ الروحَ، ولذا يُسَنُّ تغميضُ عينَي الميت، وأن يُغطَّى بما يَستُر جميعَ بدنِه إلا من كان مُحْرِمًا فلا يُغطَّى رأسُه ولا وجهُه، ويُعجَّل بتجهيزِه والإسراع في دفنِه، وفي الحديث: «**أَسرِعوا بالجَنازةِ، فإنْ تكُ صالحةً فخيرٌ تُقدِّمونَها إليه، وإنْ تكُ سوى ذلك فشرٌّ تَضعُونَه عن رقابِكم**» متفق عليه(٤).

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩. وانظر تفسير ابن كثير عند آية البقرة ١٨٢-١/ ٣٠٥.

(٤) صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٢٥.

وفي «صحيحِ البخاريِّ» وغيرِه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا وُضِعَتِ الجنازةُ واحتملَها الرجالُ على أعناقِهم، فإنْ كانت صالحةً قالت: قَدِّموني وإن كانت غيرَ صالحةٍ قالت لأهلها: يا ويلَها أين تذهبونَ بها؟ يَسمَعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سمعَها الإنسانُ لصَعِقَ**»(١).

وحين تُوضَعُ الجنازةُ في القبر يُسنُّ القولُ: باسمِ الله على سنَّةِ رسولِ الله ﷺ(٢).

ومن السُّنة إدخالُ الميتِ القبرَ من قِبَلِ رِجْلَي القبرِ.

سابعًا: ويجوزُ الإخبارُ عن الميتِ ليكثُرَ المصلُّون عليه، لا للمباهاةِ بل للدعاءِ له، وفي الحديث «**ما من ميّتٍ تُصلِّي عليه أُمّةٌ من المسلمينَ يَبلُغونَ مئةً كلُّهم يَشفَعُون له إلا شُفِّعوا فيه**» رواه مسلم.

وروى مسلمٌ - أيضًا - عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما مِن رجلٍ مسلمٍ يموتُ فيقومُ على جنازتِه أربعونَ رجلًا لا يُشرِكُون بالله شيئًا، إلا شَفَّعَهم اللهُ فيه**».

ومن فاتته الصلاةُ على الميتِ في المسجد فليصلِّ عليها في المقبرةِ أو على القبرِ بعد دفنِه - وكَرِهَ بعضُهم ذلك وقتَ النهي بعد دفنِه؛ كابن عثيمين رحمه الله.

ومن فاتته بعضُ صلاةِ الجنازة فإنه يقضيهِ في الحالِ، فإذا أدركَ مع الإمام التكبيرةَ الثالثةَ فإنه يُكبرُ ويقرأُ الفاتحةَ، وإذا كبَّر الإمامُ الرابعةَ فإنه يُكبِّر الثانيةَ - بالنسبة له - ويُصلِّي على النبيِّ ﷺ وإذا سلَّمَ الإمامُ كبّرَ الثالثةَ ودعا للميتِ، ثم يُكبّر الرابعةَ ويُسلِّم(٣).

وفي الصلاةِ على الجنازةِ وحضورِها حتى تُدفنَ قِيراطانِ، وفي الصلاةِ

---

(١) صحيح الجامع ١/ ٢٨٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير ١/ ٢٨٩.

(٣) نُقل ذلك عن الشيخ ابن باز رحمه الله، الشيخ صالح الخضيري، فقه الجنائز (خطبة).

قيراطٌ، والقِيراطُ مثل أُحدٍ، ولا بدَّ من الإخلاصِ والاحتسابِ في ذلك لقولِه ﷺ: «مَن تبِعَ جنازةَ مسلمٍ إيمانًا واحتسابًا»، وحين سمع ابنُ عمرَ رضي الله عنهما من أبي هريرة رضي الله عنه حديثَ القيراطَينِ في الجنائز قال: لقد فرَّطْنا في قراريطَ كثيرةٍ.

وإذا قال هذا أمثالُ ابنِ عمرَ، فماذا يقولُ أمثالُنا؟ ممّن يُفرِّط في قراريطَ كثيرةٍ.

ثامنًا: إخوةَ الإيمان: وعلى أهل الميتِ أن يَصبِرُوا عند المصيبةِ وأن يحتسبوا الأجرَ على الله، فلا تَسخُّطَ ولا جزَعَ ولا نياحةَ؛ بل رضا وصبرٌ وحَمْدٌ واسترجاعٌ ألا وإنها البِشارةُ للصابرين ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[١].

وقال ﷺ: «**ما مِن مُسلمٍ تُصِيبُه مصيبةٌ فيقولَ ما أمرَه اللهُ: إنا للهِ وإنا إليه راجعونَ، اللهمَّ أجُرْني في مُصِيبَتي، وأَخلِفْ لي خيرًا منها، إلا أخلفَ اللهُ له خيرًا منها**» رواه مسلم.

وتَحرُم النياحةُ على الميت، وهي من كبائرِ الذنوبِ ومن صفاتِ أهل الجاهلية، وهي فوقَ البكاءِ، وذلك بوقوفِ النساءِ متقابِلاتٍ يَصِحْنَ ويضربنَ وجوهَهنَّ ويَحثِينَ الترابَ على رؤوسهنَّ، وقد نهى ﷺ عن ذلك وقال عن النائحةِ: «النائحةُ إذا لم تتُب قبلَ موتِها تُقامُ يومَ القيامةِ وعليها سِرْبالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ من جَرَبٍ» رواه مسلم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليبلوَكم أيُّكم أحسنُ عملًا وهو العزيزُ الغفورُ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له أماتَ وأحيا، وخَلَق الزوجينِ الذكرَ والأنثى من نُطْفةٍ إذا تُمْنَى وأنَّ عليه النَّشأةَ الأخرى، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أَوحى إليه ربُّه فيما أَوحى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: مشهدٌ غائبٌ وفجأةً يَحضُر، وآمالٌ بعيدةٌ والآجالُ دونَها، ويحَكَ يا ابنَ آدمَ حين يأخذُك الموتُ على غِرّةٍ ودونَ استعدادٍ ليوم المَعَاد، أين أنت من ظُلْمة القبرِ ووَحْشتِه، ومن هَوْلِ الحساب وعَرَصاتِ القيامة، فذاكَ الذي تَشِيبُ له النواصي، وتَذهلُ المراضعُ عمّا أرضَعَتْ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملَها، ألا وأنَّ القبرَ أولُ مشاهدِ القيامةِ، وعنه قال ﷺ: «**إنَّ الميتَ يصيرُ إلى القبرِ فيُجلَسُ الرجلُ الصالحُ في قبرِه غيرَ فَزِعٍ ولا مِشعُوف، ثم يقال له: فيمَ كنتَ؟ فيقول: كنتُ في الإسلام، فيُقال له: ما هذا الرجلُ؟ فيقول: محمدٌ رسولُ الله ﷺ، جاءنا بالبيِّناتِ من عندِ الله فصدَّقْناه، فيُقال له: هل رأيتَ اللهَ؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يَرَى اللهَ، فيُفرَج له فُرْجةٌ قِبَل النار فيَنظرُ إليها يَحطِمُ بعضُها بضعًا فيُقال له: انظُرْ إلى ما وَقَاكَ اللهُ، ثم يُفرَج له قِبلَ الجنة فينظرُ إلى زَهْرتِها وما فيها فيُقال له: هذا مقعدُك، ويقال له: على اليقينِ كُنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعَثُ إن شاء الله، ويُجلسَ الرجلُ السوءُ في قبرِه فَزِعًا مِشْعُوفًا، فيُقال له: فيم كُنتَ؟ فيقول: لا أدري، فيُقال له: ما هذا الرجلُ؟ فيقولُ: سمعتُ الناسَ يقولون قولًا فقلتُه، فيُفرَج له قِبَلَ الجنةِ، فينظرُ إلى زَهرتِها وما**

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

**فيها، فيقال له: انظُرْ إلى ما صَرَفَ اللهُ عنك، ثم يُفرَج له فُرْجةٌ قِبلَ النارِ، فينظرُ إليها يحطِمُ بعضُها بعضًا، فيُقال له: هذا مقعدُك، على الشكِّ كنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعَثُ إن شاءَ الله»**(١).

تاسعًا: أيها المسلمون: تَذكَّروا حين تدخلون المقبرةَ أنها دارُكم، وحين تَرَوْنَ القبورَ أنكم بعد حينٍ ستَلحَقُون بهم، ولذا فالمشروعُ حين تدخلون المقبرةَ أن تَدْعوا لهؤلاءِ الأمواتِ ولأنفسِكم، وقد كان ﷺ يعلِّمُ أصحابَه كيف يدعونَ ويقول: «**السلامُ عليكم أهلَ الديارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحقونَ، نسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ**» رواه مسلم.

أو نحوَ ذلك من الأدعيةِ الصحيحةِ في زيارةِ المقابر.

أما الجنازةُ التي دفنتموها فادْعُوا لصاحبِها واستَغفِرُوا له وسَلُوا اللهَ له الثباتَ، فقد كان من هَدْي النبيِّ ﷺ إذا فَرَغَ من دفنِ الميت أن يقفَ عليه ويقول: «**استَغفِرُوا لأخيكم، وسَلُوا له التثبيتَ، فإنه الآن يُسألُ**»(٢).

وإياكم معاشرَ المسلمينَ أن تَمتهِنُوا القبورَ بالوَطْء أو الجلوسِ عليها ونحوِ ذلك، وفي «صحيحِ مسلم» من حديثِ أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لأنْ يجلسَ أحدُكم على جَمْرةٍ فتَحرِقَ ثيابَه فتَخلُصَ إلى جلدِه خيرٌ له من أن يجلسَ على قبرٍ**»(٣).

عاشرًا: التعزيةُ المشروعةُ وثوابُها: من السُّنةِ تعزيةُ أهلِ الميتِ، ومعناها الدعاءُ لهم، وتسليتُهم وتصبيرُهم؛ والتعزيةُ المشروعةُ مشهَدٌ من مشاهدِ التكافلِ

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره بإسناد صحيح، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٢٢.

(٢) رواه أبو داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه ابنُ حجر في الفتوحات، والنووي في الخلاصة، وغيرُهم - أحمد الزومان/ ١٥.

(٣) الحديث رقم ٩٧١.

الاجتماعي، وصورةٌ معبِّرةٌ لترابُطِ المسلمين، وإحساسُ بعضِهم بمشاعرِ إخوانِهم، وفي ثوابِها وَرَدَ الحديثُ عن النبيِّ ﷺ بقوله: «**ما مِن مؤمنٍ يُعزِّي أخاه بمُصيبتِه إلا كَسَاهُ اللهُ ﷻ من حُلَلِ الكرامةِ يومَ القيامةِ**»[١].

حادي عشر: وثمةَ إحدادٌ مشروعٌ وآخرُ محظورٌ، وعنه قال ﷺ: «**لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن تُحِدَّ على ميتٍ فوقَ ثلاثِ ليالٍ، إلا على زوجٍ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا**» متفقٌ عليه.

قال سماحةُ الشيخِ ابنِ بازٍ ؒ: جَرَتْ عادةُ الكثيرِ من الدول الإسلاميةِ في هذا العصرِ بالأمرِ بالإحداد على من يموتُ من الملوكِ والزعماءِ لمدة ثلاثةِ أيامٍ أو أقلَّ أو أكثرَ، مع تعطيلِ الدوائرِ الحكومية وتنكيسِ الأعلامِ، ولا شكَّ أن هذا العملَ مخالفٌ للشريعةِ المحمَّدية، وفيه تشبيهٌ بأعداءِ الإسلام، وقد جاءت الأحاديثُ الصحيحةُ عن رسولِ الله ﷺ تَنهَى عن الإحداد وتُحذِّرُ منه إلا في حقِّ الزوجة فإنها تُحِدُّ على زوجِها أربعةَ أشهرٍ وعشرًا، كما جاءتِ الرخصةُ عنه ﷺ للمرأةِ خاصةً أن تُحِدَّ على قريبِها ثلاثةَ أيام، أما ما سوى ذلكَ من الإحدادِ فهو ممنوعٌ شرعًا[٢].

ثاني عشر: إخوةَ الإسلام: تذكَّروا موتاكُم ولا يكنْ دفنكم لهم آخرَ العهدِ بهم، فكم هم بحاجةٍ إلى دعائِكم وصَدَقاتِكم وزيارتِكم، وصِلَةِ أصحابِهم، إلى غيرِ ذلك من قُرُباتٍ مشروعةٍ للأموات، فهم رُهنَاءُ في قبورِهم، فلا تَبخَلُوا عليهم وعلى أنفسِكم، ألا وإنَّ بإمكانِكم - معاشرَ الأحياء - أن تتسبَّبُوا اليومَ فيما يعودُ عليكم نفعُه وأَجرُه بعد مماتِكم، وفي هذا يقول ﷺ: «**إنَّ مما يلحقُ**

(١) رواه ابن ماجه، وحسن النووي إسناده في «الأذكار» صالح الخضيري، من فقه الجنائز.
(٢) الفتاوى ١/ ٤١٥، أحمد الزومان: من أحكام الجنائز/ ٢١.

**المؤمنَ من عملِه وحَسناتِه بعد موتِه عِلمًا عَلَّمَه ونَشَرَه، وولدًا صالحًا تركَه، ومُصحَفًا وَورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابنِ السَّبيلِ بناه، أو نهرًا أَجْراه، أو صدقةً أخرجَها من مالِه في صحَّتِه وحياتِه يَلحقُه من بعدِ موتِه»** أخرجه ابنُ ماجه بسند حسن[١].

عبادَ الله: كم تقرَعُ أسماعَنا أخبارُ الموتى، فهذا حريقٌ وهذا غريقٌ، وذاك بحادثٍ، وآخرُ فجأةً، وخامسٌ عانى من المرضِ حتى وفَّى الأجلَ، موتٌ جماعي، وآخرُ فردي، موتٌ في الأطفالِ وفي الشبابِ والشيوخ وعلى مستوى الذُّكرانِ والإناث، لا فرقَ بين الغنيِّ والفقير، والعالِم والأُميِّ، والأميرِ والمأمور، إنه قطارُ الموتِ لا يتوقَّفُ، ومَلَكُ الموتِ لا يُحابي ولا يُنذِرُ، ولا يستبقي حكيمًا لحِكْمتِه ولا كريمًا لكرمِه، أو شجاعًا لشجاعتِه، أو صاحبَ جاهٍ ومنصبٍ لجاهِهِ ومنصبه، كما لا يستعجلُ ربُّكَ أخْذَ ظالمٍ لظُلمِه، بل ربما أخَّره ليومٍ تَشخَصُ فيه الأبصارُ.

إننا نسمعُ كلَّ حينٍ أخبارَ الموتى فنتأثرُ حينَها ثم ننسى، وربما غَرِقنا في همومِ الدنيا فأنسَتْنا الاستعدادَ لحياتِنا الحقيقيةِ، فإن قُلتم: هذا مصابُنا جميعًا فما العلاجُ؟ قلتُ: إليكم هذا الهَدْيَ النبويَّ فاعقِلُوه، يقول ﷺ: «**من جعلَ الهمومَ همًّا واحدًا، همَّ المَعادِ، كفاه الله همَّ دنياه، ومن تَشعَّبت به الهمومُ في أحوالِ الدنيا لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِه هلك**» رواه ابن ماجه بسند حسن[٢].

اللهمَّ ارحَمْ موتانا واشفِ مرضانا، ووفِّقْ للخيرِ أحياءَنا، واختِمْ بالصالحاتِ أعمالَنا.

---

(١) أحكام الجنائز/ ٧٧.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٩٣.

# معالم ووقفات في نهاية العام وعلى أثر الحج[١]

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومنْ يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلامِ: في هذهِ الأيامِ تتسارعُ الساعاتُ والأيامُ مؤذنةً بنهايةِ عامٍ مليءٍ بالأحداثِ والعِبَرِ مثقلة بالرَّزايا والمصائبِ والمحنِ، ومنْ فضلِ اللهِ على هذهِ الأمّةِ أنْ يكونَ ختامُ العامِ على أثرِ حجِّ بيتِ اللهِ الحرامِ، وعلى أثرِ ليالٍ عشرٍ أقسمَ اللهُ بها في كتابِهِ، وجاءتْ سنةُ المصطفى ﷺ مبيِّنةً لفضلِها وأجرِ عملِ الصالحاتِ فيها.

أجلْ إنَّ الحجَّ المبرورَ ليسَ لهُ جزاءً إلا الجنةُ.

ويُقالُ للحاجِّ الموفَّقِ: **«منْ حجَّ للهِ فلمْ يَرْفُثْ ولمْ يفسقْ رَجَعَ كيومِ ولدتْه أمُّه»**[٢].

ولغيرِ الحاجِّ يُقالُ لمنْ عملَ الصالحاتِ في عشرِ ذي الحجّةِ وتقبَّلَ اللهُ منهُ: إنكمْ بلغتُمْ منزلةَ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ، الذي عَقَرَ جوادَه فقاتلَ حتى قُتلَ فلمْ يرجعْ بنفسِه ولمْ يرجعْ مالُه.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٧/ ١٢/ ١٤٢٢هـ.

(٢) أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه، «صحيح الجامع الصغير» ٥/ ٢٨١.

ويقالُ لمنْ صامَ عرفةَ: أليسَ مِنْ رحمةِ اللهِ وفضلِه عليكَ أنْ كفَّرَ اللهُ عنكَ بهذا الصيامِ سنتينِ؟

إذًا صحائفُ الموفَّقينَ والمشمِّرينَ للطاعةِ في هذهِ الأيامِ بيضاءُ، وخطاياهمْ تكفَّرُ والأوزارُ والأثقالُ عنهمْ تُحطُّ وتُغفرُ.. فيَختِمونَ عامَهمْ بخيرِ ما ينبغي أنْ يُختمَ به، وهنا أقفُ مذكِّرًا لنفسي وإخواني بما ينبغي أنْ نكونَ عليهِ دائمًا، وبالأخصِّ حينَ نودِّعُ عامًا أودعْنا فيهِ ما شاءَ اللهُ منَ الصالحاتِ وأخطأنا واقترفنا فيه منَ السيئاتِ ما كتبَ اللهُ.

**المَعلمُ الأول:**

الشكرُ للهِ.. فالشكرُ يزيدُ النِّعَمَ ويُذكرُ بفضلِ المُنعِمِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١)، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(٢)، فمنِ الذي هيّأَ لكَ رحلةَ الحجِّ وأعانكَ على إتمامِ المناسكِ، ورزقَكَ المالَ، وأمدَّكَ بالعافيةِ حتى أتممتَ حجَّكَ وقضيتَ مناسكَك؟ إنهُ اللهُ العليُّ الكبيرُ.. وشكرُكَ للهِ أولًا وآخرًا لا ينبغي أن يُنسيَكَ شكْرَ المخلوقينَ ممن بَذَلَ واجتهدَ في تيسيرِ مناسكِ الحجِّ وأمَّن السُّبلَ وقامَ بخدمةِ الحجيجِ، سواءٌ على مستوى الدولةِ أو على مستوى الأفرادِ والمؤسساتِ.

واشكرْ ربَّكَ كذلكَ إذْ وفَّقكَ وهداكَ لعملِ الصالحاتِ في العَشْرِ، وكمْ منْ محرومٍ أو متكاسلٍ فاتهُ الركْبُ، فلا هوَ في عدادِ الحجّاجِ، ولا هوَ منَ المسابقين للخيراتِ في هذهِ العشرِ، وفوقَ هذا فلا تنسَ الشكرَ للهِ؛ إذْ أعانكَ ويسَّرَ لك عملَ الصالحاتِ في سائرِ العامِ.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

إنَّ الشكرَ عبادةٌ تنبعثُ منَ القلب إقرارًا بفضلِ اللهِ وثناءً عليه وحمدًا للهِ، ثمَّ تنبعثُ الجوارحُ لاهجةً بالذِّكرِ والشكرِ، مُظهرةً فضلَ اللهِ، متحدّثةً بِنِعَمِ الله، وما أحوجَنا -جميعًا- إلى الشكرِ في كلِّ أحوالِنا، وعلى نِعَمِ اللهِ علينا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(١)، وما أعظمَ الشكرَ إذا انبعثَ منَ القلب وصدّقته الجوارحُ.

**المَعْلَم الثاني:**

الاستغفارُ.. والاستغفارُ سنّةُ المرسلينَ ووصيّتُهمْ لأقوامِهمْ منذُ قالَ نوحٌ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٢)، إلى أنْ نزلَ على محمدٍ ﷺ قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾(٣).

والاستغفارُ جاءَ ذكرُه مرادفًا لركنَيْنِ منْ أركانِ الإسلامِ، هما: الصلاةُ والحجُّ، أمّا الصلاةُ فعلى إثر أمره ﷺ وطائفةٍ من المؤمنين معه بصلاة الليل جاء الأمر بالاستغفار: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾(٤) وأولُ ما يَبدأُ المرءُ بهِ بعدَ السلامِ منَ الصلاةِ قولُه: أستغفرُ اللهَ، (ثلاثًا).

وأما الاستغفارُ في الحجِّ فعنهُ قالَ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

(٣) سورة النصر، الآيات: ١-٣.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

أيها المسلمون: الاستغفارُ شعورٌ بالتقصيرِ منْ جانبِ العبدِ، وتَفَضُّلٌ بالصفحِ والعفوِ والمغفرةِ منْ قِبَلِ الخالقِ، ولذلكَ جاءَ الحثُّ على الاستغفارِ في كلِّ حينٍ.. حينَ يعملُ المرءُ المعصيةَ يستغفرُ ربَّه منْ فِعْلها وآثارِها.. وحينَ يعملُ الطاعةَ يستغفرُه عنْ أيِّ خطإٍ أو خللٍ وقعَ فيها.

وللاستغفارِ أثرٌ في تفريجِ الهمومِ وتوسيعِ الضوائقِ وسَعةِ الرزقِ، وفي الحديثِ: «**مَنْ لزمَ الاستغفارَ جعلَ اللهُ لهُ منْ كلِّ ضيقٍ مَخرجًا، ومنْ كلِّ همٍّ فرجًا، ورزقَه منْ حيثُ لا يَحتسبُ**»(٢).

يا عبدَ اللهِ: أفلا يليقُ بكَ ملازمةُ الاستغفارِ في كلِّ حينٍ، وهذا رسولُ الهُدى ﷺ -وقدْ غفرَ اللهُ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وما تأخَّرَ- يقولُ: «**إنه لَيُغانُ على قلبي حتى أستغفرَ اللهَ في اليومِ مئة مرةٍ**»، وفي روايةٍ: «**توبوا إلى ربِّكُمْ، فواللهِ إني لأتوبُ إلى ربي تباركَ وتعالى مئةَ مرةٍ في اليومِ**»(٣).

وقوله: «**يُغانُ على قلبي**» أي: يُغطَّى ويُغشى، والمرادُ به السهوُ؛ لأنه كانَ ﷺ لا يزالُ في مزيدٍ منَ الذِّكرِ والقُربةِ ودوامِ المراقبةِ، فإذا سها عنْ شيءٍ منها في بعضِ الأوقاتِ أو نسيَ عدَّه ذَنْبًا على نفسِهِ ففزعَ إلى الاستغفارِ(٤).

وأينَ أنتَ منْ سيّدِ الاستغفارِ وما جاء فيهِ منَ الفضلِ؟ والرسولُ ﷺ يقول:

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٩٨، ١٩٩.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد (٢٢٣٤)، وصحح إسناده أحمد شاكر «جامع الأصول» ٤/ ٣٨٩ هامش رقم ١.

(٣) رواه مسلم وغيره، «جامع الأصول» ٤/ ٣٨٦.

(٤) السابق ٤/ ٣٨٧.

«سيّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ: اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إلهَ إلا أنتَ، خلقْتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ منْ شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ لكَ بذَنْبي، فاغفرْ لي ذنوبي، فإنهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ».

قال ﷺ: «مَنْ قالها منَ النهارِ مُوقِنًا بها فماتَ منْ يومِه قبلَ أنْ يُمسيَ فهوَ منْ أهلِ الجنةِ، ومَنْ قالَها منَ الليلِ وهوَ موقِنٌ بها فماتَ قبلَ أنْ يُصبحَ فهوَ منْ أهلِ الجنةِ»[(١)].

قالَ ابنُ أبي جَمْرةَ: جمعَ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ منْ بديعِ المعاني وحُسنِ الألفاظِ ما يحقُّ لهُ أنْ يُسمى سيدَ الاستغفارِ، ففيه الإقرارُ لله وحدَه بالإلهيةِ والعبوديةِ، والاعترافُ بأنه الخالقُ، والإقرارُ بالعهدِ الذي أخذَه عليهِ، والرجاءُ بما وَعَدَ به، والاستعاذةُ منْ شرِّ ما جنى العبدُ على نفسِه، وإضافةُ النَّعماءِ إلى مُوجِدِها، وإضافةُ الذَّنْبِ إلى نفسِهِ، ورغبتُه في المغفرةِ، واعترافُهُ بأنهُ لا يَقدرُ أحدٌ على ذلكَ إلا هوَ[(٢)].

وهنا -معشرَ المسلمينَ- يُطرحُ سؤالٌ مهمٌّ، أوْ سؤالانِ مهمَّانِ:

الأولُ منهما يقولُ: ما مدى علمِنا وعملِنا بهذا الحديثِ؟ وهلْ نعتبرُه منْ وِرْدِنا في الصباحِ والمساءِ؟ وهلْ نُعَلِّمُه لأهلِينا وأولادِنا؟

والسؤالُ الآخرُ؟: ما مدى يقينِنا بهذا الذِّكرِ الذي نقولُ والرسولُ ﷺ قيَّد الجنّةَ بهذا الحديثِ لمنْ قالهُ مُوقنًا بماء جاءَ فيهِ؟ تأمّلوا لفظَ الحديثِ وكلماتهِ وردِّدوها في الصباحِ والمساءِ ولا تلهجْ بها ألسنتُكمْ وقلوبُكمْ غافلةٌ، بل اعقِلُوها

(١) أخرجه البخاري والنسائي والترمذي، واللفظ للبخاري (٦٣٠٦).
(٢) الفتح ١١/ ١٠٠.

وأيقنوا بما تقولونَ فيها، قال ابنُ حجرٍ: «موقنًا بها» أي: مخلصًا منْ قَلْبِهِ مصدِّقًا بثوابِها(١).

أيها المسلمونَ: وأنتمْ على مشارفِ عامٍ ستُطوى صحائفُه.. وعلى إثرِ طاعةٍ لا تدرونَ أَقُبلتْ منكمْ أمْ لمْ تُقبلْ.. أفلا يجدرُ بكمْ كثرةُ الاستغفارِ لعلَّ اللهَ أنْ يمحوَ ذنوبًا سلفتْ، ويتجاوزَ عنْ تقصيرٍ وقعَ في طاعةٍ عُملتْ، وطوبى لمن خَتَمَ عملَهُ وعامَه بالاستغفارِ.

يا عبدَ اللهِ: وحينَ تستغفرُ ربَّكَ تذكَّرْ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

وإليكَ هذا الهَدْيَ النبويَّ في قيمةِ الوضوءِ والصلاةِ والاستغفارِ في مغفرةِ الذنوبِ، يقولُ عليٌّ رضي الله عنه: كنتُ إذا سمعتُ حديثًا من رسولِ اللهِ ﷺ نفَعَني اللهُ بما شاءَ أنْ ينفعَني منهُ، وإذا حدَّثني رجلٌ استحلفتُه، فإذا حلفَ صدّقتُه، وإنه حدّثني أبو بكرٍ - وصدقَ أبو بكرٍ - قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **«ما منْ رجلٍ يُذنبُ ذَنْبًا ثمَّ يقومُ فيتطهَّرُ، ويصلِّي، ثمَّ يستغفرُ اللهَ، إلا غفرَ لهُ»** ثمَّ قرأ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٣).

فهلْ يَنفعُك اللهُ -أخي المسلمَ- بهذا الحديثِ كما انتفعَ بهِ عليٌّ وأمثالُه؟ وإنْ فاتَ عليكَ تطبيقُ هذا الحديثِ في شهورٍ خلتْ، فهلْ تطبِّقُه وأنتَ في نهايةِ العامِ

(١) الفتح ١١/ ١٠٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٥. رواه الترمذي، وأبو داود، وإسناده حسن، «جامع الأصول» ٤/ ٣٩٠.

لتستغفرَ ربَّكَ منْ ذنوبٍ وآثامٍ قد تذكرُ بعضَها وقدْ تنسى الكثيرَ منها؟

إنَّ الاستغفارَ أمانٌ منَ العذابِ بإذنِ الله، واللهُ يقولُ -وهوَ أصدقُ القائلينَ-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

نفعني اللهُ وإياكمْ بهَدْيِ كتابهِ وسنّةِ نبيِّه ﷺ، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ، فاستغفروهُ يغفرْ لكمْ.

❁ ❁ ❁

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثمَّ هدى، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، يُحبُّ التوابينَ ويُحبُّ المتطهِّرينَ ويحبُّ المحسنينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرشدَ الأمّةَ إلى ما يَنفعُها في دِينِها ودنياها، وتركَها على مَحجّةٍ بيضاءَ لا يَزيغُ عنها إلا هالكٌ.. اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ النبيِّينَ.

**أيها المسلمونَ: المَعلمُ الثالث:**

ترويضُ النفسِ على الطاعةِ والعبوديةِ للهِ، وتدريبُها وتذليلُها على خصالِ الخيرِ، وفِطامُها عنِ الشهواتِ المُهلِكةِ والأهواءِ المضلِّلةِ، لا سيما بعدَ أنْ أَلِفتِ الطاعةَ وعاشتْ مناسباتٍ إيمانيةً غاليةً، وما أحوجَ العبدَ إلى العبوديةِ والاستعانةِ، فالعبوديةُ هي الغايةُ التي خُلقَ الخَلْقُ لها، والاستعانةُ وسيلةٌ إليها، وتأمَّلوا هذهِ الآيةَ التي نتلوها في كلِّ صلاةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

وما أعظمَه منْ دعاءٍ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لوْ تأمَّلَهُ وعملَ بهِ المسلمونَ، فلا عبوديةَ إلا للهِ، ولا استعانةَ إلا باللهِ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: تأمَّلتُ أنفعَ الدعاءِ، فإذا هوَ سؤالُ العونِ على مرضاتهِ، ثمَّ رأيتُه في الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهناكَ سُنّةٌ منْ سننِ اللهِ في خَلْقهِ ينبغي التفطُّنُ لها، فكلُّ مَنْ أعرضَ عنْ عبوديةِ اللهِ لا بدَّ أنْ يقعَ في العبوديةِ لغيرِه، وكلُّ مَنْ لمْ يستعن بهِ وحدَه تورّطَ في

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

الاستعانةِ بغيرِهِ، وفرْقٌ بينَ العبوديةِ للهِ والاستعانةِ بهِ، وبينَ العبوديةِ والاستعانةِ بغيرِهِ.

فالمشركونَ الذينَ تكبَّروا عنْ عبادةِ اللهِ وحدَه رَضُوا لأنفسِهِمْ بعبادةِ الأشجارِ والأحجار، أوْ ما شابَهها منْ آلهةٍ لا تملكُ لهمْ نفعًا ولا تدفعُ عنهمْ ضُرًّا.

وإبليسُ تكبَّرَ عنِ السجودِ لآدمَ، فأورثَه اللهُ ذُلًّا ومهانةً في الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، ومَنْ رغبَ عنْ إنفاقِ مالِهِ في طاعةِ الله ابتُلي بإنفاقِهِ لغيرِ اللهِ وهوَ راغمٌ، وهكذا مَنْ نقصتْ محبّتُه لربِّه تعلَّق قلبُه بغيرِ اللهِ، فتفرقتْ به الأهواءُ. ومَنْ نقصَ خوفُه منْ ربِّه خافَ منْ غيرِهِ، ومنْ نقصَ رجاؤهُ لربِّه تعالى تعلَّقَ قلبُه بغيرِ اللهِ فصارَ يرجوهُ في جَلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضررٍ لا يقدرُ عليهِ إلا اللهُ.

أيها المسلمون: إنَّ الأبرارَ في نعيمٍ في الدنيا، وهمْ في الآخرةِ أعظمُ نعيمًا وأبقى.

إنَّ النفسَ ذلولٌ لصاحبها، فإنْ ذلَّلها للخيرِ ودرَّبَها عليهِ استقرَّتْ واستقامتْ، وإنْ هيَ ذُلِّلتْ للشرِّ وتُركتْ ترتعُ أَلِفَتْ ذلكَ وأصابَها منَ القلقِ والهمومِ والأوهامِ والضيقِ والضَّنكِ ما اللهُ بهِ عليمٌ.

ألا فتأمَّل نفسَكَ أيها الناصحُ! وانظرْ ما أنتَ فيه، ووعدُ اللهِ حقٌّ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[(١)].

**المَعلمُ الرابعُ:**

قيمةُ الحياةِ، وقدْرُ الزمنِ، والفراغُ القاتلُ، ذلكَ معلمٌ رابعٌ لا بدَّ أنْ تُقدرهُ في كلِّ حينٍ، ولا سيما حينَ تُحاسبُ نفسَكَ في نهايةِ العامِ.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

نَعَمْ إنَّ الحياةَ ليستْ لهوًا ولعبًا وأكلًا وشربًا وضحكًا وأُنسًا ثمَّ لا شيءَ بعدهُ، وإنَّ الزمانَ مسؤوليةٌ وميدانٌ للحرثِ.

أمّا الفراغُ فهوَ قاتلٌ بطيءٌ، سواءٌ كانَ فراغًا عقليًا، يعيشُ صاحبُه بلا هدفٍ، أو فراغًا قلبيًا حينَ يفرغُ القلبُ منَ الإيمانِ الحقِّ ولذةِ العبوديةِ والطاعةِ لله، أوْ فراغًا نفسيًا بحيثُ تحيطُ بهِ الشكوكُ والأوهامُ وتقتلُه الظنونُ والوساوسُ.

يا مسلمُ يا عبدَ اللهِ! إنَّ منْ فضلِ اللهِ عليكَ أنكَ تختلفُ عنْ غيرِكَ في تقديرِ قيمةِ هذهِ الحياةِ. . وتختلفُ عنْ غيركَ في الإيمانِ بالحياةِ الحقيقيةِ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وكمْ يهزُّك هذا الحديثُ النبويُّ حينَ تُرعى له سمْعَك وجوارحَكَ، والرسولُ ﷺ يقول: «**لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عنْ أربعٍ: عنْ عُمرِه فيما أفناهُ، وعنْ شبابِهِ فيمَ أبلاهُ، وعنْ مالِه منْ أينَ اكتسبَه وفيمَ أنفقهُ، وعنْ عِلْمِهِ ماذا عملَ بهِ**»[2].

إنَّ العُمرَ أمانةٌ، والشبابَ والطاقةَ أمانةٌ، والمالَ أمانةٌ، والعلمَ أمانةٌ. . ويومَ تَرعى هذه الأماناتِ كلَّها وتعتقدُ أنك مسئولٌ عنها فذلكَ بدايةُ الفلاحِ، ومؤشِّرُ السعادةِ، وفرْقٌ بينَ هذا الصنفِ الواعي لرعايةِ هذه الأماناتِ أوْ سواها مما ائتمنَ اللهُ، وبينَ مَنْ يخوضُ ويلعبُ، ويتخبَّطُ حتى تفجأه المنيّةُ، ويثويَ العمرُ، ويَنخرمَ الشبابُ، ويُورثَ المالُ.

أيها المسلمُ: شابًا كنتَ أوْ شيخًا أنتَ على خيرٍ ما دمتَ ترعى حقوقَ اللهِ وتأتمرُ بأمرِه وتنتهي عندَ نواهِيهِ، فالشابُّ الذي ينشأ في طاعةِ اللهِ أحدُ السبعةِ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي وغيره.

الذين يظلُّهمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه.

والشيخُ الذي شابَ في الإسلامِ لهُ أجرُه ونورُه، وفي الحديثِ الصحيحِ قالَ ﷺ: «**والشيبُ نورُ المؤمنِ، لا يَشيبُ رجلٌ شيبةً في الإسلامِ إلا كانتْ له بكلِّ شيبةٍ حسنةٌ، ورُفع بها درجةً**»(١).

أيها المسلمونَ: اختموا عامَكمْ بالتوبةِ والاستغفارِ، والذِّكرِ والشكرِ والعزيمةِ على الرُّشدِ والغنيمةِ منْ كلِّ برٍّ، والسلامةِ منْ كلِّ إثمٍ، واسألوا ربَّكمْ السلامةَ منَ الفتنِ، والعفوَ والعافيةَ.

واحرصوا على الإكثارِ منْ عملِ الصالحاتِ في أيامِ نهايةِ العامِ، لعلَّ اللهَ أنْ يرفعَ درجاتِكمْ ويكفِّرَ عنْ سيئاتِكمْ، والأعمالُ بالخواتيمِ.

وادعوا ربَّكمْ أنْ يتقبلَ طاعاتِكمْ، ويغفرَ ذنوبَكم، فليسَ الشأنُ عَمَلَ الصالحات، وإنما الشأنُ كلُّ الشأنِ في القَبُولِ، واللهُ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وكانَ سلفُ الأُمَّةِ يَجتهدونَ في عملِ الطاعة فترةً منَ الزمنِ، ثمَّ يَجتهدونَ فترةً أخرى في الدعاءِ وسؤالِ اللهِ القَبولَ، وما يزال العبدُ يدعو ويتضرَّعُ ويستغفرُ حتى يستجيبَ اللهُ دعاءَه ويغفرَ ذَنْبَه ويرفعَ درجتَه.



(١) «السلسلة الصحيحة» للألباني (١٢٤٣).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

# الوصايا والوقف الناجز[1]

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: الأوقافُ والوصايا ماذا يُعلَمُ عنها، وبماذا يُعملُ؟

ما هي أغراضُها؟ وما منافعُها؟ كيف كان هديُه ﷺ فيها؟ وكيف كان هديُ سلفِ الأُمةِ من بعدِه فيها؟ ما الوقفُ الناجزُ وما الوقفُ المؤجَّل؟ ما هي الأخطاءُ والسلبيّاتُ التي تحصلُ في بعضِ هذه الأوقافِ وكيف الحلُّ، وهل يمكن أن تُستثمَرَ الأوقافُ والوصايا لدعمِ الدعوة لدينِ الله والجهادِ في سبيلِه، وتُعمَّمُ مصالحُها؟ إلى غيرِ ذلك من أسئلةٍ مهمَّةٍ تتعلَّقُ بالأوقافِ والوصايا، وهنا وقبلَ الإجابةِ على هذه الأسئلةِ لا بدَّ من القولِ: إن الأوقافَ والوصايا في الإسلامِ مظهرٌ من مظاهرِ البرِّ والإحسان، وصورةٌ رائعةٌ من صورِ التكافلِ الاجتماعيّ.. يستشعرُ معها أهلُ اليَسَارِ والغِنى حاجةَ إخوانِهم المسلمين لأمرٍ من الأمورِ فيُوقِفُون ويُوصُون من أموالِهم ما يَخدُمُ غيرَهم من المحتاجين، ويسدُّ حاجتَهم.

إنَّ الوقفَ سنَّةٌ نبويةٌ سارتْ عليه الأُمةُ في عصورِها الزاهيةِ وإلى يومِنا هذا،

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٤/ ١٢/ ١٤٢٢هـ.

وسيظلُّ ما بقيَ الدِّينُ قائمًا والمسلمون أحياءً.

والوقفُ نوعٌ من أنواعِ الصدقةِ في الإسلام، ويُعرَفُ بأنه حبسُ الأصلِ وتسبيلُ منفعتِه.

وقد أرشدَ النبيُّ ﷺ إليه نفرًا من الصحابةِ جاؤوا يستشيرونَه، ففي «صحيح البخاريِّ» وغيره: أن عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه أصاب أرضًا بخيبرَ، فأتى النبيَّ ﷺ يستأمرُه فيها، فقال: يا رسولَ الله، إني أصبتُ أرضًا بخيبرَ لم أُصِبْ مالًا قطُّ أنفسَ عندي منها، فما تأمرُ به؟ قال: «**إن شئتَ حَبَستَ أصلَها وتصدَّقتَ بها**» قال: فتصدَّقَ بها عمرُ أنه لا يُباعُ ولا يُوهب ولا يورَثُ، وتصدَّقَ بها في الفقراءِ وفي القُربَى، وفي الرِّقاب، وفي سبيلِ الله وابن السبيل، والضيفِ، ولا جُناحَ على مَن وَلِيَها أن يأكلَ منها بالمعروف ويُطعِمَ غيرَ متموِّلٍ[1].

عبادَ الله: هذه مشروعيةُ الوقفِ وبعضُ منافعِه، كما في وصيةِ عمرَ ومَشُورةِ محمدٍ ﷺ، وهذا نموذجٌ من نماذجِ الوقفِ في عصرِ النبوة.

وإليكم نموذجًا آخرَ والمشيرُ فيه كذلك رسولُ الهدى ﷺ في قصةِ أبي طَلْحةَ رضي الله عنه وبَيْرَحاءَ، فعند أحمدَ والبخاريِّ ومسلمٍ عن أنس لما نزلتْ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[2] جاء أبو طلحةَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، يقول تعالى في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرَحاءُ، قال: وكانت حديقةً كان رسولُ الله ﷺ يدخلُها ويستظلُّ بها ويشربُ من مائِها - فهي إلى الله عز وجل وإلى رسولِه ﷺ أرجو بِرَّه وذُخْرَه، فضَعْها -أيْ رسولَ الله- حيثُ أراكَ اللهُ، فقال

(١) البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢)، وأحمد ٢/ ١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

رسولُ الله ﷺ: **«بخ يا أبا طلحةَ، ذلك مالٌ رابحٌ، قَبِلْناه منكَ، ورَدَدْناه عليكَ، فاجعَلْه في الأقربينَ»** فتصدَّقَ بها أبو طلحةَ على ذَوِي رحمِه - وفي لفظٍ: فَقَسَمَها أبو طلحة في أقاربِه وبني عمِّه»[1].

أيها المسلمون: ومن خلالِ هذينِ النموذجينِ في الأوقافِ والصدقاتِ تتبيَّنُ الأمورُ التالية:

١- إن هذا الجيلَ كان حريصًا على الخيرِ والبَذْل، والدليلُ على ذلك أنهم كانوا يَبذُلون أغلى ما يَملِكون، ومن رامَ التشبَّهَ بهم فليتخلَّصْ من شُحِّ نفسِه، وليستجيبْ لنداءِ ربِّه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

٢- وإنَّ الوقفَ أو الصدقةَ الناجزةَ أَوْلى من الوقفِ بعد المماتِ ولماذا؟ لأن في ذلك انتصارًا على شُحِّ النفس، فالحيُّ يخشى الفقرَ ويأملُ الغِنى بعكس الميتِ، فالمالُ من بعدِه للوارثِ.

٣- ولأن المُوقِفَ يَرى في حياتِه أثرَ وقفِه ويتصرَّفُ فيه بما يُصلِحُه ويُدِيم نفعَه، ومهما بلغَ الوارثُ من الحرصِ على وقفِ مورِّثِه أو وصيتِه فلن يكونَ بدرجةِ حرصِ المُوقِف نفسِه.

٤- بل ربما تعرَّضَ الوقفُ المؤجَّلُ إلى معوِّقاتٍ ومشاكلَ، والواقعُ يشهدُ على تعطُّلِ منافعِ عددٍ من الوصايا والأوقافِ، بل ربما زادَ الأمرُ فأحدثتْ هذه الوصايا والأوقافُ من المشاكلِ بين الوَرَثةِ والقطيعةِ بين الأرحامِ ما يَندَى له الجبينُ.

إخوةَ الإسلام: ولا نعني بذلك التحذيرَ من الأوقافِ والوصايا المنفَّذةِ بعد المماتِ، فالوصيةُ بجزءٍ من المال بعد الموتِ أمرٌ مشروعٌ لقوله ﷺ: **«الثلثُ**

(١) البخاري (٢٧٥٨)، ومسلم (٩٩٨)، وأحمد ٣/ ١٤١.

والثلثُ كبيرٌ»(١)، ولكنّ المقصودَ التنبيهُ إلى ما قد يَغفُلُ عنه كثيرٌ من الناسِ حين يعتقدون أن كلَّ صدقاتِهم لا تُنفَّذ إلا بعدَ المماتِ، أو أن الوقفَ لا تسري منافعُه حتى يموتَ مُوقِفُه -فذلك الخطأُ الذي ينبغي التنبيهُ له، وينبغي أن يستشعرَ الأغنياءُ قيمةَ وأهميةَ ونفعَ الوقفِ الناجزِ، ولئِنْ كان الواقعُ يشهدُ بوجودِ هذا النوعِ من الأوقافِ الناجزة- فلا يزالُ عددٌ من الأغنياءِ لا يعتمدونَ هذا النوعَ من الأوقاف.

وواقعُ المسلمين الحاضرُ يشهدُ على الحاجةِ لذلك، فكم من الفقراءِ والمحتاجين في الداخلِ أو في الخارجِ يحتاجون إلى إنفاقٍ دائم، ومع ما تقومُ به الجمعياتُ والمؤسساتُ الخيريّةُ، وما يقومُ به الأغنياء من أُعطِيَاتٍ وصدقاتٍ، إلا أنَّ هذه الأوقافَ -حين توجدُ وتتكاثرُ- ستسدُّ حاجةً كبيرةً لهؤلاء.

والدعوةُ إلى اللهِ بمشاريعِها الواسعةِ وبنفقاتِها المتعدِّدةِ تقومُ اليومَ في عددٍ من الدولِ والمؤسَّساتِ على صدقاتٍ مقطوعةٍ، ومعوناتٍ متقطِّعةٍ يُؤثِّرُ توقفُها أو ضعفُها على انتشارِ الدعوة ونشاطِ الدعاة، وحين تتكاثرُ الأوقافُ الناجزةُ والهِبَاتُ والعطايا العاجلةُ، لا شكَّ أنها تُسهِم في نشاطِ الدعوة وحيويةِ الدعاة. وستظلُّ هذه الأوقافُ المحبوسةُ الأصولِ موردًا للدعمِ ما بقيتْ هذه الأوقافُ.

إنَّ طباعةَ الكتبِ وتوزيعَ الأشرطةِ النافعةِ تحتاجُ إلى دعمٍ مستمرٍّ، وإطعامَ الجَوْعى وسقيَ العَطْشى، وتأمينَ الغذاءِ والكساءِ لمن يحتاجُ إلى استمرارِ الصدقاتِ وتدفُّقِ التبرُّعات، والأوقافُ والوصايا ينبغي أن تُسهِمَ بتمويلِ هذه المشاريع لصالحِ الدعوةِ وحمايةِ المسلمين من مَعُونةِ غيرِ المسلمين، إذِ المعونةُ من غيرِ المسلمين تسيرُ في الغالبِ لأهدافٍ تنصيريةٍ أو على الأقلِّ لطمسِ معالمِ الهُويةِ المسلمةِ.

أيها المسلمون: إنَّ المتأملَ في تاريخِ المسلمين يرى أنَّ هذه الأوقافَ

---

(١) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

ساهمتْ في بناءِ المساجد، والإنفاقِ على المجاهدين وأصحابِ الثُّغور، وإصلاحِ الطرق، وشقِّ الأنهار، وحفرِ الآبار، وإطعامِ الطعامِ وخدمةِ المسافرين، وفي خلافةِ عمرَ ﷺ أمر باتخاذِ دورٍ للطعامِ من دقيقٍ وغيرِه لعابِرِي السبيلِ والمنقطِعين[١]. وشَمِلَتْ هذه الوصايا والأوقافُ خدمةَ الموتى، وذلك بوقفِ المقابرِ، بل تجاوزتْ وصايا وأوقافُ المسلمين إلى غيرِهم من أهلِ الذِّمَّة رحمةً وتأليفًا لهم ودعوةً للإسلام، فقد نُقِلَ أمرُ عثمانَ وعليٍّ ﷺ بحفرِ أنهارٍ لأهلِ الذمة، ويُروى أن عليًا ﷺ كتبَ إلى أحدِ أمرائِه يقول: «أما بعدُ، فإن رجالًا من أهلِ الذمةِ من عملِك ذكروا نهرًا في أرضِهم قد عَفَا وادَّفنَ، وفيه عِمارةٌ على المسلمين، فانظُرْ أنتَ وهُم، ثم اعمُرْ وأصلِحِ النهرَ، فلَعَمْري لأنْ يعمروا أحبُّ إلينا من أن يخرجوا، وأن يَعجِزوا أو يُقصِّروا في واجبٍ من صلاحِ البلادِ، والسلام».

نعم إنَّ الأوقافَ كما تكونُ من الأفرادِ تكونُ من الدولِ، وكما تكون من الأغنياءِ تكونُ من غيرِهم، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ ﷺ لا يملكُ كما يملكُ غيرُه من الضِّياع والأموال.. لكنه يُوقِفُ أغلى ما يملكُ آلتَه وسلاحَه وعتادَه الحربيَّ، ويُثْني رسولُ الله ﷺ على خالدٍ ويقول: «**إنَّكم تَظلِمونَ خالدًا وقد احتَبَسَ أدراعَه وأعتادَه في سبيل الله..**» رواه مسلم[٢].

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[٣].

---

(١) تاريخ عبد الملك بن حبيب، ١٠٦.

(٢) في كتاب الزكاة: باب تقديم الزكاة، ح(٩٨٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

## الخطبة الثانية:

إخوةَ الإسلام: ومن فضلِ اللهِ علينا - معاشرَ المسلمين - أننا نُوقِفُ ما نوقفُ من مالِ اللهِ الذي آتانا، ثم يَأجُرُنا اللهُ على ما نُوقِفُ من مالِه وغيرُنا يوقِفُ، ولا يُؤجَر، ممن قال اللهُ عنهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[١].

أجلْ، إنَّ الوقفَ كان قبلَ الإسلام، والأوقافَ كانت عندَ غيرِ المسلمين، فالمَجُوسُ والنصارى كانت لهم أوقافُهم.. ولكم أن تَعجَبُوا حين تعلمونَ أنَّ الملوكَ والعامَّةَ من هؤلاءِ القوم الكافرين - كانوا يتنافسون على تخصيصِ الأملاكِ المختلفةِ التي تُدِرُّ الأموالَ على رجالِ المجوسيّةِ ومعابِدِها، وعلى طبقةِ الأشرافِ والدهاقين.

ولكم أن تَعجَبُوا كذلك حين تعلمونَ أنَّ العربَ كانوا يُوقِفُونَ بعضَ أموالِهم على أصنامِهم، أو على أماكنَ معيَّنةٍ لمناسباتْ خاصَّةٍ كالحج وغيرِه[٢].

ويزدادُ العجبُ حين تعلمون أنَّ عددًا من النصارى واليهود اليومَ يُوقِفُون ويُنفِقون الكثيرَ من أموالِهم لخدمةِ دينِهم والدعوةِ إلى معتقداتِهم؟!

ويقولُ أحدُ التقارير: إن النصارى - وفي أمريكا فقط - يتبرَّعونَ للكنيسةِ بنحو ستينَ ألفَ مليونِ دولارٍ سنويًا؟

أفيكونُ المسلمون أقلَّ من غيرِهم في خدمةِ دينِهم والتبرُّعِ والإنفاقِ في سبيلِ الدعوةِ لإسلامهم؟

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٢) البلاذري: «أنساب الأشراف»، تحقيق محمد حميد الله (١/ ٧٨، ٩٩)، «المفصل»: جواد (٦/ ٢٥١).

عبادَ الله: وهناك مفهومٌ خاطئٌ حين يظنُّ البعضُ أن الأوقافَ لا تكون إلا من الأغنياءِ أو من كبارِ السن، والحقُّ أن الأوقافَ أو الوصايا تكونُ من الشبابِ، ومن متوسِّطي الحالِ، وسواءً كانوا من الرجالِ أم النساء، وقد نقَلَ صاحبُ «المُغْني» عن جابرٍ ﷺ قال: لم يكن أحدٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ ذو مَقدِرةٍ إلا وقَفَ. فإن قيل: وكيف يُوصِي أو يُوقِفُ شابٌّ لا يملكُ إلا مرتَّبًا شهريًا قد لا يأتي الشهرُ إلا وقد احتاجَ للمرتَّب الآخَر، أو شخصٌ مكتسِبٌ يُحصِّلُ كلَّ يوم ما يكفيهِ ومَن يَعُول؟ وليس لديه رصيدٌ ثابتٌ يُوقِفُ منه؟ وهنا أُجيبُ وأذكِّر بوسيلةٍ وَقْفيةٍ غير مُكلِفة ولا مُرهِقة، وهي على المدى البعيدِ وبالتعاونِ مع الآخرين ذاتُ أثرٍ وفاعليةٍ وجدوى، وذلك حين يتَّفقُ مجموعةٌ (ذكورًا كانوا أم إناثًا) على اقتطاعِ جزءٍ يسيرٍ من دَخْلِهم الشهريِّ ولمدةٍ معيَّنةٍ سنتين أو ثلاثًا أو خمسًا أو أقلَّ أو أكثر، حتى إذا اجتمعَ لديهم المبلغُ المحصَّلُ جعلوه وَقْفًا يحبسون أصْلَه ويُنفِقون من رَيْعِه على أيِّ مشروع يَخدُمُ دينَ الله أو يُسهِمُ في مساعدةِ المحتاجين، وما أكثرَ المشاريعَ الخيريةَ التي تحتاجُ إلى دعمٍ! وما أكثرَ المحتاجين إلى المساعدةِ! ويمكن لأصحابِ هذا الوقفِ أن يجعلوا نفقةَ رَيْعِه عامةً، أو يُخصِّصوها على مشروعٍ معيَّن.

إننا بهذِه الطريقةِ الوَقْفيةِ الجماعيةِ سنسُدُّ ثَغراتٍ محتاجةً، وسنتيحُ الفرصةَ لكلِّ راغبٍ في الوقف - مهما كان دخلُه - أن يوقِفَ، وهذه من باب التعاونِ على البِرِّ والتقوى، ونحن مأمورون بذلك، وبهذه الطريقةِ الوقفيةِ التعاونيةِ لن تعودَ الأوقافُ قصرًا على الأغنياء وكبارِ السن، بل ستشملُ شريحةً عريضةً في المجتمعِ هم الموظَّفون والمدرِّسون والمدرِّساتُ، وستشملُ كذلك المتسبِّبين وأصحابَ الحِرَف الأخرى، فهل نستجيبُ لنداءِ ربِّنا ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وهل نفكِّرُ جميعًا بحاجة الفقراءِ والمساكين

ونُسهِمُ في علاجها، وهل نستشعرُ جميعًا حاجةَ الدعوة إلى دين الله إلى الدعمِ الماديِّ فنَنشَطُ في الدعوةِ بأموالِنا - إن قصَّرْنا في الجوانبِ الأخرى.

إننا جميعًا قد نُدعَى للإنفاق الطارئ لمشروعٍ أو لآخرَ فنستجيبُ، وهذا الإنفاقُ بأَجْرِه، وسيجد المنفقُ المخلِصُ أَجْرَه وثوابَه عندَ الله أحوجَ ما يكونُ إليه، ولكنَّ الإنفاقَ المستديمَ عن طريقِ الأوقاف أَوْلى وأَدْوَمُ من الإنفاق المتقطِّع.

وكم يَسعَدُ الإنسانُ حين يرى مساهمتَه في الخيرِ وهو حيٌّ، وكم يُسَرُّ حين يرى أن مالًا يسيرًا في البدايةِ اقتطعه، ثم أصبح يُثمِرُ ويستثمَرُ في صالحِ الدعوة إلى دينِ الله.

وكم هو مؤلمٌ حين نسمعُ عن أخبارِ بعض الوصايا المنفَّذة بعدَ المماتِ، مما يعتريها من مشاكلَ، وما يَعُوقُها عن التنفيذ، وقد حُدِّثتُ أن شخصًا مُوسِرًا أوصى بثلثِ مالِه بعد مماتِه، وهذا الثلثُ نحو ستين مليونًا، وقد مضى على وفاتِه قُرابةُ عشرِ سنوات ولم يُستفَدْ حتى الآن من ثلثِه شيءٌ . . لا لشيءٍ إلا لاختلافِ ورثتِه، وإلا فالوصيةُ مكتوبةٌ، وبموجبِ صكٍّ شرعيٍّ مضبوطٍ . . لكن هكذا يَجْني الورثةُ أحيانًا على مورِّثِهم.

فهل يعتبرُ الأحياءُ من أحوالِ ووصايا بعضِ الأموات؟ فيُنجِزونَ أوقافَهم في حياتِهم.

وكلمةٌ أخيرةٌ أيها الشابُّ: هل تضمنُ حياتَك حتى تبلغَ المشيبَ فتوصى أو توقِفَ؟ وأيها المتوسطُ الحالِ إياك أن يخدعَك الشيطانُ بالانتظارِ في الوصيةِ أو الوقفِ حتى تبلغَ مبلغًا من الغِنى . . بل عليكم بالبِدَارِ ببذلِ الخير حسبَ القُدْرةِ، فلا تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا.

أيها المسلمون: ومما ينبغي التنبُّهُ إليه في الوصايا أن حوائجَ الناسِ اليومَ تختلفُ عن حوائجِهم بالأمسِ، ولذا ينبغي للمُوصِي حين يكتبُ الوصيةَ أن يجتهدَ في كتابتها بعباراتٍ تُوسِّع دائرةَ استخدامِها وتعمِّمُ نفعَها في الحاضرِ والمستقبل، حتى لا يُقيَّد المنفِّذون للوصيةِ بعباراتِ الموصي المحدَّدةِ، من مثلِ عبارةِ: سدِّ حاجةِ المحتاجين، ودعمِ الدعوةِ إلى دين الله، وتعليمِ كتاب الله، ونشرِ العلم النافعِ، وما يستجدُّ من حوائجَ للمسلمين، فمثلُ هذه العبارات توسِّعُ الدائرةَ وتزيدُ من نفعِ الوصيةِ بإذن الله.



# على هامش الحدث
# (مقارنات ومفارقات)[١]

## الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلام: وعلى هامشِ أحداثِ الدَّمْج الأخير، دَعُونا نقفْ على مقارناتٍ مُعبِّرة، ومفارقاتٍ غريبةٍ، فالشيءُ بضدِّه يُعرَفُ، والحقُّ يَكشفُ الباطلَ ويُزهِقُه.

**أولًا: المرأةُ بين قَتْلينِ:**

نعم لقد قَتَلت الجاهليةُ الأولى المرأةَ خشيةَ الفقرِ أو العار، وبلغ من جَفاءِ أهلِ الجاهلية الأولى أن يقتلَ الرجلُ ابنتَه وهي حيّة، وربما نَفَضَت التُرابَ العالقَ بلحيتِه وهو يدفنُها، ومهما حُمِدَ لهؤلاء الجاهليّين غَيْرتهُم على محارِمهم وتخوّفُهم من العارِ الذي يَصِمُهم، فلا شكَّ بمسلكِهم الخاطئ، فلقد أنكر القرآنُ صنيعَهم، وأنزل اللهُ ذمَّ تصرُّفاتِهم في قرآنٍ يُتلَى إلى يومِ القيامة ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٢].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ١/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٨، ٩.

ولكنَّ هذا القتلَ يتكررُ للمرأةِ في الجاهليةِ المعاصرة، وبصورةٍ أخرى، إنها تُقتَلُ في حيائِها وعفَّتِها، وتُوأَد في صَونِها وكرامتِها، وهل أعظمُ من وأدِ القيمِ والأخلاق؟

ومن تأمَّلَ واقعَ المرأة في كثيرٍ من البلدان أبصرَ كيف قُتِلَت المرأةُ وإن جاءت بلهجةِ التحرير، أو تحتَ عباءَةِ المطالبةِ لها بالحقوقِ، أو نحوِ ذلك من عباراتٍ فَضْفاضةٍ تخدعُ الدهماءَ والبسطاءَ، ويعلمُ زيفَها الراشدون من الرجالِ والنساء.

ولئن كان هناك تشابهٌ بين الوأْدَينِ، فهناك اختلافٌ بين الموءودةِ في الجاهليتينِ، إذِ المرأةُ في الأولى لم ترضَ بل ولم تُستشَرْ، وإلا لكان لها رأيُها وموقفُها.. ولكنَّ المصيبةَ حين تُدخَلُ المرأةُ المعاصرةُ في نفقٍ مظلمٍ تُبصِر أولَه، ولا تدري ما نهايتُه، وربما خُوِّفت النهايةَ، فخدعها بريقُ البدايةِ، أو دُفعت بالقوةِ لدخولِ النفق.. ألا فانتبهي أُختي المسلمةَ إلى الوأدِ الجديد، واحذري لصوصَه الماكرين.

**ثانيًا: بينَ التصريحاتِ المسكِّنة والمواقفِ المحفوظة..!**

فالناسُ وإن فَرِحوا بكل تصريح يُهدِّئ ويسكِّن، ويَعِدُ بالمحافظةِ على هُويةِ المرأةِ في تعليمها، وعدم تسلُّق الحصون سعيًا إلى اختلاطِها.. فهم كذلك يحتفظون بمواقفَ منكَرة، وحواراتٍ وتصريحاتٍ قديمةٍ وحديثةٍ مقلقةٍ، تطرحُ الاختلاطَ في الصفوفِ الأولى، وتقترحُ الأنديةَ للنساء، وترى إدخالَ التربيةِ البدنية في مدارسِ البنات.. أو نحوِ ذلك من طروحاتٍ حُفظت عن أشخاصٍ نافحوا عنها، فهل التصريحاتُ الأخيرةُ نسخًا للأفكارِ القديمة، فذلك حسنٌ، أم هي تهدئةٌ مؤقَّتة، وانحناءٌ للعاصفةِ، فذلك الذي لا يُقبَل، وإحسانُ الظنِّ مطلَب، واليقظةُ وعدمُ التغفيلِ مطلبٌ آخرُ.

**ثالثًا: بين إعلامِنا وإعلامِ الغرب؟**

كم هو مؤسفٌ حين يكونُ الإرجاف في إعلامِنا، وتضخيمُ الأحداثِ، وتشويهُ الحقائقِ سبيلًا لتهجُّم الإعلامِ الغربيِّ على بلادِنا، وفرصةً لغيرِ المسلمين لتشويهِ إسلامِنا وأخلاقِنا.. فقد نشرت مجلةُ (الماريان) الأسبوعيةُ الفرنسيةُ مقالًا في عددِها الأسبوعي (٢٥- ٣١ مارس ٢٠٠٢) تحت عنوان:

[خمسَ عشرةَ طالبةً أُحرقنَ أحياءً لأنهن لم يرتدينَ الحجابَ!] وكتبتْ تحتَ المقالِ تقول: في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ حريقٌ في مدرسةٍ نجتْ منه المبادئُ الأخلاقيةُ فماتتِ الطالباتُ، ثم تقول: عندما شبَّ حريقٌ في مدرسةٍ للبناتِ في مدينةِ مكة استعدَّ رجالُ الإنقاذِ والدفاعِ المدنيِّ للتدخل، ولكن بالنسبة لممثِّلي الشرطةِ الدينية المكلَّفين بالمحافظةِ على احترام نظامِ الأخلاقِ في المملكةِ كان فصلُ الرجالِ عن النساء يأتي في المقامِ الأولِ وقبلَ كلِّ شيء، مهما كانت الظروفُ، حتى لو كلَّفَ الأمر حياةَ الأبرياء! ثم تقولُ المجلَّة: وفي مواجهةِ أَلْسنةِ اللهبِ مَنَعَت هذه الشرطةُ المشؤومةُ (الهيئةُ) المتيقِّظةُ جدًا حولَ هذا الموضوعِ، منعت الطالباتِ من الخروجِ من المدرسة التي تحترقُ، لأنهنَّ نَسِينَ -في خِضَمِّ المعمعةِ- أن يرتدين الحجابَ، مع أنه لباسٌ إسلاميٌّ إجباريٌّ في المملكة- وبنفسِ التفكيرِ منعَ هؤلاءِ الغيورون وحُماة الأخلاقِ الحميدةِ أفرادَ الدفاعِ المدنيِّ من الذكورِ من دخولِ هذه المدرسةِ لإنقاذِ الطالبات خوفًا من أن يَحدُثَ اختلاطٌ بين الرجالِ والنساء؟ إلى أن تقولَ المجلةُ: الحصيلة: وفاةُ خمسَ عشرة طَالبةً، وجرحُ خمسين.. إلخ.

أيها الإخوةُ: نحن وإنْ رأَيْنا هذا الهجومَ من إعلامٍ في بُلدانٍ تدَّعي العدالةَ وخدمةَ الحقيقةِ، فلا غرابةَ أن يقعَ ذلك من غيرِ إعلامِنا، ومن قومٍ أعداءٍ لنا، ودينُهم غيرُ دينِنا، وأخلاقُهم غيرُ أخلاقِنا.. ولكن المستغربَ حقًّا أن يصدرَ مثلُ

ذلك في إعلامِنا ومن بعضِ كتّابنا، ألم يقل بعضُهم في وصفِه للهيئات (هيئةُ الأمرِ بالموتِ والنهيِ عن الحياة) ألم يُشنِّع آخرون -من هؤلاء الكَتَبةِ- في رجالاتِ الرئاسة وقالوا: إنها رئاسةُ (قتل البنات) وقالوا كذلك: إن الرئاستين معًا تعاونتا على تقليصِ الكائناتِ التي تُشكِّلُ عارًا على الفحولةِ، وذلك بتطبيق المثل الصعيديِّ القائل: (النارُ ولا العارُ)[1].

أوليسَ من الخللِ أن يكونَ في صحفِنا مادةٌ سيئةٌ يتكئ عليها الإعلامُ الغربيُّ في تشويهِ صورةِ إسلامِنا وسمعةِ بلادنا؟

أوليسَ من العيبِ أن نتهجَّمَ على أنفسِنا ومؤسساتِنا، وندعَ الفرصةَ للآخرين ليشمَتُوا بنا؟

إن تضخيمَ الحدَثِ، وتهويلَ الخطأ -في حدِّ ذاته- ليس مقبولًا شرعًا ولا عقلًا، فكيف إذا انتهتِ التحقيقاتُ إلى براءةِ المُتَّهمِ، والتجنِّي على الأشخاصِ والهيئات؟

أيُّ فرقٍ في التعبيرِ والسُّخريةِ بين صحفيٍّ كافر، وآخرَ مسلمٍ، وبين مجلةٍ غربيةٍ وصحيفةٍ تصدرُ بجِوارِ مكة؟ إننا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى إعادةِ النظرِ في تطبيقاتِ سياستنا الإعلاميةِ بما يَخُدم البلادَ والعبادَ، ووَفْقَ اللوائحِ والبنودِ المنظَّمة، حتى لا نُخترَقَ ولا نغرقَ.

**رابعًا: بين مصداقيةِ الخبرِ، وشهود الواقع:**

نحن في زمنِ الوَعْي، ولا يَسُوغُ بحالٍ أن تتدخَّلَ صحيفةٌ أو مطبوعةٌ ما في صميمِ الخبر، لتعبِّر -وباسمِ المواطنين- عن انفعالاتِها وتوجُّهاتِها الخاصةِ، وذلك حين يصدرُ قرارٌ (ما) مسَّاء ثم يأتي التعبيرُ في الصباح الباكرِ عن ارتياحِ

---

(١) عكاظ ١/ ١/ ١٤٢٣هـ.

عمومِ المواطنين لهذا القرارِ، والذي ربَّما لم يعلمْ به طائفةٌ منهم أصلًا، ولم يرضَهُ طوائفُ وإن علموا، وهنا يَرِدُ السؤال: ومتى تسنَّى لهذه الجريدةِ هذا الاستفتاءُ النزيهُ الذي قاربتْ نسبتُه تسعةً وتسعين وتسعةً بالعشرة بالمائة؟

إننا مُؤتمَنون على الكلمةِ وعلى نقلِ مشاعرِ المجتمع للمسؤولين، ومن هذا المنطلقِ نقول، وفيما يخصُّ قرارَ الدمجِ الأخير: إنَّ من قُدِّرَ له أن يزورَ (الرياض) هذه الأيامَ يرى مشاهدَ حيةً، وتجمُّعاتٍ حاشدةً هنا وهناك، فهذه جموعٌ تحتشدُ عند أهلِ العلمِ والفتوى تبلِّغها الاستنكارَ، وجموعٌ أخرى تَطرُق أَبوابَ المسؤولين راجيةً إعادةَ الأمور، وإلغاءَ القرارِ، وجموعٌ ثالثة تكتبُ أو تُبرِقُ أو تهاتفُ مستغرِبةً ما حدثَ، ورابعةٌ لا تزال في حَيْرةٍ من هولِ الصدمة وعِظَم المُصَاب، وخامسةٌ من العامَّة والخاصَّة لم ترضَ عن القرار ولكنها لم تُعبِّرْ علانيةً إما لاكتفائها بمن عبَّرَ، وكأَنَّ لسانَ حالها يقول: المشايخُ والدُّعاةُ ما قصَّروا في التعبيرِ عنَّا وعنهم، وهذا وإن كان تقصيرًا منهم في البلاغِ، إذِ الكلُّ مطالَبٌ بالإفصاح وإيصالِ رأيِهِ للمسؤولين، إلا أنَّ هؤلاءِ بكلِّ حالٍ يُعَدُّون في إحصائيةِ المستنكِرين، والصنفُ الآخرُ الذين لم تظهرْ منهم مواقفُ معلَنة -وإن كانوا غيرَ راضين- فهؤلاء يرونَ التعبيرَ بطرقٍ مشروعةٍ أخرى بحُكْم مواقعِهم الإداريةِ وصِلَاتِهم الشخصية، وبكلِّ حالٍ فيكفيكَ أن تسمعَ من عالمٍ له وزنُه في تقييمِ الحَدَث يقول: (إنها زلَّة)، وآخرُ لا يقلُّ شأنًا عنه يقول: (إنها مصيبة)، ثم تسمع من خبيرٍ ممارسٍ قوله: (إنَّ ما وقعَ نتيجةُ تخطيطٍ مُسبَق، ما فَتِئَ العِلمانيون ومنذ زمنٍ بعيدٍ يسعَوْنَ ويخطِّطون له). إذًا الوعيُ شائعٌ، والاستنكارُ عامٌّ وذائع -وفي صفوفِ الرجال والنساءِ، فأين ذلك من التقوُّلِ بارتياحِ الجميع، أهذه مِصداقيةٌ تليقُ بصحافتِنا؟

**خامسًا: بين نوعينِ من المطالب:**

عجبٌ وأيُّ عجبٍ، ففي مرحلةِ تطويرِ أجهزةِ الدولةِ والاتِّجاه نحوَ (الخصخصة) فَرِحَ أهلُ العلمنةِ بدَمْج الرئاسةِ للوزارةِ، وفي مقابلِ دعواهم للمطالَبةِ بحقوقِ المرأة وإنصافِها تنتهي طموحاتُهم إلى أن يكونَ تعليمُ المرأةِ تابعًا وجزءًا من تعليمِ الرجل، هذا في ظاهرِ الأمر، وما يتمنَّونَهُ ويُطالِبون به من خطواتِ ما بعدَ الدمجِ أشدُّ سوءًا، وأتعسُ حظًا للمرأة، بل وللمجتمعِ بأَسرِه؟

أمّا سواهم من أهل العلمِ والمعرفةِ والرُّشد والحكمةِ والنُّصح للدولة، فيتساءلون: أتُدمَجُ الرئاسةُ مع الوزارة، وتُفصَل المياهُ عن الزراعةِ؟ ويُضَمُّ تعليمُ المرأةِ بنجاحاتِه وتفوُّقاته إلى تعليمٍ آخر له نجاحاتُه وتفوُّقاتُه.. لكنه كذلك مُثقَلٌ بالمشاكل، مُثخَنٌ بالتبِعاتِ، على حين يُفصَلُ الحجُّ عن الشؤون الإسلاميةِ والأوقاف.

وما من عاقلٍ مطَّلِع على أحوالِ الدول والأُمم إلا ويُبصِرُ التعليمَ في طليعةِ الاهتمامات، أما الحديثُ عن الظروفِ المادية والمخصَّصاتِ المالية، فما يَسُوغُ الحديثُ عنه في بلدٍ أنعمَ اللهُ عليه بالرخاءِ، والمسؤولون فيه يُنفِقون على العِلمِ والعلماءِ بسخاءٍ!!

لقد باتتْ دولٌ متحضِّرةٌ تُنفِق على التعليم بسخاءٍ حتى استغنتْ به عن وزاراتٍ بكاملِها؛ لأن الفردَ المتعلِّم الواعيَ ربما أعاضَها عن كثيرٍ من الجهاتِ والجنود، وإذا كنَّا -أو بعضُنا- طالما تحدَّثَ عن تجربةِ بلدٍ كاليابان في التعليم.. أفتكون المادةُ معوِّقًا لنا، حتى نضطرَّ إلى الدمج؟

إننا على صعيدِ الواقعِ نُدرِكُ نجاحَ تجربتِنا في التعليمِ عمومًا، وتميُّزَنا عن العالَمِ تميُّزًا ناجحًا في تعليمِ المرأة خصوصًا.. والمُخرَجاتُ لا تُقارَن

بالمُدخَلات.. أفننسى ذلك جميعًا؟

على أنَّ مطالبَ هؤلاء الراشدين لا تنتهي عند إلغاءِ الإلغاء، وبقاءِ الرئاسةِ في مركزِ الرئاسة، بل يزيدون في طلبِ الدعم لجهازِ تعليم البنينَ والبناتِ، ويطالبون بإصلاحِ الإعلام وَفْقَ السياسةِ الإعلاميةِ للمملكة، ويروْنَ ضرورةَ فَضْحِ أو معاقبةِ من شوَّهوا سمعةَ البلدِ ومؤسَّساتِه وتمتدُّ مطالبُهم في التحوُّط لأيِّ جهةٍ أو هيئةٍ مستهدفةٍ كالهيئات والجامعات الإسلاميةِ، إنهم يُطالبون بكلِّ ما فيه مصلحةٌ حقيقيةٌ للبلادِ والعباد، ويُلِحُّون عن كلِّ خطوةٍ تجمعُ ولا تفرِّق، وتؤلِّف ولا تُنفِّر، وتهدِي للتي هي أحسنُ، وملفُّ المرأةِ في بلادِ الحرمين واحدٌ من القضايا الملحَّةِ التي بات الغيورون يطالبون بإعادةِ النظرِ فيه وَفْقَ ثوابتِ الدولة ومسلَّماتِ العقيدة، لا وفقَ طروحاتِ العلمانيين وصيحاتِ المُغرِضين؟

**سادسًا: جِراحات ومُعوِّقون:**

نشكو إلى اللهِ ما حلَّ بإخوانِنا المسلمين من محنٍ وبلايا نازلةٍ، في معاركَ يُصفِّي فيها الصهاينةُ الحاقدون حساباتِهم مع إخوانِنا في فلسطين، وفي غَطْرسةٍ وكبرياءٍ يتعاملُ بها النصارى والمُلحِدين مع إخوانٍ لنا في عددٍ من المواقعِ والبلدان.

إنها معاركُ ملتهِبةٌ، تَقطُرُ الأرضُ فيها دمًا، ويُرسِّخ الظلمُ والعدوان ترسيخًا بَشِعًا، كيف لا، وتَرسانةُ الأسلحةِ المتطوِّرة تجرَّبُ على صدور إخوانِنا.. قبورٌ جماعيةٌ للقتلى، واعتداءاتٌ غيرُ إنسانيةٍ على العزَّلِ والأطفال والشيوخ والنساء، حصارٌ للمخيَّمات، واقتحامٌ للبيوت، وهدمٌ للمساجدِ، واستخدامٌ أرعنُ لسياراتِ الإسعافِ لأغراضٍ قتالية، مما يُعَدُّ سابقةً خطيرةً، وجريمةً كبرى... وحدِّث ما شئتَ.. وما لم يخطُرْ لك ببالٍ -في قاموس مُجرِمِي الحرب، صانعِيها والساكتينَ عنها.

ومما يزيدُ الجرحَ أَلمًا.. أن الأُمةَ وسطَ هذه المِحَن والبلايا تُشغَلُ بقضايا داخلية أُخرى، تَشُلُّ تفكيرَها، وتجتزئُ قدرًا كبيرًا من طاقتِها، ثم تظلُّ ترقِّعُ في خروقِ أبنائها، وتُرمِّم التصدعَ الحاصلَ في جدرانِ بيوتها..

ولا كثَّر اللهُ من نفرٍ يُعوِّقون الأمةَ، ويَشغَلُونها عن القضايا الكبرى، حقًا إنك لتعجَبُ حين تقرأُ أو تسمعُ عن تظاهراتٍ في (بروكسل) و(لاهاي) و(برلين) ونحوها، تُندِّد بالممارساتِ اليهودية ضدَّ شعبِ فلسطينَ، ثم ترى أو تقرأُ ذهولًا عن القضيةِ برمَّتِها في عددٍ من البلادِ الإسلامية، وانشغالًا عند المسلمين بقضايا أو فِتَنٍ داخلية شَغَلَهم بها المعوِّقون والمُرجفون، وكلما خَبَتْ فتنةٌ أشعلوا أخرى، وهكذا..

ولكنَّ محمدًا ﷺ حين شُغِل فَزِعَ إلى ربِّه بالدعاء قائلًا: «**شَغَلُونا عن صلاةِ العصرِ ملأ اللهُ قبورَهم وبيوتَهم نارًا**» متفق عليه.

أفلا يتذكَّرُ هؤلاء وأولئك كم يُعوِّقون الأُمةَ، وكم يَصرِفُون من طاقتِها.. فأين هم من دعاوَى: وَعْيِ الأُمة، والتقدُّم بها، خابُوا وخَسِروا، وأفلحَ وأنجحَ من جاهدَ الكافرين والمنافقين جميعًا، ذلك مقتضى توجيهِ كتابِ ربِّنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].



(١) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، أحمدُه تعالى وأشكرُه وأُثْني عليه الخيرَ كلَّه..

أيها المؤمنون:

١- وليس يَخْفَى أن الحملةَ على المرأةِ والتشكيكَ بالقيمِ، قديمةٌ، ومَن تتبَّع ما نُشِر في الصحف -قديمًا- رأى أن طبولَ الحربِ كانت تُقرَعُ منذُ زمنٍ، ولا مانعَ من ذكرِ نموذجٍ عاصره سماحةُ شيخِنا العلامةُ عبدُ العزيز بنُ باز رحمه الله، وكانت له فيه وقفةٌ حَفِظَها التاريخُ، وفتوى مدوَّنةٌ في الكتب، ففي عام ١٤١٢هـ كتبتْ كاتبةٌ في جريدةِ عُكَاظ تنتقدُ من يعتقدُ أن المرأة ناقصةُ عقلٍ ودينٍ، وأن الرجالَ قوَّامونَ على النساء؟ فأصدرَ الشيخُ فتواه بالكاتبةِ والجريدةِ وهذا نصُّها: «لقد دُهِشتُ لهذا المقالِ الشنيع، واستغربتُ جدًا صدورَ ذلك في مهبطِ الوحي، وتحتَ سمعٍ وبصرٍ دولةٍ إسلامية تُحكَمُ بالشريعةِ الإسلامية وتدعو إليها، وعجبتُ كثيرًا من جُرأةِ القائمين على هذه الجريدةِ، حتى نشروا هذا المقالَ الذي هو غايةٌ في الكفرِ والضلالِ والاستهزاء بكتابِ الله وسنَّةِ رسولِه ﷺ، والطعنَ فيهما» ثم قال عن الجريدةِ: «وليس هذا ببِدْعٍ على القائمينَ على هذه الصحيفةِ، فقد عُرِفَتْ بنشرِ المقالاتِ الداعيةِ إلى الفسادِ والإلحادِ والضَّررِ العظيمِ على المجتمع، كما عُرِفَت بالحقدِ على علماءِ الإسلام والاستطالةِ في أعراضِهم والكذبِ عليهم».

واختتم الشيخُ رحمه الله فتواه الطويلةَ بقوله: إن هذه الصحيفة قد تجاوزتِ الحدودَ واجترأتْ على محاربةِ الدِّين والطعنِ فيه بهذا المقالِ الشنيع جرأةً لا يجوزُ السكوتُ عنها، ولا يَحِلُّ لوزارةِ الإعلام ولا للحكومةِ الإغضاءُ عنها، بل يجبُ قطعًا معاقبتُها معاقبةً ظاهرةً بإيقافِها عن الصدور، ومحاكمةِ صاحبةِ المَقالِ،

والمسؤولِ عن تحريرِ الصحيفة، وتأديبُهما تأديبًا رادعًا، واستتابتُهما عما حصلَ منهما؛ لأنَّ هذا المقالَ يُعتبَرُ من نواقضِ الإسلام، ويوجِبُ كفرَ ورِدَّةَ مَن قاله أو اعتقده أو رضيَ به، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1] فإنْ تابت، وإلا وجبَ قتلها لكفرِها ورِدَّتِها»[2].

وفي هذا الزمنِ تُثارُ الأسئلةُ التالية: هل توقَّفتْ هذه الجريدةُ عن هذه الحربِ؟ وما الفرقُ كمًّا ونوعًا بين ما نشرتْه في الماضي وما تنشرُه ومثيلاتُها في هذه الأيام؟ وهل نسمعُ فتاوى ومطالبةً بالمحاكمةِ لكتَّابٍ وكاتباتٍ من أمثالِ هؤلاء من العلماءِ المعاصرين؟ وإلى متى يستمرُّ نشرُ الفجورِ والفسوقِ والسخريةِ والاستهزاءِ بأحكام الشرع وحملتِه في بلاد الحرمين الشريفين؟! لقد بلغَ السيلُ الزُّبى، وآن الأوانُ لوقفةٍ جادَّةٍ تضعُ حدًّا للموتورينَ وتنتصرُ للحقِّ وأهلِه، وتقمعُ الباطلَ وجندَه، فمَن يا تُرى يَنذُرُ نفسَه لهذه المهمَّةِ الجليلة؟ وهذا جزءٌ من واجبِنا جميعًا في إنكارِ المنكَر والردِّ على المبطِلين، فالعالِمُ يُفتي ويكتب، وغيره يُطالِب ويتابع.

٢- وجزءٌ آخرُ من واجبِنا تجاهَ هذه الحَمَلاتِ والحَرَكات أن نُسهِمَ في الدفاعِ عن الأعراض، ونمنعَ بقَدْرِ المستطاع أن تصيرَ بلادُنا إلى مثلِ ما صارتْ إليه البلادُ الأخرى، فالمرأةُ -بلا شكٍّ- إذا تُرِكَت لدَعَواتِ المُغرِضين -بأهدافِهم السيئةِ ووسائِلهم المنكَرة- ستصبح بوابةً كبرى للفسادِ، وما نَطَقَ محمدٌ ﷺ عن الهوى وهو القائل: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ**» (متفق عليه).

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥- ٦٦.

(٢) مجلة البحوث عدد ٣٢ سنة ١٤١٢هـ.

ونحنُ لا نتعاملُ مع المرأةِ -دائمًا- على أنها فتنةٌ، بل عضوٌ صالحٌ في المجتمع، في إطارِ القِيَمِ العاليةِ وتعاليمِ الشريعة السَّمْحة، ولكنَّ هؤلاء يُريدونَها فتنةً وعارضةَ أزياء؟

إنَّ غَيْرتَنا على المحارمِ لا تَقِلُّ بل تزيدُ وتُهذِّب من غَيْرةِ الرجلِ الجاهليِّ الذي كان يتصرَّفُ خطًأ وجهلًا بقتلِها خَشْيةَ العارِ أو خشيةَ الفقر، وسلوا ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[1] تجدونَ خلفَها شهامةً جاهليةً نريد نحنُ المسلمين أن نحميَها دُرَّةً مصونةً عن عَبَثِ العابثين، وحين نستنكرُ قتلَ أهلِ الجاهلية الأولى للمرأةِ قتلًا حِسِّيًا، فإننا نستنكرُ قتلَ الجاهليةِ المعاصرة لها قِيَميًّا وأخلاقيًا.

٣- ومن واجبِنا أن تتظافرَ جهودُنا مع علمائِنا ومشايخِنا في الاستنكارِ والمدافعةِ لكلِّ باطل مُلبَّس، والعلماءُ -كِبارًا وصغارًا- يُوصُون الجميعَ هذه الأيامَ بالاستمرارِ في الإنكار، وإبلاغِ الصوتِ للمسؤولين- بعقلٍ وحِكْمة وقوةٍ واستمرار، لا يُضعِفُها عباراتُ التهدئة ولا يُخفِّفُ منها التصريحاتُ والمقابلاتُ المسكِّنة وقتيًا، فقد عوَّدَتْنا الأيامُ- أن يَهدأَ هؤلاء المُغرضون حين يتحرَّك الخيِّرون، ويَحْنون رؤوسَهم للعاصفة، وهم فيما بينهم يقولونَ: إنها مجرَّدُ عواطفَ ثم تنتهي، وحماسٌ وقتيٌ لا بدَّ أن نستَلَّه، ثم نمضي بعد حينٍ في مواصلةِ المَسِير، وتحقيقِ المخطَّطِ المرسوم خطوةً خطوةً، ومما يَسُّر ويُبطِلُ هذا الكيدَ المؤجَّل، ما فَهِمناه من العلماءِ أنهم سيستمرُّون على مواقفِهم القويةِ واستنكارِهم ولو طالَ الزمانُ حتى يُعادَ الحقُّ إلى نصابِه، ويُنزعَ فتيلُ الفتنةِ من جذورِه.

وأنتم معاشرَ المسلمين -بمواقفِكم واستمرارِ جهادِكم وتنوُّعِ جهودِكم- رافدٌ

(١) سورة التكوير، الآية: ٩.

قويٌ للعلماء، لقد أعلنَ العلماءُ قَلَقَهم لما حَدَث، واستغرابَهم لما وقع، ومفاجأتَهم بما صار، وأخذوا على عاتِقِهم الوقوفَ في وجهِ هذا الطُّوفانِ، وبالتفاهمِ مع المسؤولين بما يحقِّقُ مصلحةَ البلادِ والعباد، وكشْفَ عَوَرِ من يريدُ بهذا المجتمعِ سوءًا، ورَدْعَهم وتأديبَهم، وبالمطالبةِ بكل ما يُحققُ الخيرَ ويصدُّ الشرورَ والفتنَ، وأوصَوْا بأن يتحمَّلَ كلُّ مسلمٍ مسؤوليتَه في الإنكارِ بالطرق المشروعة، وحذَّروا من القيام بأعمالٍ غير مدروسةٍ ولا حكيمةٍ تضرُّ ولا تنفع.

يا أخا الإسلام: فإن قال قائلٌ: وبإزاءِ هذا المنكَرِ أو غيرِه ماذا نصنعُ؟ أُجيب: لو كان أمرًا دُنْيويًا لفكرتَ مليًّا ثم وجدتَ الوسيلةَ المناسبةَ لإسهامِكم، أفيكونُ الدينُ عندَكَ أقلّ شأنًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[1] لكنْ نُوصِيكَ بالحكمةِ في الأمرِ والنهي، والرِّفقِ فيما تعملُ أو تَدَعُ، واستخدامِ الطُّرقِ المشروعة، والقنواتِ الرسمية، والمشورةِ لأهل العلم، والنُّصح للمسؤولين، والزيارةِ، والمهاتَفَةِ، والكتابةِ، وتوضيحِ الحقِّ وكشفِ الباطل عبرَ المحاضرةِ والندوةِ والمطويَّةِ والكتاب، والعنايةِ بالبرامجِ البيتية، والتوجيهِ عبرَ مُلتقَياتِ الأسرة، والعنايةِ بالحصانةِ الفكرية، ومقاومةِ أسبابِ الفاحشةِ، والتفكيرِ الجادِّ في إيجادِ منابرَ ومحاضنَ مطمئنةٍ لتربيةِ الناشئةِ من الجنسين، لا بدَّ من تعميمِ الوَعْي والشعورِ بجرأة الخطوةِ وما وراءَها، وعدمِ القناعة بأنصافِ أو جزئياتِ الحلول.

أيتها المرأة أُمًا وبنتًا وزوجةً وأختًا، طالبةً ومعلمة وموظَّفةً وربّةَ منزل، لا تكتفي بحديث الآخرينَ عنكِ، هل أنتِ راضيةٌ عن هذه الخُطوةِ؟ ماذا صنعتِ في قرارٍ يخصُّكِ أكثرَ من غيرك؟ هل وصلتْ وجهةُ نظرِك للآخرين؟ وهل مَن تحدَّثَ

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.

من الصحفيين والصحفيات يُعبِّرُ عنكنَّ؟ لكِ الحقُّ أن يُسمَعَ منك كما سُمع من غيرِك، وتستطيعين التعبيرَ عن وجهةِ نظرِكِ بأيِّ وسيلةٍ ترينَها مناسبةً ومشروعةً في المنزلِ والمدرسة، وعبرَ الهاتفِ أو الجريدةِ أو الرسالةِ، وبالمحاضرةِ والندوة.

أيها المسلمون: اتقوا اللهَ فيما تعملون وما تدعون، وليقدِّرْ كلٌّ منكم مسؤوليتَه أمامَ الله، وواجبَه أمامَ أهلِه وعشيرتِه، وحقوقَ الولاةِ والمجتمع عليه من النُّصحِ والمشورة، وليؤدِّ دورَه في فضحِ المُبْطِلين، وكشفِ مَن يريد للبلادِ والعبادِ سوءًا، اللهمَّ احفَظْ بلادَنا وبلادَ المسلمين من كل سوءٍ ومكروه، واجعلْ هذا البلدَ آمنًا مطمئنًا وسائر بلادِ المسلمين.



# النفاق والمنافقون(١)

## الخطبة الأولى:

إن الحمدُ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمانِ: يُخطئُ منْ يظنُّ أنَّ النفاقَ الذي أفاضَ القرآنُ في الحديثِ عنْه وأنَّ المنافقينَ الذينَ أسهبَ القرآنُ في التحذيرِ منهُم، كانَ يُمثلُ مرحلةً تاريخيةً انقضَتْ بدخولِ الناسِ في دينِ اللهِ أفواجًا، فالعصرُ الذهبيُّ للبشريةِ عامةً - وللمسلمينَ خاصةً- والذي شهدَتِ الأرضُ طُهرَه أيامَ الرسالةِ المحمديةِ، لمْ يخلُ منْ ظُلمِ النفاقِ وظُلماتِه، فهل تُعصمُ منْه العصورُ التاليةُ؟

إنّ جوهرَ النفاقِ وطينةَ المنافقينَ واحدةٌ على مرِّ العصور، ولكنَّ الفرقَ في الظروفِ المتوفرةِ للمنافقينَ بينَ الأمسِ واليومِ، فالنفاقُ في مراحلِ تمكينِ الدينِ وغلبةِ المسلمينَ كانَ ذُلًا لا يستخفي، وضعفًا يتوارَى، وخضوعًا مقموعًا، يمثلُه عمالقةٌ -في الظاهرِ- وفي الحقيقةِ همْ أقزامٌ ورؤوسُ أزلامٍ، وهمْ حياتٌ وعقاربُ موطوءةٌ تكادُ ألا تنفثَ السمَّ إلا وهيَ تلفظُ الحياةَ.

كانَ تمكينُ الدينِ وقتَها يُمكِّنُ المؤمنينَ من جهادِ أولئكَ المنافقينَ الأسافلِ باليدِ واللسانِ والقلبِ وإقامةِ الحدودِ، وكانَ القرآنُ ينزلُ كاشفًا لخبايا نفوسِهم

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ٢/ ١٤٢٣هـ.

وخُبثِ طويَّتِهم، ولذا فلا يُرى أحدُهم إلا وهو محاصَرٌ مكدودٌ، أو محدودٌ أو مجلودٌ.. أو معتذرٌ مكشوفٌ؟

أما اليومَ فالنفاقُ صرحٌ ممرَّدٌ، وقواعدُ وجيوشٌ تتحركُ، وقلاعٌ تُشيَّدُ إنه اليومَ دولةٌ بل دولٌ ذاتُ هيئاتٍ وأركانٍ، وأحلافٌ وتكتلاتٌ ومعسكراتٌ وسلطانٌ.. سلطانٌ سياسيٌّ واقتصاديٌّ وإعلاميٌّ وثقافيٌّ يُمارسُ الضرارَ في كلِّ مضمارٍ؟!

ومنْ هنا -معاشِرَ المسلمينَ- وجَبَ الحذرُ والتحذيرُ منَ النفاقِ، وكشفُ المنافقينَ ويكفيكَ -يا أخا الإسلامِ- أن تُطالعَ في القرآنِ وفي صحيحِ السنةِ والسيرةِ النبويةِ -كشفَهم وملامحَهم وأساليبَهم- فبضاعتُهم الحَلِفُ والكذبُ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٥].

وسيماهُم لمزُ المطَّوعينَ منَ المؤمنينَ، أنهُمْ بُخلاءُ جُبناءُ، حائرونَ مترددونَ كالشاةِ العائرةِ بينَ الغنَمينِ(١) وهيَ المترددةُ بينَ قطيعينِ لا تدري أيَّهما تتبعُ: مذبذبونَ في توجهاتِهم وسلوكياتِهم لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ منكوسةٌ فطرُهم إذْ يأمرونَ بالمنكرِ وينهونَ عنِ المعروفِ، ومعوجَّةٌ أخلاقُهُم إذ يحلفونَ على الكذبِ وهمْ يعلمونَ، ومطبوعٌ على قلوبِهم فهمْ لا يفقهونَ، مظاهرُ جوفاءُ رعاديدُ عندَ المواجَهةِ واللقاءِ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أركسَهُمُ اللهُ بما كَسبوا.. وفي الفتنةِ سقَطوا، يُقلِّبونَ الأمورَ، ويسخرونَ بالمؤمنينَ، ومن هَلَعِهم وفرَقِهم ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧] ألسنتُهُم -ظاهرًا- مع المسلمينَ وقلوبُهم معَ الكافرينَ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] يخشَوْنَ الدوائرَ

(١) مسلم والنسائي جامع الأصول «(/ ٥٧١).

ويسارعونَ في موالاةِ الكافرينَ وشعارُهم ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] يُحبُّون أن تشيعَ الفاحشةُ في الذينَ آمنوا.. ورؤوسُهم يمارسونَ إكراهَ فتياتِهم على البغاءِ؟ فتاريخُهم حافلٌ بإفسادِ المرأةِ وشرُّهم سابقٌ في إشعال الفتنةِ.

إنهمْ عيونُ الأعداءِ على المسلمينَ -كما وصفَهم الطبريُّ في جامع البيان (٣٠/ ٧٠) وابنُ الجوزيِّ في زادِ المسيرِ (٨/ ٢٨٦) والواقعُ يثبتُ يومًا بعد يومٍ أنَّ نكبةَ الأمةِ بالمنافقينَ تسبقُ كلَّ النكباتِ فالكافرُ الظاهرُ -على خطرِه وضررِه- يعجزُ في كلِّ مرةٍ تواجهُ فيها أمةُ الإسلامِ أنْ ينفردَ بإحرازِ نصرٍ شاملٍ عليها ما لَمْ يكنْ مَسْنُودًا بجيشِ المنافقينَ يُخلصُ لهم في النصحِ، ويفتح لهمُ الأبوابَ، ويُذلّلُ أمامَهم العقباتِ.. وقاتلَ اللهُ المنافقينَ كمْ جنَوْا على بلادِهم وأبناءِ جلدتِهم منَ الويلاتِ والنكباتِ، ومن يُهنِ اللهُ فما له منْ مُكرِمٍ، وقاتلَ اللهُ المنافقينَ أنى يؤفكونَ.

معاشرَ المسلمينَ: إنَّ الحديثَ عن المنافقينَ يطولُ، كيفَ لا وآياتُ القرآنِ صرّحتْ بذكرِ النفاقِ والمنافقينَ في نحوِ سبعٍ وثلاثينَ آيةً، وفصلَتْ وفرعَتْ في الكلامِ عنهمْ أضعافَ ذلكَ منَ الآياتِ موزعةً على إحدى عشرةَ سورةً[١].

أما الحديثُ عنْ (منْ في قلوبِهم مرضٌ) فكثيرٌ أيضًا.. وهؤلاءِ مرضَى القلوب فئةٌ منهُمْ منَ المنافقينَ، وفئةٌ أخرى رديفةٌ لهمْ، ومخزونٌ احتياطيٌّ لهمْ.. ومنْ هنا وجبَ الحذرُ منْ مرضِ القلبِ -بالشهوةِ أو الشهيةِ- ومعالجةُ ذلك عاجلًا بالصدقِ والإيمانِ والمجاهَدِة.. ذلكُم أنَّ المتأملَ في حديثِ القرآنِ عنْ مرضَى القلوبِ يمكنُ أن يستنتجَ أنَّ هؤلاءِ لديهمُ الاستعدادُ لأنْ يكونوا

---

(١) بل قيل إن الحديث عنهم استغرق ما يقرب من ثلاثمائة وأربعين آية (د. عبد الحليم العبد اللطيف: حديث الإفك) وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: كاد القرآن أن يكون كله بشأن المنافقين (المدارج ١/ ٣٨٨) ص ٤٠- ٤١.

منافقينَ معلومي النفاقِ بما لديهمْ من شهوةٍ أو شُبهةٍ، فهمْ قومٌ ضعيفوا الإيمانِ إلى أدنى حدٍّ، حتى أنَّ أحوالَهم تكادُ تنقلبُ إلى معسكرِ النفاقِ الصريحِ لفرطِ قنوطِهم وفتورِهم وقلةِ يقينِهم ولشدّةِ تعلُّقِهم بالدنيا ومطامعِها.

ويُقالُ: إنَّ مرضَى القلوبِ يمارسونَ تطرفًا صارخًا باتجاهَيْنِ، فهمْ يتطرفونَ في بُغضِ أهلِ الدينِ وإساءةِ الظنِّ بهمْ، ويتطرفونَ في الدفاعِ عنِ الكفارِ وحسنِ الظنِّ بهمْ -وهذا جوهرُ مرضَى القلوبِ[1].

ألا ففتِّشوا عن أنفسِكم ومدَى ولائكمْ ومحبتِكم للمؤمنينَ -وإنْ كانوا ضعفاءَ مقهورينَ -وبغضِكم وبراءتِكم منَ الكافرينَ، وإنْ كانوا ظاهرينَ متسلطينَ وخلّصوا أنفسَكم من قلوبِكم منَ النفاقِ وسماتِ المنافقينَ.

عبادَ اللهِ: ومنْ واقعِ السيرةِ النبويةِ. . ومواقفِ المنافقينَ في عهدِ النبوّةِ يستطيعُ القارئُ الفطِنُ أنْ يرصدَ تعاونَ المنافقينَ مع أكثرِ منْ طرفٍ، فهمْ معَ المشركينَ على المسلمينَ، وهمْ حلفاءُ بلْ إخوانٌ لليهودِ -بنصِّ القرآن- وهمْ متحالفونَ معَ الأحزابِ وهمْ عونٌ للنصارَى في حربِهم ضدَّ المسلمينَ وإليكُمُ البيانَ:

ففي غزوة أحُدٍ -حينَ جاءَتْ قريشٌ بكبريائها تريدُ الثأرَ لقَتلاها في بدرٍ، قامَ المنافقونَ وفي أحلَكِ الظروفِ بخذلانِ المؤمنينَ، وانسحبَ زعيمُهم عبدُ الله بنُ أبيٍّ بثلثِ الجيشِ ودخلَ المدينةَ بأتباعِهِ تاركًا المسلمينَ وحدَهم في ساحاتِ الجهادِ يُواجهونَ عدوًا يفوقُهم في العدَدِ والعُدةِ الحربيةِ، وهذا الانسحابُ المخزي أوشكَ أنْ يوقعَ الفشلَ في طوائفَ منَ المؤمنينَ؛ قال اللهُ عنهمْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2] وأحدث

---

(١) عبد العزيز كامل، جهاد المنافقين، البيان شهر ١١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.

هذا التراجعُ المُذلُّ منَ المنافقينَ اختلافًا بينَ المؤمنينَ في التعاملِ مع المنافقينَ. فرقةٌ تقولُ: نقتلُهم، والأخرى تقولُ: لا نقتلُهم، فأنزلَ اللهُ: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1]، وحينَها قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنها طيبةٌ** وإنها تنفي الخبثَ كما تنفي النارُ خَبَثَ الفضةِ»[2].

أما المنافقونَ فقدْ ظنوا باللهِ الظنونَ السيئةَ وكشفَ القرآنُ خبيئَتَهم فقالَ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ﴾[3]، وحينَ انكشفَتِ المعركةُ وأصيبَ منْ أصيبَ منَ المؤمنينَ تشفّى المنافقونَ وسُرُّوا لمصابِهم، واشتركوا معَ اليهودِ في المشاعرِ الفاسدةِ، قالَ ابنُ حجرٍ: «حينَ بكَى المسلمونَ على قتلاهُم سُرَّ المنافقونَ، وَظَهرَ غشُّ اليهودِ، وفارت المدينةُ بالنفاقِ، فقالَت اليهودُ: لو كانَ نبيًا ما ظهروا عليهِ -يعني المشركينَ- وقالَ المنافقونَ: لو أطاعونا ما أصابَهم هذا؟»[4].

بلْ جعلوا يقولونَ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: لو كانَ منْ قُتِلَ منكُمْ عندَنا ما قُتِلَ، وهم يهدفونَ إلى تفريقِ المؤمنينَ والتخذيلِ عن صحابة النبيِّ ﷺ، وأنَّى لهم ذلكَ معَ قومٍ قالوا لمَنْ قالَ لهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٨.

(٢) أخرجه أحمد والشيخان. (خ) (في تفسير سورة النساء ومسلم في المنافقين).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٤) الفتح ٧/ ٣٤٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

عبادَ اللهِ: أما علاقةُ المنافقينَ باليهودِ فيكفي تعبيرُ القرآنِ عنها بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

إنهُمْ بحُكْمِ القرآنِ إخوانٌ لليهودِ، وهمْ جاهزونَ للخروجِ معَهم لو أُخرِجوا ومستعدّونَ للقتالِ معهُمْ -ولوْ باللسانِ- إنْ قوتِلوا؟ فهلْ بعدَ هذا منْ نصرةٍ وتقاربٍ بينَ المنافقينَ واليهودِ، ومن رامَ تفصيلَ ذلكَ فليقرأ في تفسيرِ الآيةِ، وليقفْ عندَ حوادثِ السيرةِ النبويةِ.

والمنافقونَ كذلكَ مصانعونَ للنصارَى وفي غزوةِ العُسرةِ ظهرَ تخذيلُهم للمسلمين وتعظيمُهم للنصارَى، فقدْ قالَ أحدُهم: «يغزو محمدٌ بني الأصفرِ (أي الرومَ) واللهِ لكأني أنظرُ إلى أصحابِه مُقرّنينَ في الحبالِ».

وما سلمَ الرسولُ ﷺ منْ شرهِمْ في هذه الغزوةِ، مَنْ قعدَ منهم عنِ الخروجِ ومَنْ خرجَ فلم يزد إلا خبالًا وفتنةً.. أجلْ، لقدْ أرجفَ نفرٌ منهُمْ بالمؤمنينَ عنِ الخروجِ وقالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وقالوا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ولمَزوا المؤمنينَ المطّوّعين في الصدقاتِ فمن أنفقَ بسخاءٍ قالوا: أنفق رياءً، ومن أنفقَ القليلَ الذي يجدُ قالوا: إنَّ الله غنيٌ عنْ صدقة هذا؟ ومَنْ خلّفَهُ الرسولُ ﷺ في المدينةِ لغرضٍ كعليٍّ رضي الله عنه قالوا: إنما خلَّفَهُ استثقالًا لَهُ؟ وهكذا لمْ يسلَمِ المسلمونَ منْ شرِّهم في مجابهةِ النصارَى، فالذين خرجوا نفاقًا استهزؤوا بالصحابة، وكفَّرهم اللهُ وإن اعتَذروا، بلْ وصلَ الأمرُ بهم أنْ خطَّطوا

(١) سورة الحشر، الآية: ١١.

لقتلِ النبيِّ ﷺ في مرجعِه منْ تبوكَ كما في قصةِ أصحابِ العقبةِ الواردةِ في صحيحِ مسلمٍ(١).

أما الذينَ بَقُوا فوجدوها فرصةً للتخطيطِ والاجتماعِ بأطرافٍ معاديةٍ منْ خارجِ المدينةِ، وكانَ المشروعُ النكِدُ في بناءِ مسجدِ الضرارِ بتنسيقٍ بين منافقي المدينةِ وأبي عامرٍ الفاسقِ الذي يُقيمُ عندَ الرومِ، وهذا الرجلُ منَ الخزرجِ وقد تنصَّرَ، فلما جاءَ الإسلامُ ودخلَ فيه الأنصارُ شَرِقَ أبو عامرٍ بالإسلامِ، فخرجَ إلى قريش وألَّبَهم على المسلمينَ، وحينَ لمْ يفلحْ، خرجَ إلى هرقلَ ملكِ الرومِ واستنصرَهُ على ضربِ المسلمينَ، واتخذَ منَ المنافقينَ في المدينةِ أداةً للتخطيطِ، فأمرهم أنْ يتخذوا لهُ معقِلًا يقدمُ عليهِم فيهِ مَنْ يقدُمُ مِنْ عندِه لأداءِ كُتبِهِ ويكونُ مرصدًا لهُ إذا قدمَ عليهِمْ بعدَ ذلكَ، فشَرَعَ المنافقونَ في بناءِ مسجدٍ مجاورٍ لمسجدِ قباءَ وأحكموهُ وفرَغوا منه قبلَ خروجِ النبيِّ ﷺ إلى تبوكَ وطلبوا منه أن يُصليَ فيه ليحتجُّوا بصلاتِهِ على إقرارِهِ وإثباتِهِ، فاعتذرَ إليهِمْ بالسفرِ، فلما رجعَ منْ تبوكَ نزلَ الوحيُ عليهِ مسميًا هذا المسجدَ بمسجدِ الضرارِ كاشفًا ما اعتمدوهُ فيه من الكفرِ والتفريقِ بينَ المؤمنينَ، فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ للمسجدِ مَنْ هَدَمَهُ وأحرقَه(٢).

وبقيَ وحيُ السماءِ موعظةً وذكرى لكلِّ عملٍ ظاهرُه الحُسنَى وباطُنه النفاقُ والكفرُ.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ

---

(١) (٤/ ٢١٤٤).

(٢) تفسير ابن كثير لآيتي التوبة (١٠٧- ١٠٨).

وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[(١)].

نفعني اللهُ وإياكُم بهدْيِ القرآنِ وسنةِ محمد عليه الصلاة والسلام.



(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

## الخطبة الثانية:

أيها المسلمونَ: ولا تقتصرُ جهودُ المنافقينَ على التعاونِ مع المشركينَ أو اليهودِ أو النصارى، بلْ همْ جاهزونَ للتعاونِ مَعَ كلِّ من تحزَّب ضدَّ الإسلامِ والمسلمينَ، وفي معركةِ الخندقِ وحينَ تحزَّبَ الأحزابُ على المسلمينَ في المدينةِ في جمعٍ لمْ تشهدْه المدينةُ مِنْ قبلُ، وبلغَ الكربَ بالمسلمينَ مَبْلغَه -كانَ للمنافقينَ دَورُهم وسهامُهم مَعَ أولئكَ الأحزابِ، حتى ابتُلي المسلمونَ وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، وفي ظلِّ هذه الظروفِ الصعبةِ كانَ المنافقونَ يقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1].

وهكذا شكَّلَ المنافقونَ دورَهم مَعَ الأحزاب في الإرجافِ والتخذيلِ، ومحاولةِ التسللِ والاعتذارِ عنْ حَفْرِ الخندقِ أولًا، وعن مجابهةِ العدوِّ ثانيًا، وأنَّى لأولئكَ المنافقينَ أنْ ينكأوا في العدوِّ وهمُ القائلونَ لإخوانهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فلمّا استحكمَ الخوفُ بهمْ ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾[3].

عبادَ اللهِ: وظلّتْ مسيرةُ النفاقِ في عصورِ الراشدينَ، وساهموا بإشعالِ فتيلِ الفتنةِ، واستمرَّ دَورُهم في عصرِ الأمويِّينَ والعباسيينَ يُسمَّونَ بالمنافقينَ حينًا، ويوصفُونَ بالزنادقةِ حينًا آخرَ، وبالباطنِّينَ فترةً وبالعِلْمانيينَ أخرى.. وليستْ تُهمُّ الأسماءُ؛ فالمسمَّيات تتغيَّرُ، ولكنّ السِّماتِ والوسائلَ والأساليبَ تكادُ تتكرَّرُ

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

وتجدَّدُ.. وكلُّهم تعرفُهم في لَحْنِ القولِ[١]، وجميعُهم يزعمُ الإصلاحَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[٢].

والقواسمُ المشتركةُ بينَ المنافقينَ قديمًا وحديثًا هي: بُغضُ المؤمنينَ والسخريةُ بالمتديِّنينَ، وموالاةُ الكفارِ والمسارعةُ فيهم، لا يَثبتونَ على مبدإٍ، ولا يستمرُّونَ في الصداقةِ لأحدٍ، بلْ يتقلَّبونَ ويتلوَّنونَ كالحرباءِ، وأينما هبَّتِ الريحُ لمصلحتهمْ هبُّوا مَعَها، فلديهمُ استعدادٌ للتعاونِ مَعَ شياطينِ الإنسِ والجنِّ لتحقيقِ أغراضِهم، ولديهمَ استعدادٌ للتضحيةِ بأقربِ الناسِ إليهمْ إذا خالفوهمْ في توجُّهِهم!

والمرأةُ وَتَرٌ طالما ضربوا عليه، ورغبوا في إشاعةِ الفاحشةِ منْ خلالْها، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾[٣]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[٤] نموذجانِ بلْ وجهانِ قبيحانِ للمنافقينَ مَعَ المرأةِ.

وموتُ الصالحينَ يسرُّهم، وإذا ماتَ المجرمونَ والفسقةُ نعَوْهمْ وأسِفُوا لموتِهمْ! وهلْ تعلمونَ أنَّ المنافقينَ همُ العنصرُ الشاذُّ الذي فرحَ بموتِ النبيِّ ﷺ. قالَ ابنُ عمرَ: وكانَ المنافقونَ قدِ استبشَروا بموتِ رسولِ الله ﷺ[٥].

---

(١) واللاحق منهم أسوأ من السابق، حتى قال حذيفة رضي الله عنه -خبير المنافقين-: المنافقون الذين فيكم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم وإن هؤلاء يعلنون! (الفريابي: صفة المنافق/ ٥٣).
وإذا قال حذيفة هذا عن المنافقين في عصر الصحابة والتابعين وفي ظروف انحطاط المسلمين، فماذا عساه يقول لو أبصر المنافقين في العصور المتأخرة؟

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٤) سورة النور، الآية: ١١.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (المغازي) ص ٤١٠.

إخوةَ الإسلامِ! وماذا بعدُ؟ وما الدورُ المطلوبُ تجاهَ المنافقينَ؟

أولًا: لا بدَّ منَ العلمِ بهمْ ومَكْرِهمْ، وأساليبِهمْ، وقراءةِ تاريخِهمْ ونماذجِهمْ بوعي في الماضيْ والحاضرِ، فالعلمُ بالشيءِ فرعٌ عنْ تصوُّرِه، والوعيُ خطوةٌ أُولى، وما زالَ القرآنُ يَنزلُ ويقولُ تعالى فيهمْ وفيهمْ حتى كشفَ اللهُ النفاقَ والمنافقينَ في قرآنٍ يُتلى إلى يومِ القيامةِ.

ثانيًا: وبعدَ العِلْمِ لا بدَّ مِنَ الحذرِ منهمْ والتحذيرِ منْ مخطَّطاتِهمْ وأهدافِهمْ، وقدْ نزَّلَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾(١) والخطابُ عامٌ للأمَّةِ في الحذرِ منَ المنافقينَ.

ثالثًا: والنهيُ عنْ طاعتِهمْ توجيهٌ للنبيِّ ﷺ، وأمّتُه تبعٌ لهُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٢)، قالَ القرطبيُّ: ودلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على أنه كانَ ﷺ يميلُ إليهمْ استدعاءً لهمْ إلى الإسلامِ، أي: لو علمَ اللهُ ﷻ أنَّ مَيْلَكَ إليهمْ فيهِ منفعةٌ لَمَا نهاكَ عنهُ؛ لأنهُ حكيمٌ عليمٌ، ثمَّ قيلَ: الخطابُ لهُ ولأمّتِه(٣).

رابعًا: جهادُ المنافقينَ كما يُجاهَدُ الكفارُ، بلْ والإغلاظُ عليهمْ، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٤).

عنْ عليٍّ رضي الله عنه قالَ: بُعثَ رسولُ اللهِ ﷺ بأربعةِ أسيافٍ: سيفٍ للمشركينَ:

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١١٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وسيفٍ للكفارِ أهلِ الكتابِ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[2]، وسيفٍ للمنافقينَ بهذهِ الآيةِ، وسيفٍ للبُغاةِ: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[3]. ثمَّ علَّقَ ابنُ كثيرٍ: وهذا يقتضيْ أنهمْ يُجاهَدونَ بالسيوفِ إذا أَظهروا النفاقَ، وهوَ اختيارُ ابنِ جريرٍ[4].

لقدْ فهمَ البعضُ أنَّ هذهِ الآيةَ في المنافقينَ تدلُّ على أنَّ النفاقَ سيظلُّ موجودًا وسيظلُّ محسوسًا ملموسًا منْ أشخاصٍ ترىُ فيهمْ آياتُ النفاقِ[5]، وإذا رأى طائفةُ أهلِ العلمِ مجاهدةَ المنافقينَ بالسيفِ -إذا أَظهروا نفاقَهمْ- فلا شكَّ أنَّ مجاهدتَهمْ باللسانِ والحُجةِ والبيانِ منْ بابِ أَولى، وقالَ القرطبيُّ: وهذهِ الآيةُ نَسختْ كلَّ شيءٍ منَ العفوِ والصُّلحِ والصفحِ.

خامسًا: الحذرُ منْ سِماتِ المنافقينَ، والبُعدُ عنْ كلِّ ما يؤدِّي إلى النفاقِ، قد سمعتُمْ أنَّ مرضَ القلوبِ درعٌ للمنافقينَ، ويمكنُ أنْ يتحوَّلوا إليهمْ ويَنخرطوا في سِلْكِهِمْ، فلْيحذرِ المسلمُ ولْيعالجْ نفْسَه ويفطمْها عنْ أمراضِ الشهواتِ والشبهاتِ، ومَن رعى حولَ الحِمى أوشكَ أن يَقَعَ فيهِ!

وأنتَ أيها المسلمُ والمسلمةُ مطالبٌ بمجاهدةِ المنافقينَ على قَدْرِ طاقتِكَ، فإنْ لَمْ تستطعْ فلا أقلَّ منْ بُغضِهمْ والحذرِ منْ أفعالِهمْ، والتحذيرِ منْ شرورِهمْ.

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ١١٨.
(٥) عبد العزيز كامل/ البيان.

سادسًا: عدمُ موالاةِ المنافقينَ والحذرُ مِنِ اتخاذِهِمْ بطانةً للمؤمنينَ، وكفى بالقرآنِ حَكَمًا وواعظًا، واللهُ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1].

سابعًا: عدمُ المجادلةِ والدفاعِ عنهمْ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[2].

ثامنًا: وعظُ المنافقينَ وتذكيرُهمْ برقابةِ اللهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[3].

تاسعًا: وإذا كانَ المنافقونَ بالكثرةَ التي قالَ عنها حذيفةُ رضي الله عنه: لوْ هَلكَ المنافقونَ لاستوحشتُمْ في الطرقاتِ لقلَّةِ السالكينَ -فالأمرُ يستدعيْ تجييشَ الأمّةِ والمجتمعِ كلِّه لمجاهدةِ المنافقينَ برجالِهِ ونسائهِ، بكبارهِ وصغارهِ، بعلمائهِ وعامّتهِ، وكلٌّ حَسَبَ استطاعتهِ.

عاشرًا: ونحنُ لا نتألَّى على اللهِ ولا يحقُّ لأحدٍ أنْ يقولَ: لا يهديْ اللهُ فلانًا

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨- ١٢٠.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٣.

ولن يصلحَ فلانًا منَ الناسِ، فالهدايةُ بيدِ اللهِ، وقلوبُ العبادِ بينَ أصبعَيْنِ منْ أصابِعِهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ، وأهلُ الخيرِ والعلمِ والدعوةِ يفرحونَ بتوبةِ التائبِ ويُسَرُّونَ لعودةِ الشاردِ، ويودُّونَ أنْ يفتحَ اللهُ على قلوبِ العُصاةِ والمستنكِرينَ بأسرعِ حالٍ، وإنهمْ حينَ يتحدَّثونَ عنِ النفاقِ والمنافقينَ لا يتشفَّون بأحاديثِهمْ ولكنهمْ مؤتمَنونَ على البلاغِ وكشفِ الباطلِ واستبانةِ سبيلِ المجرمينَ، وهمْ مَعَ ذلكَ يَدعُونَ مَنْ لُبِّسَ عليهِ، ومَنْ غلبتْ عليهِ شهوتُه أو أصرَّ على الخطأِ حفاظًا على شهرتِه، أو استحوذَ عليهِ الشيطانُ فأضلَّه.. يدعُونَ كلَّ هؤلاءِ للتبصُّرِ في أحوالِهمْ والنظرِ في عاقبةِ أمْرِهمْ، والتوبة لخالقهم. و﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[1].. اللهمَّ اهدِ ضالَّ المسلمينَ، وبصِّرْنا بالحقِّ.



(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

# مَن يخرق السفينة؟[1]

## الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ يَهدي مَنْ يشاءُ، ومَنْ يُضلِلِ اللهُ فما لهُ منْ هادٍ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، كَتَبَ الفناءَ على هذهِ الدنيا، والخلودَ في دارِ النعيمِ والجحيمِ في الأُخرى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ، أَمَرَ ونَهى ونصحَ وجاهدَ، وتركَ الأمةَ على مَحجَّةٍ بيضاءَ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، ورضيَ اللهُ عنْ صحابتِهِ أجمعينَ والتابعين ومَنْ تبعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

أيُّها المسلمونَ: نحنُ في هذهِ الحياةِ في مركبٍ واحدٍ، وكلُّنا مسؤولٌ عنْ سلامةِ هذا المركبِ، ولا ريبَ أنَّ ثمةَ مخاطرَ تُهدِّدُ المركبَ، وهذهِ المخاطرُ خارجيةٌ لا دخلَ لأهلِ المركبِ في إيجادِها -وإنْ كانَ بإمكانهمْ أنْ يخفِّفوا منها وأنْ يصمُدوا لرياحِها- ومخاطرُ داخليةٌ تعودُ إلى مَن همْ بداخلِ المركبةِ، ويُساهِمُ رُبَّانُ المركبةِ وراكُبوها في عَطَبِها أوْ إنقاذِها، وذلكَ هوَ الأهمُّ في الحديثِ عنِ المركبةِ وسلامتِها. والحديثُ عنْ هذهِ المركبةِ يُهمُّنا جميعًا،

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٥/ ٣/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

والرسولُ ﷺ وصفَ لنا سفينةَ المجتمَعِ، وكشفَ عنْ أسبابِ سلامتِها، وحذَّر مِنْ خَرْقِ السفينةِ ومَنْ يخرِقُ السفينةَ، وحذَّر منَ النتيجةِ المُرَّةِ لغرقِ السفينةِ.. موضِّحًا بذلكَ أهميةَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ عبرَ مثالٍ يَعقلُه العالِمُ والعامّيُّ، والرجلُ والمرأةُ، والصغيرُ والكبيرُ، فتعالَوْا بنا نقرأْ هذا المثلَ النبويَّ، ونسترشدْ بالهدْيِ الربّانيِّ في تشخيصٍ بديعٍ للقائمِ على حدودِ اللهِ، والواقعِ فيها، وحُماةِ السفينة، والخارقينَ لها، يقولُ ﷺ في الحديثِ الذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٢٤٩٣) عنِ النعمانِ بن بَشيرٍ رضي الله عنه: «**مَثَلُ القائمِ على حدودِ اللهِ، والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استهَموا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهمْ أعلاها، وبعضُهمْ أسفلَها، فكانَ الذينَ في أسفلِها إذا استقَوْا منَ الماءِ مرُّوا على مَنْ فَوْقَهِمْ، فقالوا: لوْ أنا خَرَقْنا في نصيبِنا خَرْقًا ولمْ نؤذِ مَن فوقَنا، فإنْ يتركوهمْ وما أرادوا هَلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعًا**».

أيها المسلمُ والمسلمةُ: إنَّ منَ الأسئلةِ المهمَّةِ -تجاهَ هذا الحديثِ- سؤالًا يقولُ: هلْ أنتَ منْ حُماةِ السفينة أوْ منَ الخارقينَ فيها؟

وقبلَ أنْ تُجيبَ لا بدَّ أنْ تستيقنَ أنهُ ليسَ منْ طرفٍ ثالثٍ غيرَ هذينِ الصنفَيْنِ يتحكَّمُ في مصيرِ السفينةِ، فإمّا قيادةُ حُماةِ السفينةِ، حيثُ تكونُ سلامةُ المركبِ، وإمّا قيادةُ الخارقينَ لها، حيثُ يكونُ الغرقُ، ومنْ هنا فلا مجالَ للصمتِ والسلبيةِ في وقتٍ يتحركُ فيهِ الخارقونَ للسفينةِ وينشطونَ لإفسادِها.. وإن زَعموا الإصلاحَ أو ظنوا -خطأً- أنهمْ يريدونَ الإنقاذَ!

إنَّ المتأملَ في أيِّ مجتمعٍ منَ المجتمعاتِ لا يَراهُ يخرجُ عنْ إحدى حالاتٍ ثلاثٍ: فإمّا أن ينتشرَ المعروفُ ويَكثرَ المصلِحونَ، وإمّا أنْ يشيعَ المنكرُ ويتطاولَ المبطِلونَ، وإمّا أنْ يكونَ دُولةٍ بين الأخيارِ والأشرارِ، ويشيعَ فيهِ المعروفُ والمنكرُ على حدٍّ سواء.

ولكنَّ الشيءَ الذي ينبغي أنْ يُدرَكَ جيدًا، أنَّ ضعفَ الأمرِ بالمعروفِ وانحسارَ النهيِ عنِ المنكرِ في مجتمعٍ ما منَ المجتمعاتِ ذو خطورةٍ بالغةٍ ومضاعفةٍ، فليستِ المشكلةُ في ضعفِ الأمرِ والنهيِ وقلّةِ الخيرِ وضعفِ الأخيارِ، بلْ فوقَ ذلكَ قوةُ المنكرِ وسيطرةُ الأشرارِ والنهيُ عنِ المعروفِ وغيابُ الأخيارِ.. وحينَ يبلغُ الفسادُ بالمجتمعِ هذا المبلغَ فقُلْ: على الفضيلةِ السلامُ، وصلِّ صلاةَ الغائبِ على الأخيارِ، إلا أنْ يتداركَهمُ اللهُ برحمتِهِ، ويبعثَ فيهمْ مَنْ يوقظُهمْ منْ رقدتِهِمْ.

عبادَ اللهِ: وإذا اختلفَ الناسُ في أسبابِ الفلاحِ، وعواملِ البقاءِ، وأسبابِ الشقاءِ، وعواملِ الفناءِ، فالحُكمُ للهِ، والمرجعُ شرعُ اللهِ.. واللهُ يقصُّ الحقَّ وهوَ خيرُ الفاصلينَ، ويقولُ في مُحكمِ التنزيلِ (موضِّحًا أسبابَ النجاةِ والهلاكِ): ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(١)].

ويقولُ تعالى في سورةٍ أخرى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[(٢)].

أيُّها الناسُ: ومنذُ القِدَمِ والناسُ منهمْ مؤمنونَ ومؤمناتٌ يأمرونَ بالمعروفِ

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٩٦- ١٠٠.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ١٦، ١٧.

وينهَوْنَ عنِ المنكرِ.. ومنافقونَ ومنافقاتٌ يأمرونَ بالمنكرِ وينهَوْنَ عنِ المعروفِ، وفضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ، فمنهمْ مفتاحٌ للخيرِ مغلاقٌ للشرِّ، وآخرونَ مغاليقُ للخيرِ مفاتيحُ للشرِّ، يَضعفُ إيمانُهمْ باللهِ ويستبعِدونَ الجزاءَ في اليومِ الآخرِ، فتنتكسُ فِطرُهمْ، ويزعمونَ أنهمْ مصلحونَ، وهمْ مفسدونَ، ويَحسبونَ أنهمْ يُحسنونَ صُنعًا، وهمْ يَجنُونَ على أنفسِهمْ وعلى مجتمعِهمْ شرورًا وفِتَنًا، والمنافقونَ بلا ريبٍ ممنْ يخرقُ السفينةَ ويُغرِقُ أهلَها، على أننا حينَ نستقرأُ الواقعَ نجدُ أصنافًا أخرى غيرَ هؤلاءِ المنافقينَ يُسهمونَ في خرقِ السفينةِ.. ولذا لا بدَّ أنْ نفتِّشَ عنْ مَنْ يخرقونَ السفينةَ، ونحدِّدَ ملامحَهمْ ونُحذِّرَ مِن صنيعِهم، ومِنْ هؤلاءِ:

١- المُتَّبعونَ للشهواتِ الغارقونَ في الملذَّاتِ سواءٍ صحَّ طريقُها أوْ لمْ يصحَّ، وسواء كانتْ شهواتٍ مباحةً أوْ محرَّمةً، أولئكَ يُنقِّبونَ في السفينةِ، ولوْ مالتْ بأهلِها مَيْلًا عظيمًا، وصدقَ اللهُ: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[1].

٢- البطَّالونَ الضائعونَ، الذينَ لا يريدونَ أنْ يبذلوا جُهدًا لمدافعةِ الشرِّ أو يَدفعوا مالًا لنصرةِ الحقِّ، بلْ ربَّما سرقوا مالًا، أوْ روَّجوا مُخدِّرًا، أوِ ارتكبوا محظوراتٍ أخرى، فأولئكَ كذلكَ يَخرِقون في السفينةِ ولا يُصلِحونها.

٣- أهلُ الغرورِ والكبرياءِ الذينَ يروْن الرشدَ بعقولِهمْ وحدَهمْ دونَ أنْ يَلتفتوا إلى عقولِ الآخرينَ، بلْ ربَّما حَكَموا على عقولِ غيرِهم قبلَ أنْ يَعلموها، وربما صادروا آراءَ الآخرينَ قبلَ أنْ يَستبينوها، وقدْ عابَ القرآنُ على فرعونَ مقولتَهَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2]، وما نفعه الوعي حين جاء

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٩.

الغرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1]، قال اللهُ له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[2].

٤- ويخرقُ السفينةَ عالِمونَ آكلونَ بعِلْمهمْ، مستفيدونَ لأنفسِهمْ، مضلِّلونَ لأمتهم، يَنسلخونَ منَ العلمِ، ويتخلَّونَ عنْ نُصحِ الخَلْق، إنهمْ لا يَجهلونَ لكنْ يتجاهلونَ، وهمْ لا يُخدعونَ لكنهمْ يَخدَعُونَ، يعرفونَ الحقَّ ولا يَدعُونَ إليهِ، ويعرفونَ المنكرَ ولا يستنكرونهُ.. أولئك خَرْقُهمْ في السفينةِ عظيمٌ، وفتنتُهمْ للناسِ كبيرةٌ، ونماذجُهمْ في الأممِ السالفةِ:

﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾[3] ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

وتتكرَّرُ هذهِ النماذجُ في أمّةِ الإسلام، ويكونُ أحدَ الثلاثةِ الذينَ هُمْ أولُ مَنْ تسعَّرُ بهمُ النارُ يومَ القيامة رجلٌ جَمَعَ القرآنَ، فيقولُ اللهُ لهُ يومَ القيامةِ: **ألَمْ أعلِّمْكَ ما أنزلتُ على رسولي؟ فيقولُ: بلى يا ربِّ، قال: فماذا عَمِلتَ فيما عَلِمتَ؟ قالَ: كنتُ أقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فيقولُ اللهُ له: كذَبتَ، وتقولُ**

(١) سورة يونس، الآية: ٩٠.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

لهُ الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللهُ له: بلْ أردتَ أنْ يُقالَ: فلانٌ قارئٌ، وقدْ قيلَ ذلكَ(١).

وعندَ مسلم: «إنَّ أولَ الناسِ يُقضى عليهِ يومَ القيامةِ.. إلى قوله: «ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمهُ، وقرأَ القرآنَ..» وفيه: «تعلمتَ العلمَ ليُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: هوَ قارئٌ، فقدْ قيلَ، ثمَّ أُمرَ بهِ فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقيَ في النارِ»(٢).

وفي محكم التنزيل بيانٌ ووعيد: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

اللهمَّ انفعْنا بهَدْيِ القرآنِ وسنّةِ محمدٍ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، اللهمَّ إنّا نستغفرُكَ فاغفرْ لنا، ونستهديكَ فاهدِنا، أنتَ الهادي وأنتَ الغفورُ الرحيمُ.



(١) أخرجه الترمذي «جامع الأصول» ٤/ ٥٤٠.
(٢) «جامع الأصول» ٤/ ٥٤١.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، نصرَ عبدَهُ، وأعزَّ جندَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، كلَّ يومٍ هوَ في شأنٍ، وله الحُكمُ وإليهِ تُرجَعونَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، قامَ في ذاتِ اللهِ، وبلَّغَ رسالةَ ربِّهِ، ونصحَ للأمّةِ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادهِ. . ﷺ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ.

إخوةَ الإيمانِ:

٥- ويخرقُ السفينةَ أنانيُّونَ لا يَشعرونَ إلا بأنفسِهم، ولا يُفكِّرونَ إلا بذواتِهِمْ، وإن لاحتْ لهمْ بوادرُ الخَطَرِ لا يهمُّهمْ صلاحُ المجتمعِ أو فسادُهُ، ولا تتمعَّرُ وجوهُهمْ للمنكَراتِ تشيعُ هنا وهناكَ، دائرةُ تفكيرِهمْ ضيقةٌ، ومساحةُ الغيرةِ عندَهمْ محدودةٌ.

٦- ويُسهمُ في خَرْقِ السفينةِ سطحيُّونَ لا يُدرِكونَ حجْمَ الخطرِ، ولا يتصوَّرونَ ضخامةَ المصيبةِ النازلةِ، ولا يَنظرونَ إلى مستقبلِ الأيامِ بعمقٍ ورويّةٍ، لا يَسمعونَ للنداءاتِ المحذِّرةِ، وإنْ سَمعوا لمْ يَستجيبوا، إذا علا صوتُ النذيرِ رأَوْه مبالِغًا، وإذا اتضحَ هدفُ المفسِدينَ لم يُحرِّكوا ساكنًا ولمْ يدفعوا باطلًا.

٧- ويخرقُ السفينةَ أحمقُ متهوِّرٌ يريدُ أنْ ينتقمَ لنفسِه أوْ ينتقمَ منَ الآخرينَ، فيحاولُ بكلِّ وسيلةٍ إغراقَ أهلِ المركبةِ، وإنْ كانَ هوَ ضمنَ قائمةِ الغرقى، وتضيقُ بهِ مساربُ الحياةِ فيختارُ تحطيمَ نفسِهِ والآخرينَ معهُ.

٨- ويُسهمُ في غرقِ السفينةِ متعجِّلٌ -وإنْ كانَ هدفهُ خيرًا- وغيرُ حكيم -وإنْ كانَ قصدُه حسنًا-، فقدْ يقودُه اجتهادُهُ إلى نزعِ خشبةٍ في السفينةِ ليسدَّ بهاً خرقًا آخرَ، فإذا الخرقُ الذي أحدثَ أشدُّ ضررًا وأدعى للغرقِ! وفاتَه أنْ يستشيرَ غيرَهُ قبلَ أن يُحدثَ الضررَ الذي أحدثَ.

أيها المسلمونَ: أمّا حماةُ السفينةِ.. ومَنْ يقفُ في وجهِ هؤلاءِ الخارقينَ: فهمُ الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عنِ المنكرِ، الذينَ يُتعِبونَ أنفسَهمْ منْ أجلِ أنْ يستمتعَ ويستريحَ غيرُهمُ، الذينَ يَسهرونَ منْ أجلِ أنْ يطمئنَّ غيرُهمْ، والذينَ يُخاطِرونَ بأنفسِهمْ من أجلِ أنْ يأمَنَ غيرُهمْ، بلْ مِنْ هؤلاءِ الحُماةِ المنقذينَ للسفينةِ ومَنْ عليها مَنْ قدْ لا يُجد لسدِّ خرقِ السفينةِ إلا رِجْلَه أو يدَهُ، تنهشُه الأسماكُ، وتُزعجُهُ دوابُّ البحرِ، ومَعَ ذلكَ لا يتحرّكُ حرصًا على سلامة الآخرينَ، وهؤلاءِ الناصحونَ المرابطونَ قدْ يسخرُ منهمْ بعضُ الجُهّالِ في المركبِ، لطولِ وقوفِهمْ على خُروقِ السفينةِ وعظيمِ تضحيتهمْ، بلْ قدْ يؤذيهمْ خارقو السفينةِ، وقدْ يشوِّهونَ سمعتَهمْ ويشكِّكونَ في مصداقيةِ حراستهِمْ للسفينةِ.. وما يضيرُهمْ إذا كانَ اللهُ معهمْ، يعلمُ قصدَهمْ، وهو المطَّلعُ على حُسنِ نواياهمْ، والمقدِّرُ لجهدِهمْ وجهادِهمْ.

إنَّ هؤلاءِ المنقذينَ أصنافٌ كثيرةٌ، منهمُ الرجالُ والنساءُ، ومنهمُ العلماءُ والعوامُّ، ومنهمُ الدعاةُ وطلبةُ العلمِ، فيهمُ الأغنياءُ والفقراءُ، وفيهمُ المجاهدُ بنفسِهِ ومالِه ومَنْ لا يملكُ إلا الدعاءَ، منهمْ من يعملُ بنفسِه، ومنهمْ مَنْ لا يملكُ إلا المشورةَ والرأيَ، منهمْ مَنْ يتصدَّى لمنْ يخرقُ السفينةَ، ومنهمْ مَنْ يرصدُ ويكشفُ عوراتِ هؤلاءِ الخارقينَ، ومِنَ المنقذينَ للسفينةِ: أصحابُ الغيرةِ على المحارمِ، وإنْ لمْ يكونوا ملتزمينَ بأحكامِ الإسلامِ كلِّها، وأصحابُ العقول المقدِّرةِ لعواقبِ الأمورِ، وإنْ كانوا ظالمينَ لأنفسِهمْ مسبوقينَ في عملِ الصالحاتِ، ففَرْقٌ بينَ من يأتي المنكرَ وهوَ له كارهٌ، ويودُّ ألاّ يقعَ غيرُه فيما وقعَ هوَ فيهِ، وبينَ مَن يُقدِمُ على المنكرِ كما لو أقدمَ على معروفٍ، بلْ يودُّ أنْ يكونَ هذا المنكرُ سلوكًا شائعًا في المجتمعِ كلِّه، نَعَمْ فرقٌ بين الانتهاكاتِ السلوكيةِ، والانتهاكاتِ القِيَميةِ.

إنَّ أرقى المجتمعاتِ -مجتمعَ النبيِّ ﷺ- لمْ يسلمْ منْ ممارسةِ المنكرِ، لكنْ فرقٌ بينَ مَنْ يقولُ: زنيتُ يا رسولَ الله فطهِّرْني، وبينَ مَنْ يزني وهوَ يرى الزنى سلوكًا حضاريًا أو حريةً شخصيةً يتّهِمُ مَنْ ينكرُها!

أيها المسلمونَ: ليجعلْ كلُّ واحدٍ منكمْ نفسَه منقذًا للسفينةِ، لا خارقًا فيها، وليسَ يَخفى أنه ما منْ منكرٍ يتصدَّى له الناسُ بالإنكارِ، إلا توارى هذا المنكرُ أو جلُّه، أو دفعَ اللهُ بهذا الإنكارِ منكرًا آخرَ سيترتَّبُ على المنكرِ قبلَه، ولوْ لمْ يكنْ منْ ذلكَ شيءٌ فتكفي المعذرةُ: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

وإذا كانَ الناسُ كلُّهم إذا مُسَّتْ مصالحُهمُ الدنيويةُ ثاروا واستنكَروا دونَ أنْ يُنيبَ أحدٌ منهمْ غيرَهُ، فأصحابُ الغيرةِ والذينَ تتمعَّرُ وجوهُهمْ للمنكرِ همُ الذين يَستنكِرونَ ويتحرَّكونَ إذا اعتديَ على الدِّينِ واستُخفَّ بالقِيَمِ والأخلاقِ والسلوكياتِ الحميدةِ.

وتلكَ شهادةٌ عاجلةٌ لهمْ بالإيمانِ في الدنيا، وأجرُهمْ على اللهِ يومَ يلقَوْنه وقدْ قاموا بأمرِهِ: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

إخوةَ الإيمانِ: دعوني أختمْ لكمْ بقصةٍ واقعيةٍ تبيِّنُ أثرَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ في إزالةِ المنكَرِ واستصلاحِ المخطئينَ.. حدَّثَ صاحبي وقالَ:

في صالةِ المطارِ كانَ الشابانِ يَستعدّانِ للسفرِ، وقدْ غيرًا ملابسَهما، وقصّا شعورَهما، وربَّما خُتمتْ جوازاتُهما.. وهما يستعدّانِ للسفرِ، إذْ أبصرَهما ناصحٌ مشفقٌ عليهما، وسائلَهما قائلًا: إلى أينَ السفرُ يا أحبّائي؟ فتَلَعْثما في

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٥.

الإجابةِ، فسبقَهما قائلًا: كأنكما تريدانِ السفرَ إلى بلادِ كذا.. حيثُ تشيعُ الفاحشةُ، وتنتشرُ الرذيلةُ، وتوضعُ المصائدُ للشبابِ؟ وإني لكما ناصحٌ وعليكما مشفقٌ، إلاَّ راجعُتما أنفسَكما واستخرتُما اللهَ عنْ هذا السفرِ، فهل تعتقدانَ أنَّ اللهَ غافلٌ عنكما أينما كنتما؟ وما رأيُكما لوْ وافتْكما المنيةُ على حالٍ لا ترضَوْن أنْ تكونَ خاتمةً لحياتِكما؟ أليسَ واردًا أنْ تذهبا أحياءً وتعودا في التوابيتِ أمواتًا؟ ما حجمُ فضيحتِكمْ في الدنيا؟ وكيفَ بكمْ إذا قدمتُما على اللهِ تحملانِ أوزاركما على ظهورِكما يومَ القيامةِ؟

وما زالَ الناصحُ يقرعُ أسماعَهما بالحديثِ ويضربُ لهما الأمثالَ.. حتى التفتَ أحدُهما إلى صاحبِهِ قائلًا: ما رأيُك في إلغاءِ السفرِ؟ فتردَّدَ الآخرُ ثمَّ وافقَهُ على إلغاءِ السفرِ. أما الناصحُ لهما فقدْ تشجَّعَ.. رغمَ أنَّ وقتَ سفرِه قريبٌ، فما كانَ منهُ إلا أنْ ذهبَ بهما إلى صديقٍ لهُ صالحٍ، وأوصاهُ فيهما خيرًا، فاستقبلَهما صاحبُه وأكرمَ ضيافَتهما، ثمَّ عرضَ عليهما أنْ يذهبوا سويًا للطائفِ للمتعةِ والأُنُسِ جميعًا، فوافقا، ثمَّ قالَ لهما: وما رأيُكما لو أخذْنا عُمرةً في طريقِ ذهابِنا؟ فوافقا.. وكانَ الوقتُ ليلًا، قالَ: إذًا فاستريحا حتى إذا كانَ الصباحُ تحرَّكْنا.. فتركَهما الضيفُ في مجلسِهِ وذهبَ إلى غرفةِ نومِهِ، ولكنَّ الشابين استطالا الليلَ، وربما عاودَهما الشيطانُ بنزغِهِ، فخرجا منَ البيتِ وقرعا الجرسَ في ساعةٍ متأخِّرةٍ منَ الليلِ، ليستأذنا مُضيفَهما في الانصرافِ، وحينَ استيقظَ وسمعَ كلامَهما، قال: ما رأيكما أنْ نبدأَ الرحلةَ الآنَ؟ فوافقا، فأحرمَ الثلاثةُ كلُّهمْ ولبَّوا بالعمرةِ مخلصينَ للهِ، وكانتْ آخرُ كلماتِهم: لبَّيكَ اللهمَّ لبيكَ، لبيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلكَ، لا شريكَ لكَ لبَّيكَ.. ويا لها منْ كلماتٍ لو تأمَّلهَا المُحرِمونَ.. وكانتِ المنيةُ تنتظرُهمْ وهمْ مُحرمونَ، وعلى بضعِ كيلوات وقعَ الحادثُ وتوفيَ الثلاثةُ قبلَ وصولِهمْ إلى

مكةَ.. وحُملوا إلى المستشفى ثمَّ إلى المقبرةِ وأكفانُهم ثيابُ الإحرامِ، وآخرُ عهدِهمْ بالدنيا الذِّكرُ والطاعةُ، وفرقٌ بينَ مَنْ يُبعثُ يومَ القيامة مُلبّيًا، وبينَ من يموتُ في بلادِ الخيانةِ والفجورِ مُجرمًا فاسقًا.. وبعدَ حينٍ اتصلَ صاحبُهما الأولُ على صاحبِهِ ليسألَ عنْ حالِ الشابَّينِ.. فأجهشَ محدِّثُه بالبكاءِ وهوَ يَقصُّ عليهِ نهايةَ الثلاثةِ، فما تمالكَ نفسَهُ عنِ البكاءِ.. لكنهُ حَمِدَ اللهَ أنْ كانَ سببًا في هدايتِهما وحُسنِ خاتمتِهما.



# على أسوار القسطنطينية[1]

## الخطبة الأولى:

إن الحمدُ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

أيها المسلمون: وفي الأيامِ الحالكةِ، وفي ظروفِ الأَزماتِ والشدةِ علَّمَ الرسولُ ﷺ أصحابَه والمؤمنين من بعدِهم، التفاؤلَ بنصرِ الله، وبشَّرهم بالفتوحِ الإسلامية والمشركون يغزونَهم في عُقْر دارِهم، ووَعَدَهم التمكينَ في الأرض والنصرَ على الأعداء.

أجل، لقد بلغ الكربُ في غزوةِ الأحزاب ما قصّ اللهُ في كتابه: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[3].

وبلغ الفألُ عندَ رسول الله ﷺ حين اعترضتْ صخرةٌ للصحابةِ وهم يَحفِرون الخندقَ، فاستنجدوا برسولِ الله ﷺ، فضربها ثلاثَ ضَرَباتٍ فتفتَّتتْ وقال إِثرَ

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/ ٣/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١١.

الضربةِ الأولى: «**الله أكبرُ، أُعطيتُ مفاتيحَ الشامِ، واللهِ إني لأبصرُ قصورَها الحمراءَ الساعةَ**»، ثم ضربها الثانيةَ فقال: «**اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ فارسَ، واللهِ إني لأبصرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ**» ثم ضرب الثالثةَ وقال: «**اللهُ أكبرُ، أُعطِيتُ مفاتيحَ اليمن، واللهِ إني لأبصرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذه الساعةَ**» الحديث رواه أحمدُ والنَّسائيُّ بإسنادٍ حسن كما قال ابنُ حجر في الفتح ١٥/ ٢٨٠.. وغيرهما.

اللهُ أكبر، كم بينَ مشاعرِ المسلمين في هذه اللحظةِ الشديدةِ التي عبَّر عنها بعضُ المنافقين بقوله: كيف يَعِدُنا محمدٌ ﷺ كنوزَ كسرى وقيصرَ وأحدُنا لا يستطيعُ أن يقضيَ حاجتَه[1].

وكَشَفَهم القرآنُ الكريمُ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[2].

أقولُ: كم بينَ هذه المشاعرِ اليائسةِ من قِبَل المنافقين، والمُزلزَلَةِ من قِبَل المؤمنين، وبين بُشرى رسولِ الله ﷺ من مسافةٍ، وصَدَقتِ البشرى، وكانت تلك الكلماتُ منه ﷺ دلائلَ نبوةٍ وبشرى، ووعدًا صادقًا بفَتْح المسلمين مستقبَلًا لهذِه البلاد، ودينونةِ أهلِها بالإسلام، بل وانسياحِ الإسلامِ فيما وراءَها من بلادٍ وأُمم كانت تعيشُ الظُّلمَ والظلامَ، فانقلبتْ بعد الإسلامِ تتفيَّءُ نورَ الإسلام، وتتقلَّبُ في العدلِ والأمان.

إخوةَ الإيمان: لكنَّ هذه الفتوحَ لم تُهدَ المسلمين على أطباقٍ من الدَّعَةِ والاسترخاء، وإنما تمَّتْ بعد بذلِ الأرواحِ والمُهَج، وإنفاقِ الغالي والنفيس،

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٤٧.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

وجمعِ طاقةِ الأمَّة والارتفاعِ بهِمَمِها، والمرابطةِ على الثغورِ عدَّةَ سنين، والتنافسِ على الموتِ في سبيل الله أو تحقيقِ النصر لدين الله.

أيها المسلمون: وهلمُّوا معي أقصُّ عليكم بناءَ ملحمةٍ من ملاحمِ المسلمين مع أعدائِهم الروم، وإن شئتَ فقُلْ: فصلًا من فصولِ الجهادِ في سبيل الله، ومحاولةً من محاولاتِ المسلمين لفتح القسطنطينية (مَعقِل الروم) وعلى أسوارِ القسطنطينية أقِفُ وإياكم، وعن جهودِ الأُمويِّين أحدِّثُكم.

ومرةً أخرى أعودُ إلى هَدْيِ النبوة، وفي «صحيحِ البخاري» في كتاب الجهاد، باب: ما قيلَ في قتالِ الروم، عن أمِّ حَرَامٍ زوج عُبادةَ بنِ الصامت ﵂ قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**أولُ جيشٍ من أُمَّتي يغزونَ البحرَ قد أَوجَبُوا**» قالت أمُّ حرام: قُلتُ: يا رسولَ الله، أنا فيهم؟ قال: «**أنتِ فيهم**» ثم قال النبيُّ ﷺ: «**أولُ جيشٍ من أُمتي يغزونَ مدينةَ قيصرَ مغفورٌ لهم**» فقلتُ: فيهم يا رسولَ الله؟ قال: «**لا**»[1].

وأقفُ مع هذا الحديثِ، ومع أولِ محاولاتِ المسلمين لفتح القسطنطينية عِدةَ وَقَفاتٍ:

١- هِمّةُ هذه المرأةِ المسلمةِ على فعلِ الخير والجهادِ في سبيل الله، رجاءَ مغفرةِ الذنوب ورِفْعةِ الدرجاتِ، وقد وَرَدَ في روايةٍ أخرى عند البخاري: أن أمَّ حرامٍ ﵂ حين سمعتْ من رسولِ الله ﷺ عن نفرٍ من أُمتِه يركبون ثَبَجَ البحرِ مجاهدين في سبيل الله قالت: يا رسول الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم، فقال: «**اللهمَّ اجعَلْها منهم**».

وقد كان وركِبَتْ أمُّ حرامٍ البحرَ مع المجاهدين، وشاء اللهُ أن تُستشهَدَ وهي

(١) الفتح ٦/ ١٠٢، ح ٢٩٢٤.

غازيةٌ على أثرِ وَقْصِ دابتِها[١].

وفرقٌ بين هِمَّةِ هذه المرأةِ في الجهادِ والاستشهاد، وهِمَمِ نساءٍ أُخرَ لا يتجاوزنَ المطعمَ والمشربَ والمُودِيل والمُوضة. . ، وأعظمُ من ذلك إذا كانت بَرِيدًا للفتنة مُستخدمة لإشاعةِ الفاحشة، ومع ذلك فلا يزالُ في عددٍ من نسائِنا خيرٌ كثيرٌ، ومنهنَّ من تتطلَّعُ إلى همَّةِ أم حرامٍ، وتودُّ أن تنتهيَ كنهايتِها.

٢- في الحديثِ -كما قال أهلُ العلم- مَنقِبةٌ لمعاويةَ ﵁ لأنه أولُ مَن غزا البحرَ، ومنقبةٌ لولدِه يزيدَ لأنه أولُ من غزا مدينةَ قيصرَ (القسطنطينية)[٢].

٣- وفي الحديثِ كذلك منقبةٌ لأبي أيوبَ الأنصاريِّ ﵁، الذي كان ضمنَ هذا الجيشِ الغازي للقسطنطينيةِ، بل استُشهِدَ عند أسوارِها، وأَوصى أن يُدفَنَ عند بابِ القسطنطينية، وأن يُعفَى قبرُه، ففُعِل ذلك به، ويقال: إن الرومَ صاروا بعد ذلك يَستسقُون به[٣].

٤- وعيُ معاويةَ ﵁ وحرصهُ على حربِ الروم جعلَه يُعِدُّ العُدَّة ويرسلُ البعوثَ لمحاصرةِ الروم وإشغالِهم عن المسلمين من جانبٍ، وفتحِ بلادِهم ونشرِ الإسلام فيها من جانبٍ آخرَ، وفوقَ هذا وذاك فهو منه إدراكٌ واعٍ لموقعِ الروم في الأُمم، تلك التي عبرَّ عنها ﵁ بقوله: «شُدُّوا خِنَاقَ الرومِ فإنكم تَضبِطون بذلك غيرَهم من الأمم»[٤].

٥- وشارك معاويةَ ﵁ في هِمّةِ جهادِ الروم خلفاءُ آخرون في دولةِ بني أُميَّة،

---

(١) البخاري، الجهاد: غزو المرأة في البحر، الفتح ٦/ ٧٦ ح ٢٨٧٧، ٢٨٧٨.
(٢) الفتح ٦/ ١٠٢.
(٣) الفتح ٦/ ١٠٣.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٢٠.

ومن أبرزِ هؤلاء عبدُ الملك بنُ مروانَ وسليمانُ بنُ عبدِ الملكِ رحمه الله حيث جمعَ الجموعَ وحشدَ الحشودَ لغزوِ الروم، وشاركه الهِمةَ جماعةٌ من الفقهاءِ والمحتسبين، وهمَّ الخليفةُ سليمانُ بالإقامة في بيتِ المقدسِ لجمعِ الناسِ والأموالِ، ولكنه عَدَلَ عنها إلى (دابق) شمالًا (وهي قريةٌ قربَ حلب) وذلك ليكونَ أقربَ إلى ميدانِ القتال، وليرفعَ من روحِ المقاتلين، بل لقد حَلَفَ ألا يعودَ حتى تُفتحَ القسطنطينيةُ أو يموتَ دون ذلك، وقد برَّ بيمينِه فمات هناك، قال ابنُ كثير: فحَصَلَ له بهذه النيةِ أجرُ الرِّباطِ في سبيل الله، فهو -إن شاء اللهُ- ممَّن يُجرى له ثوابُه إلى يومِ القيامة رحمه الله[1].

٦- ومَسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ، وعمرُ بنُ هُبَيْرَةَ الفَزَاريُّ ومَسْلمةُ بنُ حبيبٍ الفِهْري وأبو يحيى البَطَّال وغيرُهم من قادةِ الجيوش، أو سائرِ رجالات الجيشِ الغازي.. كلُّ هؤلاء أبلَوْا بلاءً حسنًا وتحمَّلوا عناءَ السفرِ ومشقَّةَ الجهاد، ومنهم من قَضَى نحبَه شهيدًا صادقًا، ومنهم مَن انتظرَ مرابطًا صابرًا محتسبًا على صعوبةِ العيش وبَرْدِ الشتاء، ودونكم هذه الروايةَ عن شاهدِ عِيانٍ تحكي شيئًا من معاناةِ المجاهدين هناك، يقول الذهبيُّ: قال محمدُ بن زيادٍ الألْهاني: غزوْنا القسطنطينيةَ، فجُعْنا حتى هلكَ ناسٌ كثير، فإنْ كان الرجلُ يخرجُ إلى قَضاءِ الحاجَةِ، والآخرُ ينظرُ إليه، فإذا قام أقبلَ ذلك على رجيعِه فأكلَه[2].

وهل تعلمونَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز رحمه الله حين استُخلِفَ -بعدَ سليمانَ- وأَمرَ بعودةِ الجيشِ المرابطِ على أسوارِ القسطنطينية، لم يرجعْ هذا الجيشُ إلا بعد تردُّدٍ، وكان رجوعُه استجابةً لمطلبِ الخليفةِ؟

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٠٢.

٧- درسٌ من التاريخِ يُعلِّمنا عدمَ الركونِ للأعداءِ والثقةِ إليهم ومحالفتِهم، ففي هذه الحملةِ على القسطنطينيةِ، حاصرَ المسلمون في طريقِهم- عمُّوريةَ، فكتب حاكمُها النصرانيُّ (أليون) إلى مَسْلمةَ بنِ عبد الملك يُخبِرُه بما تحتَ يدِه، ويطلبُ منه الإذنَ بمقابلتِه، ويعَرِضُ عليه النصحَ والنصرةَ لفتحِ القسطنطينية، فلما قرأ مَسلمةُ الكتابَ، استشار أمراءَه وأهلَ مشورتِه، فأشاروا عليه جميعًا بالموافقةِ على المقابلةِ والعرضِ إلا رجلًا واحدًا هو مَسْلمةُ بن حَبيبٍ الفِهْري الذي رفضَ ذلك بحُجَّةِ أن الرومَ أهلُ مكرٍ وخداع، وهذه إحدى مكرِهم فلا تُعطِهِ إلا السيفَ[١].

ولكنَّ المجتمعين خالفوه الرأيَ، بل ضَحِكوا من رأيه، وقالوا: كبِرَ الشيخُ، وهوَّنوا من شأنِ (أليون)، فأذِنَ لصاحبِ عمُّوريةَ وجاء إلى مَسلمةَ ومعه اثنا عشرَ ألفًا من قوَّادِه، فاتفقا على أن يدلَّ أليونُ المسلمين على فتحِ القسطنطينية في مقابلِ تمليكِه على الروم، وابتدأ تنفيذُ الاتفاقِ بفكِّ الحصارِ عن (عمورية)، وصاحَبَ (أليون) المسلمين حتى وصلوا إلى القسطنطينيةِ، وظلَّ يتحيَّنُ أدنى فرصةٍ للغَدْرِ بالمسلمين، ولسببٌ أو لآخر تختلفُ الروايات في تحديده، دخلَ (أليون) إلى القسطنطينيةِ واتفق مع أهلِها أن يُملِّكوه عليهم مقابلَ تصدِّيه لمسلمةَ وجيشِ المسلمين والغدرِ بهم، وهنا أَحسَّ مسلمةُ والمسلمون معه بغَدْر النصارى ومكرِهم وظهرَ لمسلمةَ ومن شاركه الرأيَ خطؤُهم، واشتدَّ أَسَفُهم وغَلبتْهم الكآبةُ وأصابهم نتيجةَ هذا الغدرِ -همٌّ عظيمٌ. . ولكن هيهاتَ بعدَ فواتِ الأوان، وحين بعثَ مسلمةُ بعضَ رجالاته لمناقشةِ (أليون) في غدرِهِ وتذكيره بما عاهدَ المسلمين عليه، أجابهم (أليون) بكلِّ صراحة قائلًا: لئن ظنَّ مسلمة أني أبيعُ

(١) تاريخ دمشق ٥٨/ ٢١.

مُلكَ الروم بالوفاءِ له لبئسَ ما ظنَّ(١).

وبقي الدرسُ الجليُّ لمَسْلمةَ والمسلمين معه، بل وللمسلمين من بعدِه بعدمِ الركونِ للكافرين، والتعاملِ الواعي والمشروعِ مع الكافرين وَفْقَ عقيدةِ الولاءِ والبرَاءِ، ووَفْقَ توجيهاتِ العليمِ الخبير، وكفى بالقرآنِ واعظًا، والله يقول: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢).



(١) تاريخ دمشق ٦٦/ ٢٤٦، ٢٤٧، الذهبي: تاريخ الإسلام ٨١- ١٠٠ ص ٢٧١، وانظر: د. سليمان السويكت، الحملة الأخيرة على القسطنطينية في العصر الأموي/ ٢٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٨.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ أمرَ بجهادِ الكافرين والمنافقين والغِلْظةِ عليهم، كما أمرَ بالقِسْط والبِرِّ عن الذين لم يُقاتِلُوكم في الدِّين ولم يُخرِجُوكم من ديارِكم، والله يُحبُّ المُقسِطين، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، نهى عن موالاةِ الكافرين واتخاذِ بطانةٍ لا يَأْلونَ المسلمين خَبالًا.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولهُ قال: وجُعِلَ رزقي تحتَ ظِلِّ رمحي، والذلُّ والصَّغَارُ على مَن عَصَاني، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ.

٨- إخوةَ الإسلام: وثَمةَ درسٌ ثامنٌ من هذه الحملةِ المبكِّرةِ لمحاولة فتحِ القسطنطينية يقول: الهوِّيَةُ الدينيةُ أمكنُ من الهويةِ العِرْقية.. كيف هذا؟ وما دليلُه في هذه الحملةِ؟

لقد جاءَ في بعض الرواياتِ التاريخيةِ أنه كان يعيشُ في بلادِ الروم في ذلك الزمان عناصرُ عربيةٌ نصرانية، وكانت تُقاتِلُ جنبًا إلى جنبٍ في صفوفِ الرُّوم النصارى، بل كان بعضُهم شديدًا على المسلمين، كما في قصةِ خالدِ ابن عُمَير السُّلَمي الذَّكْواني الذي بارزَ رجلًا من المسلمين أثناءَ الحِصار، فأُسِرَ هذا النصرانيُّ العربيُّ وبُعِثَ به إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ وهو بِحرَّانَ والٍ عليها، فقُتِلَ بينَ يديه لما أصرَّ على الكفرِ(١).

ومن هنا فلا بدَّ من التأكيدِ على ولاءِ العقيدةِ ورابطةِ الأُخوَّةِ الإسلامية وعدمِ المبالغةِ والاتكاءِ على روابطِ الجنسِ واللغةِ واللون، فتلك لا يقامُ عليها بنيانٌ،

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ١٧٩، معجم البلدان ٣/ ٤٣- ٤٤، د. سليمان السويكت، الحملة ٢٥.

ولا يُعتمَدُ على أصحابِها في الجهادِ ونكايةِ العدو، وتحريرِ المقدَّسات.

وأخوَّتُنا -معاشرَ المسلمين- بالإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وكرامتُنا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2]، وعلى صعيدِ الواقع كم حصل في مجتمعاتِ المسلمين من خياناتٍ لم تنجُ منها العروبةُ وروابط القوميةِ، ووَحْدةُ الأرضِ واللغة؟!

٩- أيها المؤمنون: ولئن لم تُفتحِ القسطنطينيةُ في هذه الحَمَلاتِ والمحاولاتِ أيامَ الأُمويين، فلم تَضِعْ جهودُ المسلمين سُدًى، ويَكفِيهم أن كَتَبَ اللهُ منهم حينَها شهداءَ، وكان لبعضِهم فضلُ الرِّباطِ في سبيلِ الله، ورباطُ يومٍ في سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما فيها.

ومَهَّدَ هؤلاء لفتحٍ مرتَقَبٍ أخبر النبيُّ ﷺ عنه وعن أصحابهِ بقوله: «**لتُفتحَنَّ القسطنطينيةُ، فلنِعمَ الأميرُ أميرُها، ولنِعمَ الجيشُ ذلك الجيشُ**»[3].

وكان العثمانيونَ أصحاب هذا الفتحِ، وكان محمدٌ الفاتح أميرَ الجيش، وفضلُ الله يؤتيهِ من يشاءُ.

١٠- على أنَّ هؤلاءِ المسلمين الأوائلَ المحاولينَ لفَتْح القسطنطينيةِ وإن لم يُكتَبْ لهم فتحُها فقد تركوا فيها من المآثرِ ما به يُذكَرُ اللهُ، والمساجدُ شعارُ المسلمين أين حلُّوا وأين ارتحلوا، وابنُ تيميَّةَ في زمنِه يذكرُ مسجدًا بناه المسلمون الأُمَويُّون ويقول: وأقاموا على حصارِ القسطنطينيةِ عدةَ سنين في زمنِ عبد الملكِ بن مروانَ حين بعث ابنه مَسْلمةَ بجيشٍ عظيم إليها قال: ثم صالحوهم

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٣٣٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢١٨ وقال: رجاله ثقات.

على أن يَدخُلوها، وبنَوْا فيها مسجدًا، وذلك المسجدُ باقٍ إلى اليوم[١].

وكذلك يُعلِّمُنا التاريخُ أن اللاحقَ من المسلمين يُكمِلُ ما بدأَه السابقُ ومن لم يُقدَّرْ له الفتحُ والنصرُ على الأعداءِ في حينِه فحَسْبُه الأجرُ على ما قدَّمَ لنفسِه وهيَّأَه لمن يأتي بعدَه.

ذلكُم -معاشرَ المسلمين- فصلٌ من فصولِ ملاحمِنا مع الرومِ النصارى، وتلك نماذجُ لهِمَمِ رِجالِنا ونسائنا، وتلك دروسٌ في علاقاتِنا مع الأُمم من حولِنا. إنها ليست صفحاتٍ مطويَّةً في غابرِ الزمن، بل هي رصيدٌ وتجربةٌ علينا أن نُفِيد منها، ونستفيدَ من عِبَرِها، ونحن أُمةٌ لها تاريخٌ مجيدٌ لا يكفي أن نفتخرَ به، بل لا بدَّ من تجديدِ ما اندثرَ، وإحياءِ ما ذَبُلَ، والتذكيرِ بما نُسي، ومن تذكَّر فإنما يتذكَّرُ لنفسه، وفي محكم التنزيل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢].

أيها الناسُ: وفي زمنِ الامتحاناتِ -كهذه الأيام- حريٌ بنا أن نَذْكرَ ونَتذكَّرَ قيمةَ العلمِ، وقيمة السلوكِ، وعلى المُربِّين والمعلِّمين ألا يجعلوا الامتحانَ هدفًا بذاتِه، بل هو وسيلةٌ يمكنُ من خلالِها أن يربِّي الطلابُ والطالباتُ على مزيدِ الثقة والطمأنينةِ والأمانةِ والجديّةِ، وحريٌ بالآباء أن يُسهِموا في تحصيل أبنائهم وتوفيرِ الأجواءِ المناسبةِ والصالحةِ لاستذكارهم، وأن يَحذَرُوا -وهنا وقفةٌ مهمَّة- أن يَحذَروا من لصوصِ الامتحانات.. فثَمَّةَ نوعيةٌ من آحادِ الشباب تُصطادُ في مثلِ هذه الظروف، بدايةً بإهداءِ الحبوب المساعدةِ على السهر،

(١) الفتاوى ١٨/ ٣٥٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

وانتهاءً بالمخدّراتِ والمسكِّرات.. وتلك نهايةُ الوحلِ وبدايةُ مشوارِ الدمارِ والعَطَب، واحذروا على فَتَياتِكم من أصحابِ الأرقام المقذوفةِ.. وما تجرُّه من مكالماتٍ هاتفيةٍ هي بدايةُ السقوط للفتاة -لا قدَّر اللهُ-.

إنَّ علينا جميعًا أن نَحذَرَ من رُفَقاءِ السُّوء لأبنائِنا وبناتِنا في كلِّ حينٍ، وعلينا في هذه الأيامِ أن نركِّزَ اهتمامَنا أكثرَ حيثُ تبدأُ علاقاتٌ للامتحان بحُجَّةِ الدراسة، ثم تتحوَّلُ إلى علاقاتٍ مشبوهةٍ تنتهي بتَرْك الدراسة وتتطوَّرُ إلى أمورٍ أخرى يَنْدَى لها الجبينُ، فتنبَّهوا معاشرَ الشباب ومعاشرَ الفتياتِ لأهل الِخداع والمكرِ، وقل لي مَن تصادقْ، أقلُ لك من تكونُ في الحاضرِ والمستقبل.. اللهمَّ احفَظْ أبناءَنا وبناتِنا من كلِّ مكروه، ووَفِّقْهم للنجاحِ في امتحانِ الدنيا والآخرةِ.



# الإجازة بينَ فئتينِ
# ملاحظاتٌ ومقترحاتٌ(١)

## الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنفسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومنْ يضْلِلْ فلا هاديَ لَهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارْضَ اللهمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيُّها المسلمونَ: في كلِّ حينٍ تُمتَحنُ الهمَمُ، فهذا عالٍ في همّتِهِ، طَموحٌ في أهدافِهِ الخيّرةِ، وآخرُ دونيُّ الهمّةِ، متكاسلٌ في عملِ الخيرِ لنفسِهِ، ومن بابِ أوْلَى فهو أضعفُ منْ أن يُقدِّمَ الخيرَ لمجتمعِهِ وأمتِهِ ولكنَّ أوقاتَ الفراغِ تكشفُ أكثرَ تفاوتَ الهممِ، والقدرةَ على استثمارِ الأوقاتِ بما ينفعُ.

يُقال ذلكَ ونحن مُقبلونَ على الإجازةِ الصيفيةِ، ففيها يفرُغُ الطلابُ والطالباتُ من تكاليفِ الدراسةِ، ويتمتعُ عددٌ كبيرٌ مِنَ الموظفينَ بالإجازةَ لمدةٍ تطولُ أو تقصُرُ.

وهنا تُمتحَنُ الهممُ أكثرَ، ويحتاجُ المسلمُ إلى إعادةِ النظرِ في قيمةِ وقتِهِ واستثمارِ فراغِهِ -سواءٌ حلَّ أمِ ارتحلَ.

إنَّ منَ الناسِ مَنْ لا يُقدِّرُ قيمةَ الزمنِ، ولا يسألُ نفسَه عما حقَّقَ وأنجزَ، يَكفيهِ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٩/ ٣/ ١٤٢٣هـ.

أنْ يُمضيَ سحابةَ نهارِه وشطرًا مِنْ ليلِه في أُنسٍ وفُكاهةٍ ومطعمٍ ومشربٍ، لا يكترثُ بمَ يُقضَى الوقتُ، ولا فرقَ عندَه بنوعيةِ ما يسمعُ أو يُشاهدُ . . ولو كانَ في دائرةِ الفسوقِ والفجورِ -ولهؤلاءِ وأمثالهم يُقال: إن في دينِنا -دينِ الإسلام- فُسحةً للترويحِ عنِ النفسِ، والأُنسِ بالأصحابِ، والمحادثةِ مع الخِلّانِ، والاستمتاعِ بالنظرِ، وتشويقِ الأذنِ للسمع . . ولكنْ في سياج الشرعِ المطهَّرِ، وفي حدودِ الفضيلةِ، وفي إطارِ المكارمِ والمحامدِ -وهذه الفضائلُ والمكارمُ، والحدودُ الآمنةُ- فيها غُنيةٌ للنفسِ وإراحةٌ للضميرِ، وطمأنينةٌ للقلبِ.

أجَلْ، إنَّ الدراساتِ والتقاريرَ الميدانيةَ تكشفُ أنَّ أكثرَ الناسِ إصابةً بالأمراضِ النفسيةِ، همُ المنفتحونَ على كلِّ شيءٍ، والمشاهدونَ لكلِّ شيءٍ، والمستمعونَ لكلِّ لَغْوٍ . . والمتخفِّفونَ من تكاليفِ الشرعِ فلم تَزدْهم هذه الغفلةُ والمؤانسةُ المنحرفةُ إلا همًّا وكمَدًا.

وأصبحَ الواحدُ منهُم بلسانِ حالِهِ يقولُ: لقدْ مارستُ كلَّ شيءٍ . . ولكنَّ هذه وتلكَ عادتْ عليَّ بالضيقِ والضجَرِ والكآبةِ والحسرةِ.

وعادَ هؤلاءِ يبحثونَ عن السعادةِ التي فَقَدوها، وأدركَوا بعدَ حينٍ أنَّ الإعراضَ عنِ اللهِ وذكرِهِ وعبادتِه السببُ الأولُ والأخيرُ لهذه الأمراضِ النفسيةِ والانحرافاتِ السلوكيةِ . . وكأنَّهُم لأول مرةٍ يقرؤونَ قولَه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[(١)].

وكأنَّهُم لأولِ مرَّةٍ يسمعونَ النداءَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٢)].

يا عبدَ اللهِ: أيُّ مشروعٍ تُفكرُ فيه في هذه الإجازةِ، لا بد أنْ تُحدِّدَ -ابتداءً-

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

الهدفَ منْهُ، ولا بدَّ -ثانيًا- أنْ تُفكرَ في الوسيلةِ المناسبةِ لتنفيذِهِ، ولا بد -ثالثًا- منْ تقييمِ المشروع بعد انتهاءِ العملِ منْهُ .. وكلَّما كانَ الهدفُ خيِّرًا، والوسيلةُ صالحةً والتقييمُ دقيقًا .. كلَّما تحققَتِ النتائجُ بشكلٍ أفضلَ، وأورثَتْ صاحبَ المشروعِ أُنْسًا وسعادةً، يُحسُّ بها في الدنيا، ويجدُ جزاءَها يوم يلقى ربَّه حينَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم، وإذا كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا، فالباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثوابًا وخيرٌ أملًا.

يا أخا الإسلام: وفي زمنٍ يتصلُ العالَمُ بعضُهُ ببعضٍ، وتكثرُ المغُرياتُ وتهيجُ أعاصيرُ الفتنِ هُنا وهُناك، يتآمرُ أبناءُ المللِ على تشويهِ صورةِ الإسلامِ، ويصبحُ المسلمونَ هدفًا للإبادةِ .. وتنشطُ الإرسالياتُ التبشيريةُ في مشاريعها المُفسِدةِ، وتفوحُ روائحُ العداءِ والتشفِّي منَ المسلمينَ على أصْداءِ القمعِ الوحشي لليهود الصهاينةِ، ويكشفُ الهندوسُ والبوذيونَ، والشيوعيونَ، والباطنيونَ والمنافقونَ، والشهوانيونَ، وأهلُ الأهواءِ، عنْ وجوهِهِم الكالحةِ ويتقدمون بمشاريعِهِم المنحرفةِ.

هنا -وفي كلِّ هذه الظروفِ الصعبةِ- أفَيليقُ بمسلم ومسلمةٍ يقدرُ مسؤوليتَهُ أمامَ اللهِ، ومسؤوليتَهُ تجاهَ قضايا أمتِهِ، وواجبَهُ تجاهَ دينِهِ .. أنْ يُضيعَ وَقتَه سُدًى؟ أو يكتفي بالحوقلةِ وعدم الرِّضَى .. فضلًا أنْ يشاركَ الآخرينَ في الفسادِ بأيِّ شكلٍ مِنَ الأشكالِ؟!

إخوةَ الإسلامِ: والأشياءُ التي يُقضَى بها الوقتُ بما يضرُّ ولا ينفعُ كثيرةٌ، ولا مجالَ لحَصْرِها الآنَ .. ولكنْ دَعونا نركِّزُ على أمورٍ ثلاثةٍ فقطْ، تستحوذُ على اهتمامِ طائفةٍ منَ الناسِ، ولا بدَّ أنْ يدركوا مخاطرَها.

أولاها: العكوفُ على القنواتِ الفضائيةِ وشبكاتِ «الإنترنت» الفاسدةِ، وهذه كما تسرقُ الأوقاتَ، تسرقُ القيمَ وتُفسد السلوكياتِ، بلْ تُلوِّثُ الأفكارَ، وتُشوِّهُ

الثقافةَ النزيهةَ، وتُسيءُ إلى الإسلامِ وتستعمرُ المسلمينَ. إنها تحملُ الإرهابَ الفكريَّ، وتنقلُ الإيدزَ الأخلاقيَّ، وتحلُّ محلَّ الاستعمارِ العسكريِّ وتدعو للعقائدِ المنحرفةِ، وتُشوِّهُ العقيدةَ الصحيحةَ، وتُبرزُ الرذيلةَ وتدعو لممارسةِ الفاحشةِ، تُموَّلُ منْ تُجارِ اليهودِ والنصارَى وتُخْتارُ بَرامجُها بعنايةٍ، ويُخطَّطُ لأهدافِها بدقةٍ. فهلْ نَعِي الحقيقةَ ونُدركُ الخطرَ، أم نظلُّ سُكارَى حتى نُرْتَهنَ؟!

وثانيها: السَّفرياتُ الخارجيةُ المسرفةُ، تلك التي يندسُّ أصحابُها في أماكنَ مشبوهةٍ، ويقصِدونَ الرحلةَ إلى بيئاتٍ غير نزيهةٍ -وأولئكَ كذلكَ تُسرَقُ أخلاقُهم وقيمُهم قبلَ أنْ تُسرَقَ جيوبُهم، وتُمتَهنُ كرامتُهم، ويحَ هؤلاءِ لو سألوا أنفسَهُمْ عن المالِ كيف أنفَقوه؟ وعنِ الوقتِ كيف أضاعُوه؟ وعن الفضيلةِ كيفَ أزهقوها؟ وعنْ شخصياتِهمْ كيفَ أهانوها؟ وعنْ إسلامِهم كيفَ دنَّسوه؟ وعنْ بلادِهم كيفَ شوَّهوها؟

هلْ يُدركُ هؤلاءِ أنهُمْ ربَّما أنفقوا درهَمًا ذَبحوا فيهِ أنفسَهم وكانوا سببًا في ذبحِ إخوانِهِمُ المسلمينَ؟ بلى، إنَّ تعزيزَ اقتصادياتِ أعدائنا يرجعُ سِلاحًا تُطحنُ به صدورُ إخواننا؟

وهكذا تكونُ الجريمةُ مضاعفةً، والبليةُ شاملةً! نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ لنا ولإخواننا المسلمين.

ثالثًا: الاهتمامُ بالرياضةِ إلى حدِّ الهوَسِ، والمتابعةُ للمبارياتِ بشكلٍ ملفتٍ، وهذه ربَّما ظنَّ البعضُ أنَّها أهونُ المسالكِ وأخفُّ الأضرارِ وليسَ الأمرُ كذلك، وقد طالعْتُ بالأمسِ -في إحدى الصُحفِ المحليةِ- مقالًا جميلًا بعنوان (الكُرةُ أفيونُ الشعوبِ) وابتدأ صاحبُ المقال مقالَهُ قائلًا: غدًا سيبدأُ كأسُ العالمِ، ويبدأ معه موسمُ الجُنونِ والغفلةِ، (الجنونُ) لأنَّها الحالةُ الوحيدةُ التي تَسْتولي على كافةِ العقولِ، و(الغفلةِ) لأنها الفترةُ الوحيدةُ التي تَنسَى فيها الشعوبُ

مصائبَها، وتُغمضُ الطَّرْفَ عن مصائبِ الآخرينَ.

ثمَّ يقولُ الكاتبُ: وكرةُ القدمِ تستحقُّ لقبَ (أفيونِ الشعوبِ) لأنَّها فترةُ خَدَرٍ لذيذةٍ طالما استغلَّها السياسيون لصالحِهم .. ثمَّ ذكرَ الكاتبُ نماذجَ عالميةً لاستغلالِ الساسةِ لمبارياتِ كرةِ القدمِ في تحقيقِ أهدافِهم ثمَّ ختمَ الكاتبُ مقالَهُ قائلًا: وشخصيًا ما زلتُ أذكرُ كيفَ استغلَّتْ إسرائيلُ انشِغالَنا ببطولةِ ١٩٨٢م فغزتْ لبنانَ، ودمّرَتْ بيروتَ، وارتكبَتْ مجازرَ صَبرا وشاتيلًا، وأتوقَّعُ أنَّها سُتبادرُ (خلالَ البطولةِ الحاليةِ) إلى اقتحامِ غزةَ، وتدميرِ السلطةِ في مخطَّطٍ أجّلتْه لكأسِ العالمِ، وبالطبعِ كلُّ ما تحتاجُه عمليةَ استشهادٍ صغيرةٍ اهـ. فهلْ يا تُرى يُدركُ العقلاءُ ما لهذِهِ الرياضةِ مِنْ مخاطرَ وأهدافٍ؟؟[1].

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[2].

اللهمَّ انفَعْنا بالقرآنِ.



(١) فهد عامر الأحمدي، جريدة الرياض، الخميس ١٨/ ٣/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١١٥، ١١٦.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ جلَّ ثناؤه وتقدسَتْ أسماؤه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ.

وبعدُ:

فمِنَ الإنصافِ أنْ نقولَ: إنَّ عددًا كبيرًا مِنَ الناس باتوا يدركِونَ هذه المخاطرَ وغيرَها، وأقلعَ عنْها أناسٌ طالَما فُتِنوا بها، وثَمةَ فئةٌ ربّما مارسَتْها وهي لها كارهةٌ، وعسَى اللهُ أن يُعجِّل بتوبةِ المخطِئينَ، ويغفِرُ للمستغفِرينَ، وليسَ بينَ العبدِ وربِّه من حُجُبٍ، وربُّكَ الغفورُ الرحيمُ.

أيُّها المؤمنونَ: وحينَ نلتفتُ إلى الفئةِ الأخرَى الحريصةِ على وقتِها والراغبةِ في دعوةِ الآخرينَ، نجدُ خيرًا كثيرًا، ونجدُ أصداءً ونتائجَ لهذه الدعوةِ . . ولكنْ ولمزيدِ التفعيلِ أكثرَ، وفي سبيلِ نقدِ الذاتِ لتقديمِ عطاءٍ أفضلَ نقولُ: إنَّ ثمةَ معوقاتٍ للدعوةِ منْ داخلِ الدعاةِ وبإمكانِهم أنْ يعالجوها، ويُجدِّدوا في الدعوةِ ويخطِّطوا لَها.

ومنْ أدوائِنا في الدعوةِ:

١- الفرديةُ في العملِ، والأحاديةُ في الرأيِ، فروحُ الفريقِ المتفاهِم أنجحُ، والمشورةُ لا تأتي إلا بخيرٍ، فلو أنَّ مجموعةً مِنَ الناس فكَّروا جميعًا في مشروعٍ دَعَويٍّ أو تعليميٍّ، ثمَّ صاروا بعدَ التفكيرِ إلى التنفيذِ - لكانَ ذلكَ أسهلَ في العملِ، وأثمرَ في الإنتاجِ.

إنَّ عددًا مِنَ الناسِ لديهمُ القدرةُ على الاجتماعِ لرحلةٍ أو لقاءٍ أسبوعيٍّ أو

شهريٍّ . . ولكنَّ هذا اللقاءَ ينتهي عندَ حدودِ الأحاديثِ الودّيةِ، وتناقلِ الأخبارِ المحليةِ والعالميةِ، وتناولِ وجبةِ الطعامِ ليسَ إلّا .

أفَلا يستطيعُ هؤلاءِ أنْ يفكّروا بمشروعٍ للدعوةِ في سبيلِ اللهِ؟ وهنا تتحوّلُ هذه اللقاءاتُ إلى الإيجابِ بدلَ السلبِ، وإلى حفظِ الأوقاتِ بدلَ إضاعتِها؟ ولو كانَ ذلكَ مرةً في الفصلِ، فلا تحقرنَّ منَ المعروفِ شيئًا؟

٢- ومنْ أخطائنا: ضَعفُ التخطيطِ فنحنُ نهتمُّ بالفكرةِ ويضعُفُ تفكيرُنا بحسنِ التخطيطِ لها، وإدارةِ الوقتِ لها؛ والتخطيطُ والإدارةُ فنٌّ، بلْ عِلمٌ مهمٌّ، لا يسوغُ أنْ يضعفَ الأخيارُ فيه ويتفوّقَ غيرُهم، والتخطيطُ السليمُ لا يُفيدُ فقطْ في حسنِ الإنتاجِ ومضاعفةِ الثمارِ، بلْ يُسهمُ في دفعِ العاملينَ للعملِ، وفي سهولةِ التنفيذِ، وفي تلافي كثيرٍ من السلبياتِ والمعوّقاتِ، فهلْ يا تُرى نُعنَى بالتخطيطِ؟ وهل نقرأُ في الإدارةِ؟ وهل نُفكر في دورات من هذا القبيل؟

٣- ونضعفُ كذلكَ في إشراكِ الآخرينَ في التمويلِ والتنفيذِ. إنَّ بعضَ المخلِصينَ يظنُّ أنَّ مشروعَ الخيرِ الذي يُفكرُ فيه ينبغي أنْ يبدأَ وينتهي منْ عندِه، ولذلكَ فلربَّما وأد المشروعَ في مهدِهِ نظرًا لعدمِ قدرتِه على تنفيذِ جميعِ مراحلِه. . ولكنَّ إشراكَ الآخرينَ يدفعُ المشروعَ إلى الأمامِ، فهناكَ في المجتمعِ موسِرونَ أو أصحابُ وجاهةٍ لديهِمُ الرغبةُ في دعمِ الخيرِ بأموالِهم وآرائهم إنْ لم يستطيعوا بأنفسِهم . . لكنَّهم يحتاجونَ إلى منْ يطمئنُهم ويدلُّهم على مشروعٍ ناجحٍ تنقصُهُ النفقةُ فقطْ، أو يحتاجُ للرأيِ الناجحِ ومنْ حقِّهم أن يطمئنوا، ومن واجباتِ الأخيارِ أن يشركوهُم في الدعوةِ إلى دينِ اللهِ منْ خلالِ أموالِهم أو آرائهِمْ أو كليهِما . . هذا شيءٌ . .

وشيءٌ آخرُ لا بدّ منْ التفطُّنِ له وهوَ إشراكُ أكبرِ شريحةٍ ممكنةٍ في التنفيذِ. . ولوْ كانَ هؤلاءِ المشتركونَ في التنفيذِ أقلَّ من غيرِهم -فيما يبدو

لَنا- فهذه فرصةٌ لتدريبِهِم، وتلكَ وسيلةٌ منْ وسائلِ إشراكِهم في عملِ الخيرِ، وكسبِهم للدعوةِ.

إنَّ منْ أخطائنا -أحيانًا- أن نفترضَ أنَّ صاحبَ المشروعِ هو المفكّرُ والمخطّطُ والمموِّلُ والمنفّذُ .. وهذا ما فيه من إجهادِ النفسِ وتعويقِ العملِ، ففيه كذلكَ خسارةٌ لشريحةٍ كبرى منَ المجتمعِ يمكنُ أن تُستثمَرَ وقد تنتجُ وتنجحُ أكثرَ منْ غيرِها .. فهلْ تُفكرُ في هذا وتمارسُه عمليًا؟

يا صاحبَ الخيرِ، ويا ذا الهمَّةِ والرغبةِ في الدعوةِ لدينِ اللهِ وقد تسألُ عنْ مشروعٍ أو أكثرَ للدعوةِ -في مثلِ هذه الإجازةِ أو غيرِها- وتُجابُ بأنَّ المشاريعَ كثيرةٌ والفرصَ متاحةٌ، وقدْ يرى شخصٌ أو أشخاصٌ مجالًا مهمًّا، ويرى آخرونَ غيرَه، والمجالُ متسعٌ للجميعِ .. ولكنْ ومنْ بابِ الذكرَى أذكرُ لكَ -وعلى نسقِ ما مَضَى- ثلاثةً منَ المشاريعِ الدعويةِ تشمَلُ الداخلَ والخارجَ، ويمكنُ أنْ ينتفِعَ بها الذكرُ والأنثى بإذنِ اللهِ.

١- مشروعُ الدعوةِ والتعليمِ في القرى والهُجُرِ النائيةِ .. وكمْ يحتاجُ سكانُ هذه وتلكَ إلى العلمِ النافعِ والدعوةِ إلى الخيرِ، في زمنٍ باتَتْ القنواتُ مصدرَ التوجيهِ لهؤلاءِ، وربّما فتكَتْ المخدراتُ ببعضِهم، فكيفَ إذا انضافَ إلى ذلكَ حاجةٌ ومسغَبةٌ وكادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفرًا .. فدعوةُ هؤلاءِ وإعانتُهم مشروعٌ نبيلٌ.

٢- ومشروعٌ آخرُ للدعوةِ والتعليمِ والإغاثةِ لأقليةٍ منَ الأقلياتِ المسلمةِ في مشرقِ الأرضِ أو مَغرِبِها .. وكمْ يحتاجُ هؤلاءِ إلى عَوْنِ إخوانِهم! وكمْ يتطلعونَ إلى المسلمينَ كافةً وإلى أهلِ بلاد الحرمين خاصةً لتعليمهم ودعوتِهم وإغاثتِهم! فهل نُساهم بأنفسِنا أو بالتنسيق مع الهيئاتِ والمؤسساتِ الإسلاميةِ لدعوةِ وتعليمِ وإغاثة هؤلاء؟ ذلك مشروعٌ نبيلٌ كذلك.

٣- مشروعٌ تعليميٌّ ودَعَويٌّ للمرأةِ المسلمةِ وللشبابِ وللطفلِ المسلمِ لا سيّما والغزوُ موجَّهٌ لهُمْ أكثرَ منْ غيرِهم، وإذا صلَحَ هؤلاءِ كانوا دِعامةً أساسيةً لصلاحِ المجتمعِ كلِّه، فهلْ نسابقُ الزمنَ؟ وهلْ ننافسُ المفسدينَ لهؤلاءِ على الإصلاحِ والدعوةِ؟



# من مشاهد القيامة[(١)]

## الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(٢)]، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[(٣)]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، قصّ اللهُ عليه في كتابه ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[(٤)] وأتبعَهُ بهَولِ الأُمم في ذلك المقام فقال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[(٥)].

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[(٦)].

يا أخا الإيمان: وبدون مقدِّماتٍ دَعْني أذكِّرْ نفسي وإياك بموقفٍ مَهُول، ومشهدٍ عظيم، تنوَّعت أسماؤُه، واتفقتْ حقيقتُه، وكشَفَ القرآنُ الكريم ما يزيدُ على عشرين اسمًا له، إنه يومُ الخُروج: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/ ٤/ ١٤٢٣هـ.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ٣٨.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.
(٦) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

﴿ٱلْخُرُوجِ﴾[١]، ويومُ الفَصْل ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢] ويوم الدين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[٣]، إنه يومُ الحَسْرة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤].

ويومُ الوعيد ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾[٥]، ويومُ الجَمْع ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٦]، ويومُ الآزفَة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ﴾[٧]، ويومُ التَّلاق ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٨].

قال ابنُ عباس: يلتقي فيه آدمُ وذريتُه، وقيل: يلتقي أهلُ السماء وأهلُ الأرض، والخالقُ والخَلْق، والظالمُ والمظلوم، وقيل: كلُّ عاملٍ سيَلقَى ما عملَه من خيرٍ أو شرٍّ[٩].

وهو يومُ التنادِ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[١٠] قيل: سُمِّيَ بذلك لكثرة ما يحصلُ

---

(١) سورة ق، الآية: ٤٢.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الانفطار، الآيات: ١٧- ١٩.

(٤) سورة مريم، الآية: ٣٩.

(٥) سورة ق، الآية: ٢٠.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٧) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٨) سورة غافر، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٩) تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٠.

(١٠) سورة غافر، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

من نداءٍ في ذلك اليوم، فكلُّ إنسانٍ يُدْعَى باسمِه للحسابِ والجزاءِ، وأصحابُ الجنةِ يُنادُونَ أصحابَ النار، وأصحابُ النار يُنادُون أصحابَ الجنة، وأهلُ الأعراف ينادون هؤلاءِ وهؤلاء.

إنه يومُ التغابنُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[(١)].

يا عبدَ الله: ما أعظمَ الهولَ حين تكون ﴿الْقَارِعَةُ﴾، وإذا جاءت (الصاخَّة) و(الطامة الكبرى)، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ و﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ كم هو مُذهلٌ حين تكون ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ وإنما سُمِّيت بذلك لأن فيها يتحقَّقُ الوعدُ والوعيد[(٢)].

ألاَ ويحَ نفسٍ كذبتْ وتمادَتْ ثم أُخِذت على حين غِرَّة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[(٣)].

إنها نفخةٌ هائلةٌ مدمِّرة يسمعُها المرءُ فلا يستطيعُ أن يوصِيَ بشيء، ولا يَقدِرُ على العودةِ إلى أهلِه وخِلَّانه.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾[(٤)].

قال عليه الصلاة والسلام: «**كيف أَنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ، وحَنَى جبهتَه، وأَصغَى سمعَه، ينتظرُ أن يُؤمَرَ فينفُخَ**» قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسولَ الله؟ قال: «**قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا**»[(٥)].

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٩٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٤) سورة يس، الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٥) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٦٦.

وقال عليه الصلاة والسلام واصفًا سرعةَ هلاكِ الناس حين تقومُ الساعةُ: «**ولَتقُومَنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجلانِ ثوبَهما بينَهما فلا يَتبايَعانِه ولا يَطْوِيانِه، ولَتقومَنَّ الساعةُ وقد انصرفَ الرجلُ بلبنِ لِقْحتِهِ فلا يَطعَمُه، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يُلِيطُ حوضَه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفَعَ أُكلتَه إلى فيهِ فلا يَطعَمُها**» رواه البخاريُّ في كتاب الفتنِ والرِّقاق.

أيها المسلمون: والساعةُ أَدْهى وأمرُّ، والمَشاهِدُ فيها تشِيبُ لها مفارقُ الوِلْدان، وتضعُ الحواملُ حملَها، وترى الناسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ.

إي وربِّي، وفي لحظةٍ من الزمن ينفرطُ عِقدُ الكون، ويَحِيقُ الدمارُ الشاملُ، وينتهي أمدُ الحياة، وتتغيرُ المَعالِمُ، فالأرضُ تُزلزَلُ وتُدَكُّ، والجبال تُسيَّر وتُنسَفُ، والبحارُ تُفجَّرُ وتُسجَّرُ، والسماءُ تتشقَّقُ وتَمُور، والشمسُ تُكَوَّرُ وتذهبُ والقمرُ يُخسَفُ، والنجومُ تنكدِرُ ويذهبُ ضَوؤُها(١).

وفي لحظةٍ أخرى تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ، ويُساقُ الناسُ إلى أرضِ المحشَرِ، روى البخاريُ ومسلمٌ عن سَهْل بن سعدٍ ﵁ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ كقُرْصةِ النَّقِيِّ**» قال سهلٌ أو غيرُه: ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ(٢).

وفي تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾(٣).

قال ابنُ مسعودٍ ﵁: تُبدَّلُ الأرضُ أرضًا كأنها الفِضَّةُ، لم يُسفَكْ عليها دمٌ

(١) عمر الأشقر: القيامة الكبرى/ ١٠٠.

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، مسلم: كتاب صفات المنافقين، واللفظ للبخاري.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

حرامٌ، ولم يُعمَلْ عليها خطيئةٌ[١].

يا أخا الإسلام: ومِن هَوْلِ الأرضِ المُبدَّلةِ والبروزِ للهِ الواحدِ القهّار.. إلى هولِ الصراطِ والعبورِ عليه، وفي «صحيح مسلم» عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن قولِه ﷻ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكونُ الناسُ يا رسول الله؟ فقال: «**على الصِّراطِ**»[٢].

وعن حالِ الناس حين المرورُ على الصراطِ، روى البيهقيُّ بسندِه عن مسروقٍ عن عبدِ الله قال: يَجمَعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ، إلى أن قال: فمنهم من يُعطَى نورُه مثلَ الجبلِ بين يديهِ، ومنهم من يُعطَى نورُه فوقَ ذلك، ومنهم من يُعطَى نورُه فوقَ ذلك، ومنهم من يُعطَى نورُه مثلَ النَّحلة بيمينِه ومنهم من يُعطَى دونَ ذلك بيمينِه، حتى يكونَ آخِرُ من يُعطَى نورُه في إبهامِ قدمِه يُضيءُ مرةً ويَطفأُ أخرى، إذا أضاء قدَّمَ قدمه، وإذا أطفأَ قامَ، قال: فيمرُّون على الصراطِ، والصراطُ كحدِّ السيفِ دَحْضَ مَزلَّةٍ، ويقال لهم: امضُوا على قَدْرِ نورِكم، فمنهم من يمرُّ كانقضاضِ الكوكب، ومنهم من يمرُّ كالريحِ، ومنهم من يمرُّ كالطَّرْفِ، ومنهم من يمرُّ كشدِّ الرَّحْل يَرمُل رَمْلًا على قدْرِ أعمالِهم، حتى يمرَّ الذي نورُه على إبهامِ قدمِه تخرُّ يدٌ وتَعلَقُ يدٌ، وتخرُّ رِجْلٌ وتَعلَقُ رجلٌ، وتصيبُ جوانبَه النارُ، فيَخلُصون، فإذا خَلَصُوا قالوا: الحمدُ للهِ الذي نجَّانا منكِ بعدَ أن أراناكِ، لقد أعطانا ما لمْ يُعطِ أحدٌ» رواه الحاكمُ وصحَّحه ووافقه الذهبيُّ، وقال الألبانيُّ: في أحدِ رُواتِه ضعفٌ وقد تُوبعَ، فالحديثُ صحيح[٣].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**وتُرسَلُ**

(١) موقوف صحيح، وأخرجه البيهقي مرفوعًا وقال: الموقوف أصح، فتح الباري ١١/ ٣٧٥.
(٢) مسلم كتاب صفة المنافقين، باب البعث، والنشور (٢٧٩١) ٤/ ٢١٥٠.
(٣) شرح الطحاوية/ ٤٧٠.

الأمانةُ والرحِمُ فتقومانِ على جَنبَتَي الصراطِ يمينًا وشمالًا، فيمرُّ أوَّلُكم كالبرقِ ثم كمَرِّ الريح، ثم كمَرِّ الطيرِ وشدِّ الرِّحالِ، تجري بهم أعمالُهم، ونبيُّكم قائمٌ على الصراطِ يقول: ربِّ سلِّمْ سلِّمْ، حتى تعجزَ أعمالُ العبادِ، حتى يجيءَ الرجلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلا زحفًا، قال: وعلى حافتَي الصراطِ كلاليبُ معلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذِ مَن أُمِرَتْ به، فمخدوشٌ ناجٍ، ومكدوسٌ في النار»(١).

يا عبدَ الله، أيُّ نورٍ سيكونُ لك على الصراطِ؟ ساءِلْ نفسَكَ عن درجةِ الإيمانِ واليقينِ وعملِ الصالحاتِ في الدنيا، وستجدُ الخبرَ اليقينَ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

وحَذارِ من النفاقِ والمنافقينَ، فهناك تتعالَى صيحاتُهم ثم لا يُجابُونَ ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣).

ربَّنا أتمِمْ لنا نورَنا واغفِرْ لنا إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ، أقولُ ما تسمعونَ وأستغفرُ اللهَ.

❁ ❁ ❁

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة، ح (١٩٥).

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٢.

(٣) سورة الحديد، الآيات: ١٣- ١٥.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، يُحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، بدأَ خلقَ الإنسانِ من طينٍ ثم جعل نسلَه من سُلالةٍ من ماءٍ مَهِين ثم سوَّاهُ ونفخَ فيه من رُوحِه وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلًا ما تشكرون، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أجابَ وحيَ السماءِ الذي قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ النبيِّين.

عبادَ الله: وهناك في عَرَصاتِ القيامةِ تكون الشفاعةُ العظمى لنبيِّنا ﷺ حين يعتذرُ الأنبياءُ عنها -لهولِ الموقفِ وشدَّتِه- وقد صحَّ في الخبرِ عنه ﷺ: «**لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ دعاها لأُمتِه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأُمتي يومَ القيامةِ**» متفق عليه[2].

وكما يُكرَمُ محمدٌ ﷺ بالشفاعةِ في الموقفِ العظيم يُكرمُه اللهُ بإعطائِه حوضًا واسعَ الأرجاءِ، ماؤُه أبيضُ من اللبنِ، وأحلى من العسلِ، وريحُه أطيبُ من المسكِ، وكِيزانُه كنجومِ السماء، يأتيه الماءُ من نهرِ الكوثرِ، مَن شربَ منه لا يظمأُ بعدَها أبدًا.

روى مسلمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ حَوْضي أبعدُ من من (أيْلَةَ) مِن (عَدَنٍ)**» و(أيلةُ) مدينةُ العقبةِ في الأردنِّ، وعَدَنٌ

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) جامع الأصول ١٠/ ٤٧٥.

في اليمنِ -كما هو معروف.

وعند البخاريِّ: «**حَوضِي مسيرةُ شهرٍ، وزواياهُ سواءٌ**».

«**لهوَ أشدُّ بياضًا من الثلجِ وأحلى من العسلِ باللبنِ، ولآنيتُه أكثرُ من عددِ النجومِ، وإني لأَصُدُّ الناسَ عنه كما يصدُّ الرجلُ إبلَ الناسِ عن حوضِه**» قالوا: يا رسولَ الله، أتعرفُنا يومئذٍ؟ قال: «**نعمْ، لكم سيمَا ليستْ لأحدٍ من الأممِ، تَرِدُونَ عليَّ غُرًّا مُحجَّلين من أثرِ الوضوءِ**».

أيها المسلمُ يا عبدَ الله: بشراكَ حين تَرِدُ الحوضَ مع الوارِدِين، وإياكَ أن تُصَدَّ بسوءِ عملِك، فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ليَردَنَّ على الحوضِ رجالٌ من أُمَّتي حتى إذا رأيْتهم ورُفِعوا إليّ اختُلِجُوا دوني، فأقولُ: أصحابي أصحابي، فيقالُ لي: إنكَ لا تدر ما أَحدَثُوا بعدَكَ**».. وفي روايةٍ: «**فأقولُ: سُحْقًا لمن بدَّلَ بعدي**»[(١)].

وبُشراكَ -يا أخا الإسلام- حيث تَعبُرُ الصراطَ آمنًا، وتَنجُو من جهنمَ سالمًا والله يقولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ إنها التقوى، والتقوى وحدَها سببٌ للنجاةِ من النار ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[(٢)].

ما موقفُك عند هذه الآيةِ؟ وما مشاعرُك تجاهَ هذا المشهدِ يومَ القيامة؟ لقد غيَّرتْ هذه الآيةُ أحوالَ الصالحين، فأسهرَت ليلَهم، وعكّرتْ عليهم صَفْوَ عيشِهم، فقد ذُكِر أن أبا ميسرةَ كان إذا أَوى إلى فراشه قال: يا ليتَ أُمي لم تلدْني، ثم يبكي فقيلَ له: ما يُبكيكَ يا أبا ميسرةَ؟ فقال: أُخبِرْنا أنّا وارِدُوها ولم نُخبَرْ أنا صادرونَ عنها.

---

(١) جامع الأصول ١/ ٤٦٨.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

وقال عبدُ الله بنُ المبارَكِ عن الحسن البصريِّ -رحمهما اللهُ-: قال رجلٌ لأخيه: هل أَتاكَ أنك واردُ النار؟ قال: نعم، قال: أتاك أنك صادرٌ عنها؟ قال: لا، قال: ففيمَ الضحك؟ قال: ما رُئِيَ ضاحكًا حتى لَحِقَ بالله[1].

أين نحنُ من قومٍ صَحِبُوا رسولَ الله ﷺ، وجاهدوا في سبيل الله، ثم هم يخافونَ سوءَ الحساب، فقد ذُكِرَ أن عبدَ الله بنَ رَوَاحةَ ﷺ وضعَ رأسَه على حِجر امرأتِه فبكى، فبكتِ امرأتُه، قال لها: ما يُبكيكِ؟ قالت: رأَيتُكَ تبكي فبكيتُ، قال: إني ذكرتُ قولَ الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فلا أدري أَنجُو منها أم لا[2].

يا عبدَ الله، أين اليقينُ بلقاءِ الله؟ وأين شواهدُ اليقينِ من الخوفِ والرجاءِ والصدقِ والإخلاص، والرغبةِ في الآخرةِ والزهدِ في الدنيا، أو على الأقلِّ في الاكتفاءِ منها بالحلالِ دونَ الحرام -إنَّ الحساب عسيرٌ، ومن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب، والميزانُ عدلٌ -ولا يظلِمُ ربُّكَ أحدًا- والموقفُ رهيبٌ، والشهودُ منكَ عليك.. فلا مَحيصَ ولا إنكارَ، أخرج مسلمٌ وغيرُه من حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ ﭬ قالا: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يلقى العبدُ ربَّه، فيقول اللهُ: ألم أكرِمْكَ وأُسوِّدْكَ وأزوجْكَ؟ وأسخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ، وأَذَرْكَ ترأَسُ وتربَعُ؟ فيقول: بلى أيْ ربِّ، فيقولُ: أظننتَ أنكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقال: إني أنساكَ كما نَسِيتَني، ثم يلقى الثانيَ فيقولُ له مثلَ ذلك، ثم يلقى الثالثَ فيقولُ له مثلَ ذلك، فيقول: آمنتُ بكَ وبكتابِكَ وبرسولِكَ وصلَّيتُ وصمتُ وتصدقتُ، ويُثْنِي بخيرٍ ما استطاعَ، فيقولُ: ألا نبعثُ شاهدَنا عليك؟ فيفكِّرُ في نفسِه مَن الذي يشهدُ عليَّ، فيُختَمُ على فيهِ، ويقال لفخذِه: انطِقي، فتنطقُ فخذُه وفمُه**

(١) أورده ابن كثير -ونسبه إلى ابن جرير- ٣/ ٢١٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٧.

**وعظامُه بعملِه ما كان، وذلك ليُعذَرَ من نفسِه، وذلك المنافقُ الذي يُسخَطُ عليه»**[١].

يا عبدَ الله: هل حضَّرت لهذا السؤالِ جوابًا؟ يا غافلًا عن هذه المقاماتِ تذكَّرْ، جاهِدْ نفسَك على عملِ الصالحات، كيف حالُكَ والصلاةَ؟ وهي أولُ ما يُحاسَبُ عنه العبدُ يومَ القيامة؟ وكيف أنتَ والزكاةَ؟ بل وعنِ المالِ كلِّه من أين تجمَعُه وكيف تُنفِقُه، كيف علاقتُكَ بربِّكَ خاصةً وبالخلقِ عامةً، وما من مَظلِمةٍ إلا وسيَرِدُ عليكَ أصحابُها في يومٍ أنت أحوجُ فيه إلى مِثْقالِ ذَرّةٍ من الحسنات، وما بك حاجةٌ إلى شيءٍ من السيئات؟ هل أنت من أهلِ القرآنِ تلاوةً وعملًا؟ أم أنتَ في عِدادِ من اتخذَ القرآنَ مهجورًا؟ وكيف حالُ لسانِك مع ذِكْرِ الله؟ وهو مما يُثقِّلُ الميزانَ «**كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلى الرحمن: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ الله العظيم**».

ما جهودُكَ في الدعوةِ إلى دينِ الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٢].

وماذا تصرفُ من وقتِكَ لطلبِ العلمِ النافعِ «**ومَن سلكَ طريقًا يلتمسُ فيه عِلمًا سهَّلَ الله له به طريقًا إلى الجنة**»، كيف إحسانُك إلى الفقراءِ، «**والصدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ كما يطفِئُ الماءُ النارَ**»، وكيف أنت وصِلةُ الأرحام «**والرحِمُ على جَنَباتِ الصراطِ والرحمنُ يقول: مَن وَصَلَها وصلْتُه، ومن قطعَها قطعْتُه**»، وأين أنتَ من حُسْنِ التعامل مع الجيرانِ وحُسْنِ الخُلُقِ مع عمومِ خَلْقِ الله، وصاحبُ الخلقِ الحَسَنِ يبلغ درجةَ الصائمِ القائمِ -إلى غير ذلك من أعمالٍ صالحةٍ تُدلِّلُ على

---

(١) مسلم ٤/ ٢٢٨٠، ح ٢٩٦٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

ترقُّبِكَ ليومِ الحساب، ومع ذلك كلِّه فلا تغترَّ بعملٍ عملته، وأسألْ ربَّكَ القَبُولَ والمغفرةَ والثباتَ على الحقِّ إلى أن تلقاه.. وليكن شعارُك في هذه الحياةِ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1].

أيها الناسُ: إن نفرًا من المسلمين شَغَلتهُم الحياةُ الدنيا ببهجتِها وزُخرفِها وغرورها عن مَشاهدِ القيامة، وفَرِحوا بالحياة الدنيا وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور.. لم يتَّعِظوا بصَرْعاها وفي كلِّ يومٍ لها صريعٌ، ولم يأخذوا العبرةَ من غيرِهم بل كانوا لغيرِهم عبرةً.

ما أَحوجَنا إلى صيحةِ صادقٍ كالذي قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾[2].

وما أحوجَنا إلى واعظٍ كالذي قال لأبي ذرٍّ رضي الله عنه: يا أبا ذرٍّ أكثِرْ من الزادِ فالسفرُ طويلٌ، وخفِّفِ الظهرَ فالعقبةُ كَؤُودٌ، وأصلِح العملَ فالناقدُ بصيرٌ.

وما أَحوجَنا إلى ذِكْرى أُويس القَرْني -سيد التابعين- لعمرَ وعليٍّ وهما من ساداتِ المؤمنين وقد قال أويسٌ: إن بيني وبينكما عَقَبةً كؤودًا لا يتجاوزُها إلا مُخِفّ.

اللهمَّ خفِّفْ أوزارنَا.. وثقِّلْ في عَرَصاتِ القيامة موازيننا، وارحمْ يومَ العرضِ عليك مقامَنا.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٩.

# الدين والتدين عشر معالم(١)

## الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾(٢)، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الدينُ واصبًا (أي الطاعةُ دائمًا) وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه بَعثَه اللهُ بالإسلام دِينًا خاتمًا وحقًّا، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٣).

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ النبيِّينَ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٥).

أيها الناسُ: الدينُ والتدينُ فِطرةٌ ربانيةٌ، وحاجةٌ ملحَّةٌ، ومطلبٌ ينتهي بالمرءِ إلى السعادةِ أو الشِّقْوة(٦)، ومَن أبصرَ واقعَ الشعوبِ اليومَ وغدًا، وبالأمسِ وفي

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٧/ ٤/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٦) وفي التنزيل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين واللفظ للبخاري قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام (الفتح ٣/ ٢٤٨) وإن وردت أقوال أخرى (تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨).

غابرِ الزمن، رأى أنه ما من مجتمعٍ أو أُمةٍ إلا ولها دينٌ ومعتقَد، ولكنَّ هذا الدين قد يكون حقًّا فيُفلِحُ معتنِقُوه في الدنيا ويَسعَدُون في الآخرةِ، وقد يكون الدينُ باطلًا فيورِّث أتباعَه الشقاءَ في الدنيا والعذابَ والخزيَ في الآخرة.

إن المتأمِّلَ في حديثِ القرآنِ عن الدين يجِدُ إشارةً لهذا وذاك، ويجدُ توجيهًا ربانيًا بالتزامِ الدين الحقِّ، وتأكيدًا على الإسلامِ على أنه الدينُ الذي أراده اللهُ ونَسَخَ به الأديانَ كلَّها.

تأمَّلوا في عددٍ من آياتِ القرآن في وصفِ الدين الذي يريدُه اللهُ، فاللهُ يقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]، ويقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾[2]، ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[4]، ويقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[5].

وفي الجانبِ الآخر -وعن الأديانِ الباطلةِ- يقول تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[6]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[7]، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[8]، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[9].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٢١.

(٧) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٨) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

أيها المسلمون: إننا بإزاءِ هذه الآياتِ القرآنيةِ، أو سواها من آياتٍ وأحاديثَ نبويةٍ، نقفُ على عِدَّة (معالمَ) حول الدِّينِ والتديُّن.

**المَعْلَم الأول:** حاجةُ الإنسانِ إلى الدين، فلا اليهوديُّ ولا النصرانيُّ، ولا الوَثَنيُّ، ولا البُوذيُّ، ولا المجوسيُّ، ولا الصابئيُّ ولا سواهم -ممن أضلَّهم الله- يعيشُ بلا دينٍ.. ولكنَّ فضلَ الله في الهدايةِ والتوفيقِ يُؤْتيه من يشاءُ، وعلى من وفَّقه اللهُ للدينِ الحقِّ أن يشكرَ اللهَ على هذه النعمةِ التي سُلِبَها وضلَّ عنها أممٌ وشعوبٌ كثيرة، قال اللهُ عنهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

إنَّ الإسلامَ والإيمان مِنَّةٌ ربانيةٌ، وعلى المسلمين أن يَشكُروا ربَّهم عليها، وأن يعترفوا له بالفضلِ سبحانه إذْ هداهم إليه.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣).

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(٤).

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٥).

**المعلم الثاني:** ومِن عجبٍ أن ترى أو تسمعَ عن حماسِ أصحاب الدياناتِ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٣.

الباطلة، والمِلَلِ المنحرفةِ، لأديانِهم ومِلَلِهم إلى حدِّ الغلوِّ في الدين والرهبانيةِ المبتدَعَة، بل يبلغُ الحماسُ إلى التواصي بالصبرِ على هذه الآلهةِ وإن كانتْ فاسدةً؟

أجلْ، إنَّ من يقرأُ ما قصَّهُ اللهُ في كتابِه من أخبار الأُمم الماضيةِ يجدُ غُلوًّا عندَ أهلِ الكتاب قال اللهُ عنه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾[1]، وقال عنها: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾[2].

ويجدُ حماسًا وصبرًا عند المشركين على آلهتِهم الباطلةِ: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾[3].

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾[4].

فهل يَسُوغُ أن يتحمَّسَ أصحابُ الباطلِ لأديانِهم ومعتقَداتِهم ويتراخى ويَضعُفَ أصحابُ الدين الحقِّ عن الصدقِ والحماسِ لدينِهم؟

**المَعلَمُ الثالث:** بل يجدُ المُطالعُ لآياتِ القرآنِ وأخبارِ الأمم السالفةِ واللاحقةِ محاوَلةً من أهلِ الباطل لتشويهِ الدِّين الحقِّ، ورَمْيِ المؤمنين بالباطل واتهامِهم بالفسادِ، بل ومحاولةِ قتلِهم والتخلُّص منهم.

لقد حفِظَ القرآنُ مقولةَ فرعونَ الآثمةِ الكاذبةِ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٦.

(٤) سورة نوح، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾(١).

وفي قصةِ إبراهيمَ عليه السلام مع قومِه: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾(٢)، وقوم لوطٍ قالوا لِلُوطٍ عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٣).

أما ثمودُ فكان جزاءُ صالحٍ عليه السلام حين دعاهم إلى عبوديةِ الله وحدَه أن يُقسم الرهطُ المفسِدون ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٤).

ولا يزالُ المفسِدونَ من اليهودِ والنصارى والمشركين يتربَّصونَ بالمسلمين الدوائرَ يقتلون ويُحاصرون ويَسخَرون ويتَّهمون ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾(٥). ولا تزالُ التهمُ تُكال جُزَافًا للإسلام والمسلمين بالتطرُّفِ والإرهابِ ونحوها.

**المَعْلَم الرابعُ**: وهل تعلمونَ أن هؤلاءِ الكفَّارَ -قديمًا وحديثًا- الذين يتهمون المسلمين بالتطرُّف هم المتطرِّفون، لقد قال فرعونُ -مرةً أخرى- لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(٦) وهذه قِمَّةُ التطرفِ والانحراف.

وفي المقابلِ استهجنَ موسى عليه السلام وازدَرَاهُ قائلا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾(٧).

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٦.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ٤٩- ٥٠.

(٥) سورة البروج، الآية: ٢٠.

(٦) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

وقريشٌ الوثنيّةُ كانت في وجهِها الآخَرِ متطرِّفةً في الدين حين ألزمتْ نفسَها بتشريعاتٍ لم يأْذنْ بها اللهُ، وخصَّت نفسَها بخصائصَ وابتدعت (الحُمْسَ) وما أدراك ما الحُمْسُ؟

قال أهل اللغة: الحُمْس: قريشٌ؛ لأنهم كان يتحمَّسونَ في دينِهم، أي: يتشدَّدون[1].

وروى ابنُ سعدٍ في الطبقات: «التحمُّس أشياءُ أحدثُوها في دينِهم، تحمَّسوا فيها، أي: شدَّدوا على أنفسِهم فيها»[2].

ومن الجاهلياتِ الأولى إلى الجاهلياتِ المعاصرةِ حيث لا يكتفي أهلُها بالتُّهم الباطلةِ بل يمارِسونَ القتلَ والحصارَ بكلِّ أشكالِه الماديةِ والمعنويةِ، وتجتمعُ وتتحالفُ قُوى الكفرِ كلُّها -اليومَ من يهودَ ونصارى وشيوعيين وهندوسٍ ووثنيين على حربِ المسلمين وإبادتِهم، ويَمكُرون ويمكرُ الله.

ولم يكن تطرُّفُ قريشٍ في الحجِّ وحدَه، بل إن تسييبَ السوائب، وهي ما يُسيِّبونَه من الأنعامِ لآلهتِهم إن شُفِيَ لهم مريضٌ أو قُضِيتْ لهم حاجةٌ، وجَعْلَ (البحَيرة) و(الوَصيلة) و(الحامِ) من معتقَداتٍ لم يأذنْ بها الله تطرُّفٌ قرشيٌّ أنكره القرآنُ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[3].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٠٤ مادة (حمس).

(٢) الطبقات ٨/ ٧٢٠ عن الواقدي.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

ومن تطرُّفِ قريشٍ وافترائِها على الله ما قَصَّه الله عليهم في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(١).

روى البخاريُّ ومسلمٌ رحمهما الله -في صحيحيهما- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانت قريشٌ في الجاهليةِ ومن دانَ بدينِها يَقِفُونَ بالمزدلِفَةِ عند المَشعَرِ الحرام، وكان سائرُ العربِ يقفونَ بعرفاتٍ»(٢).

والمعنى أن قريشًا خصَّتْ نفسَها وميَّزتْها بالوقوفِ -في الحجِّ- في مزدلِفَةَ دونَ سائرِ العربِ التي كانت تُفِيضُ من عرفاتٍ -يعني من الحِلِّ- وهي تمارسُ هذا التطرُّفَ الدينيَّ كانت تعلمُ أن الوقوفَ بعرفةَ من مشاعرِ الحجِّ التي مضى عليها إبراهيمُ عليه السلام، ولكن قريشًا تريدُ أن تُميِّزَ نفسَها عن الآخرين، ولم تكن هذه هي وحدَها أفكارَ قريشٍ في التطرُّف والتشريع بما لم يأذنْ به اللهُ، فقد كان من آرائِهم البِدْعيةِ الحُمْسيةِ أنهم حرَّموا على أنفسِهم في حالِ إحرامِهم: ألا يأْتِطقُونَ الأقِطَ -أي: لا يصنعونه وهم مُحرِمون-، ولا يَسْلُون السمنَ -أي: يذيبونه- ولا يأكلونه وهم مُحرِمون، ولا يأكلون اللحمَ أو شيئًا من نباتِ الحَرَم وهم مُحرِمون.. في جملةٍ من المحرَّماتِ ابتدعوها وألزمُوا بها أنفسَهم ومن وافقَهم،

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٣٦- ١٤٠.
(٢) البخاري رقم ٤٥٢٠، ومسلم رقم ١٢١٨.

ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ وكانوا لا يَطُوفون بالبيتِ إلا وعليهم ثيابُهم، وألزموا غيرَهم من أهل الحِلِّ ألا يطوفوا بالبيتِ إذا قَدِموا -أولَ طوافِهم- إلا في ثيابِ الحُمْس، ومن لا يجدُها شِراءً أو إعارةً، فعليه أن يطوفَ بالبيتِ عُرْيانٌ- واستمرَّتْ هذه العوائدُ الجاهليةُ المتطرِّفةُ حتى أعلَنَ منادي رسولِ الله ﷺ: ألَّا يحجَّ العامَ مشرِكٌ ولا يطوفَ بالبيتِ عُرْيانٌ، وأبطلَ اللهُ عوائدَ قريشٍ وما ابتدعتْه في الحج حين نزلَ القرآن: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].



(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٩٨، ١٩٩.

## الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، شَرَعَ لنا أكملَ الدِّينِ، وخصَّنا ببعثةِ خاتمِ المرسَلين، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، لا يُعبَدُ إلا بما شَرَعَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، قال وهو الصادقُ المصدوق: «**مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**» صلى اللهُ وسلَّمَ عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

إخوةَ الإسلام.

**المَعْلَم الخامسُ**: وإذا تفاخرتِ الأُممُ بأديانِها وتشبَّثت الشعوبُ بمعبوداتِها -من دونِ الله- فحُقَّ للأُمةِ الإسلامية أن تفخَرَ بدينِها الحقِّ، وأن تتمسَّك بعباداتِها الصحيحة، وتثبُتَ على هَدْيِ السماء، شعارُها: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

ودليلُها ومُؤنِسُها قولُه تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[2].

**المَعلَم السادس**: ولا ينبغي للأُمةِ المسلمة وللفَرْدِ المسلم أن يصدَّه عن اتِّباعِ

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٦١- ١٦٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

الدِّين الحقِّ والدعوةِ إليه ما يَجِدُه من هَجَماتِ الأعداء ومَكْرِهم، فتلك هجماتٌ وفتنٌ قديمةٌ تتجدَّد، ووعدُ اللهِ حقٌّ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾(١)، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٢).

**المَعلَم السابع**: وثمةَ مصطلحاتٌ خادعةٌ وأفكارٌ مرفوضةٌ تُطلَقُ بين الفَيْنة والأخرى باسمِ (وَحْدةِ الأديان) أو (التقريبِ بين الأديان) أو نحوها من مصطلحاتٍ وآراءٍ تُلبِسُ الحقَّ بالباطل، وتَنْأى عن منهجِ القرآن في محاورةِ أَهلِ الكتاب على أساسِ قولهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣)، هذا حكمُ القرآن ومَن أحسنُ من الله حُكمًا لقومٍ يُوقِنون، أما الواقعُ التاريخيُّ فقد اتَّسمَ تاريخُ العَلاقاتِ بين المسلمين وأهلِ الكتاب بالعَداءِ والجهادِ المستمرِّ، وكان فتحًا مُبينًا في القرونِ الفاضلة الأولى، وسِجالًا في العصورِ الوسيطة، وانحسارًا في العصورِ الحديثة، وكان النصرُ والتمكينُ متناسبًا تناسبًا طرديًّا مع التزامِ المسلمين بدينِهم وأَخْذِهم بأسبابِ القوة المعنويّةِ والماديةِ عبرَ مراحلَ تاريخيةٍ متمايزةٍ، دون أن تشهدَ على الإطلاق أيَّ لونٍ من (الوِفاق الدِّيني) أو (التقاربِ العَقَدي) وستظلُّ هذه السِّمَةُ باقيةً وملازمةً للطائفةِ المنصورةِ حتى قيامِ الساعة، لا يضرُّهم من خَذَلَهم ولا من خالفهم -كما قال رسولُ الهدى(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٤) د. أحمد القاضي: دعوة التقريب بين الأديان ٤/ ١٦٣٠ بتصرف.

**المَعلَم الثامن**: إنَّ هذه الأفكارَ المرفوضةَ في الدعوةِ (لتوحيد الأديانِ) أو (تقاربِها) لا تُلغِي أهميةَ الحوارِ بين المسلمين وأتباعِ الأديانِ الأُخرى من قِبَلِ علماءَ متخصِّصين راسخين في العلمِ والدين، ويجيدون لغةَ الحوار مع الآخرين مع الشعورِ بعزَّةِ الإسلام، وذلك لدعوةِ الآخرين للحقِّ، والبلاغِ المبين، وتوضيحِ الإسلام بصورتِه الساطعة، وكشفِ الباطلِ والوصولِ بالإسلام إلى شعوبٍ طالما حُجِبَت عن نوره الوضَّاءِ، وذلك باستخدامِ وسائلِ الإعلام بمختلفِ قَنَواتِها، والتقنياتِ الحديثة ووسائِلها المختلفةِ. فتلك من واجباتِ المسلمين في الدعوةِ والبلاغ.

**المَعلَم التاسع**: ويبقى بعدَ ذلك التديُّنُ بالإسلامِ الحقِّ أمانٌ من الفتنِ بإذنِ الله، وطريقٌ للسعادةِ في الدنيا والنعيمِ المقيمِ في الآخرة.

إنه -أعني التديُّنَ المشروعَ- طريقُ الجنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾(١).

وهو السبيلُ لمحبةِ الناسِ وتقديرِهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾(٢).

وبه يحصلُ الأمنُ في الأوطان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾(٣).

ويتوفَّرُ رَغَدُ العيشِ ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٤)، بل إنَ بَنِي الإنسانِ كلَّهم خاسرون إذا لم يتديَّنوا ويعملوا

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

وَفْقَ ما شَرَعَ الله ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]، يطمئنُّ الناسُ لأهلِ الدين، ويَثِقُون بالمتديِّنين، ويَغبِطون الملتزمين، فماذا يمنعُك أخا الإسلام أن تكون في طليعةِ المتديِّنين الصادقين؟

**المَعلَم العاشر**: ولا يَسُوغُ بحالٍ أن يتديَّنَ اليهوديُّ وهو يستمدُّ ديانتَه من (توراة عزرا) و(تُلموذِ الحاخامات)، ويتديَّنُ النصرانيُّ وهو يستندُ في ديانتِه إلى (الإنجيل المحرَّفة) و(رسائل بولس) وهي خليطٌ من التثليثِ وتأليهِ المسيح وسائرِ البِدَعِ العَقَديَّةِ، ويتديَّن الشيوعيُّ وعقيدتُه تقومُ على الإلحادِ وإنكارِ خالقِ الوجود، ويتديَّنُ الهنادكةُ وهم يعبدونَ البقرَ، ويتديَّنُ غيرُهم وهم يعبدون الشياطينَ أو يعبدون الفروجَ أو نحوَها من ضلالاتٍ ما كان للعقلِ البشريِّ أن ينحطَّ إليها في عصرِ العلمِ والمعرفةِ، ثم لا يَسُوغُ بحالٍ أن تَرُوجَ هذه الدياناتُ الباطلةُ ويتوارى المسلمُ بديانتِه الحقَّة أو يَضعُفُ في الالتزامِ بدينه، أو يقعدُ عن الدعوةِ وإنقاذِ الحَرْقَى والغرقَى والجُذامَى ومَن بِهِم صرعٌ أو جنون، لقد أظلمَ الكونُ بمعبوداتٍ ضالَّةٍ، فهل يُنقِذُ المسلمون أنفسَهم أولًا من الضعفِ والوهنِ - ثم ينتقلوا لإنقاذِ الآخرين..؟



(١) سورة العصر، الآيتان: ١، ٢.

# فهرس خطب
# الجزء التاسع

